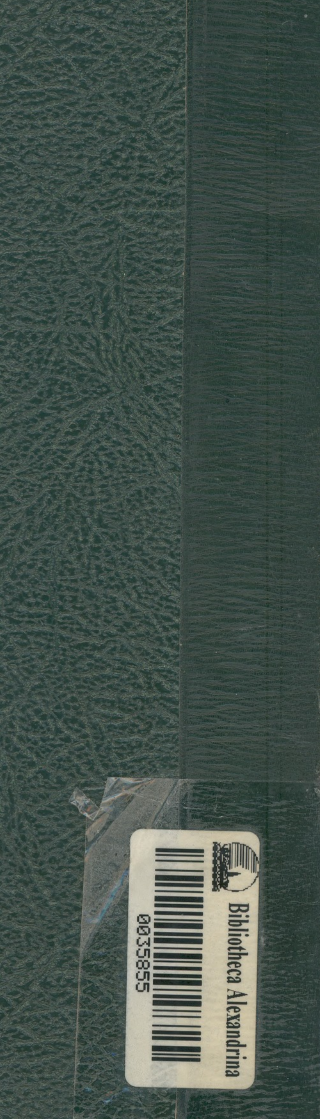
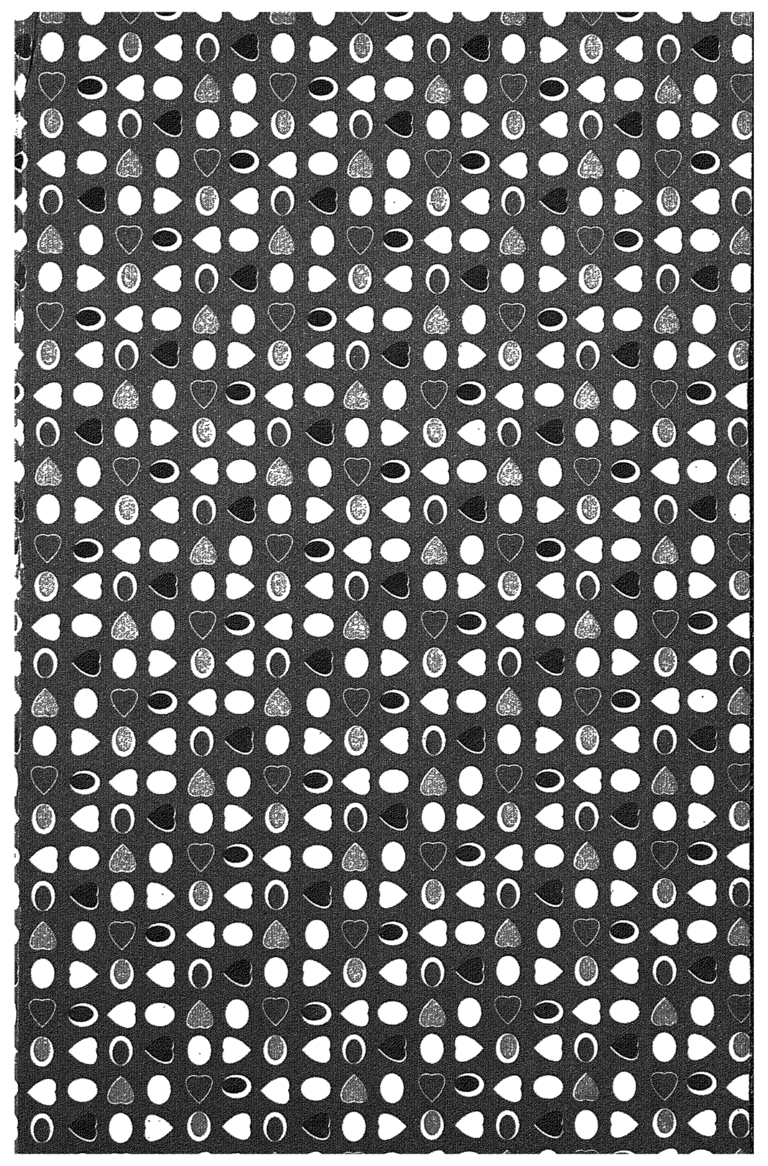
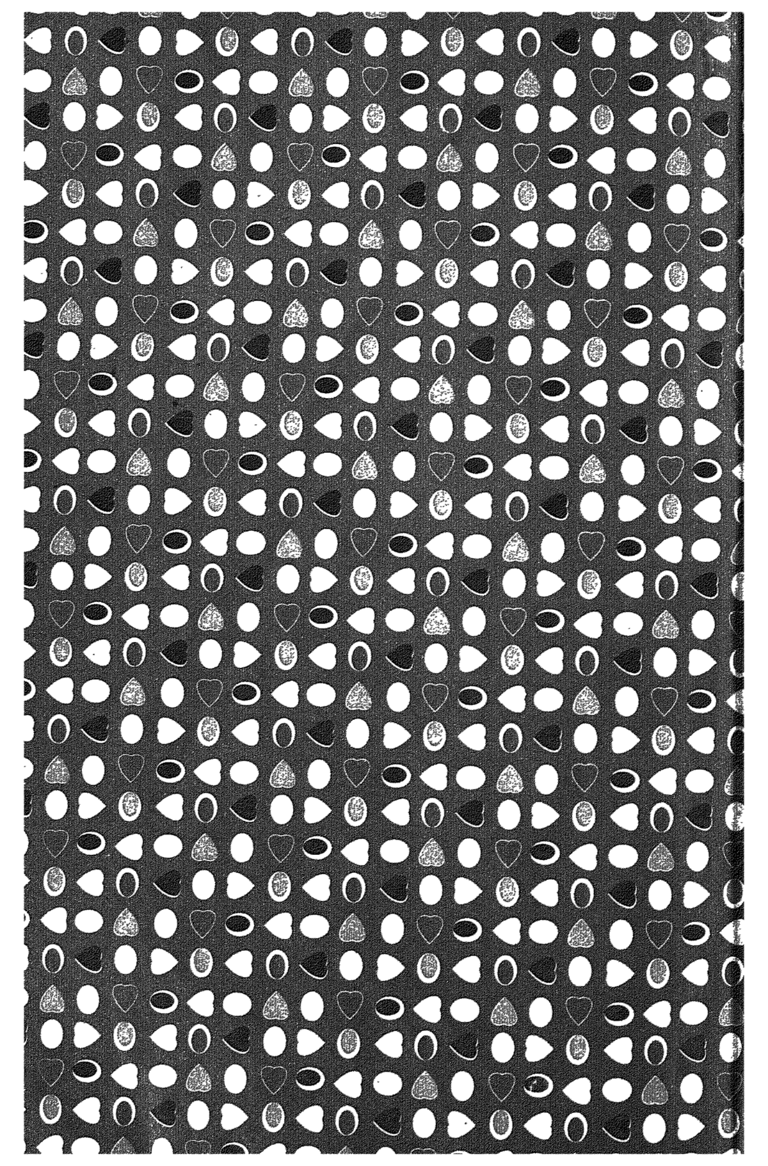
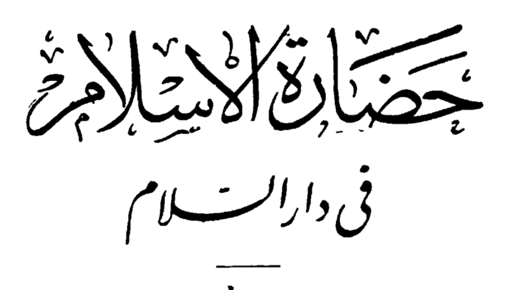

Bibliotheca Alexandrina
0035855





وزارة المعارف العمومية



٢

تأليف

جميل نخلة المدو

طبعة منقحة

القاهرة
طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق
١٩٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله

هذه رسائل وصفت فيها عصرا من عصور الاسلام قد أشرق به نور العلم . وجرت فيه أعمال عظيمة قام بها رجالٌ كبراء ملئوا العالم بآثار جمالهم ، وجعلت الكلام فيها لرحّالة فارسيّ طوّفتْهُ معظم البلدان الاسلامية فى المائة الثانية للهجرة . وطوّقتهُ مناصب الدولة برعاية البرامكة إلى أن نكبهم الرشيد كما تراه فى موضعه من الكتاب .

فكان فى النفس ومن عزم بعض خُلانى علىّ أن أبق الحديث على لسانه إلى خلافة المأمون لوصف ما هو حقيق فيه بتجميل الاسلام من علمٍ وحلمٍ وعفاف. غير أنى كنت أحرص على التاريخ من أن أدخل فيه حكاية لا يحلّى جيدها صواب. ولا يُرجع باسنادها إلى كتاب إذا أبقيت للفرس مراتبهم بدولة العباسيين بعد نكبة البرامكة . لأنى أوجبت على نفسى أن أذكر الحقائق كما كانت واقتضت الحال أن تكون . غير واصف الأشياء إلا بصُوَرها ولا ممثل الحوادث والأخبار إلا بما كان معلّقا فى الخواطر جاريا على أذهان أهل ذلك الزمان . ولذلك لما أتيت على الأسباب التى عظّمت المسلمين ونهضت بهم إلى فتوح العالم أعرضتُ عن ذكر ما دعاهم من بعد إلى التوانى والانحطاط . كما أنى وقفت فيما وصفت من علومهم عند حدّ الخبر المجرّد من غير أن أتتبع فى آدابهم آثار الحكمة التى اقتبسوها من يونان، ولا أن أتقصّى الغاية التى وصلوا إليها من الفنون والصناعات لما لا يخفى من حدوث ذلك كله بعد الرحلة وما وجب علىّ فى تأليفها من النظر إلى عصر الرشيد لا إلى ما بعده من الأيام .

وقد اتخذت فى الكتاب شواهد الاسناد للدلالة على ما وقع فى حديث الرحالة من الموافقة لما بين أيدينا من كتب الأقدمين . وإنى لأرجو أن ينتفع إخوانى بما أروم لهم من الخير . والله أسأل أن يرشدنى وإياهم إلى الصواب وهو حسبنا ونعم الوكيل .

هذا نص ما كتبته فى مقدمة الطبعة الأولى لهذا الكتاب وقد بدا لى بعد ذلك ولبعض أفاضل المسلمين ضعف فى بعض الروايات التى كنت عولت عليها وتحريف فى ذكر بعض الوقائع الاسلامية يرجع عيبه إلى السند الذى أخذت عنه فلزم أن أرجع إلى صفحات الكتاب بشىء من التهذيب والتنقيح وتبديل الروايات الضعيفة بما هو أصح وأثبت عند أئمة النقل . وإنى أشكر إدارة جريدة المؤيد الغراء التى ساعدتنى فى مراجعاتى لما ورد فى هذه الرسائل من آداب الدين والملة قبل الشروع فى هذه الطبعة الجديدة . فكان من وراء ذلك تهذيب تكفل بزيادة قبول الكتاب عند خاصة المسلمين وعلمائهم ونفى عنه ما كان يؤخذ عليه من بعض الأسانيد الضعيفة .

فجاء الكتاب والحمد لله بعد هذا كله روضة المطالع . وعمدة العالم والمتعلم والمراجع . وصح أن يؤخذ للدرس . كما يقتنى لتنزيه النفس . وقد عقدت النية إجابة لرغبة علماء المسلمين ممن تفضلوا باستحسان هذا الكتاب على متابعة سرد التاريخ الاسلامى فى شكل هذه السلسلة من الروايات . وتنسيقها فى مثل هذا السمط من درر الآيات البينات . والله يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ، وهو ولى التوفيق والهادى إلى أقوم طريق .

جميل مدور

فهرس

كتاب حضارة الاسلام فى دار السلام

صفحة

الرسالة الأولى — كتبت فى النهروان سنة ١٥٦ للهجرة

الرسالة الثانية — كتبت فى بغداد سنة ١٥٧

صفحة

الرسالة الثالثة — كتبت فى بغداد سنة ١٥٨

الرسالة الرابعة — كتبت فى بغداد سنة ١٦١
وكان الرحالة على أهبة السفر إلى خراسان

صفحة

الرسالة الخامسة — كتبت فى بغداد سنة ١٨١

والحديث فيها تابع لرسالة كتبت فى خراسان ولم تطبع هنا

الرسالة السادسة — كتبت فى بغداد سنة ١٨٥

صفحة

الرسالة السابعة — كتبت فى بغداد سنة ١٨٥

صفحة

الرسالة الثامنة — كتبت فى بحر تونس سنة ١٨٦
بعد انصراف الرحالة من بلاد الروم

الرسالة التاسعة — كتبت فى المشاعر المباركة سنة ١٨٦

صفحة

الرسالة العاشرة — كتبت فى بغداد سنة ١٨٧ للهجرة

أصبت بسادة كانوا عيونا   بهم نسقى إذا انقطع الغمام

بسم الله الرحمن الرحيم

الرسالة الأولى

قدومى إلى العراق

أتيتُ مدينةَ السلامِ فى السنةِ السادسةِ والخمسين بعد المائة من هجرةِ النبيّ صلّى اللهُ عليهِ وسلم لأتخرّجَ فى الفقه على لسان الشريعة يعقوبَ بن إبراهيم بن خُنَيْس الأنصارى[1] ، وكان خليلًا لأبى (رحمهُ الله) على صفاءٍ بينهما لم يكن بين اثنين ، فركبت البحرَ من هُرْمُز فى ريحٍ رُخاءٍ زجّتْ مركَبنا إلى البحرين فأطرافِ العرَاق أهنأَ تزجية ، فلما حاذينا الساحل مما يلى البَصْرة طلعت علينا ريح عاصفة ، وانحدر بنا الموج إلى منعرج فى البر كله رمال ومَهاوِى ماء . فبتنا ليلتنا فيه على أشدّ ما يكون من الخوف إلى أن طلع الفجر ، فأقبلت علينا من صدر البحر سفينةٌ حملتنا إلى عبّادان ، وأرْسَت بنا على مُطَلٍّ من خشبات تنتهى المراكب إليها ولا تتجاوزها خوفا من الجزر[2] لئلا تلحق بالأرض وتغوص فى الطين الذى يأتى دِجلة به[3] فى انسيابه ، وهذا البحر فى مسامتةِ العراق شديدٌ على السَّفْر ، ولا يُحْمَد منه إلّا عُمران سواحله بالناس لما فيها من مغاصات[4] الدر والياقوت والعقيق

---

(١) هو أبو يوسف القاضى .

(٢) المسعودى ١ : ٥٠

(٣) تقويم البلدان ٣٠٩

(٤) ابن خرداذبة ٦١ والمسعودى ١ : ٥٢

وغير ذلك ، وهى بابٌ واسعٌ لطلاب الرزق ، وللغواصين عليها أخبار غريبة فيما سمعتُ ، حتى قيل إنهم يشقون آذانهم للتنفس ويجعلون فى آنافهم القطن و يصطنعون وجوها من الذَّبْل[1] كالمشاقيص ، ويدهنون أبدانهم بالسواد خوفا من أن تبتلعهم دواب البحر ، و يصيحون عند الغوص مثل الكلاب لتنفيرها عنهم ، فاذا بلغوا القعر عصروا دهنا يضىء منه البحر ليروا الأصداف التى يتولد فيها اللؤلؤ ، وتكون مدفونةً فى أرض البحر رملا كانت أو طينا . ومما يزعمون[1] فى هذا اللؤلؤ أن تَوَلده من مَطر نيسان إذ تكون الصدفة مفتوحة على وجه الماء فتقع عليها القطرات فتتربى فيها دررا رائقة الصفاء .

ولما أخذتُ نصيبا من الاستراحة انتقلت على سفين إلى البصرة ونزلت بها فى موضع[2] يعرف بسكة بنى سمرة بازاء دار الهيثم بن معاوية أميرها . وقد طاب لى فيها المقام بما وجدت من ائتناس أهلها إلى الغريب حتى ينسى فى جِوارهم أهله[3] بما يأنس عندهم من مظاهر الأنس والمودّة ، ووجدت لهم صبرا على طلب العلم يتخذون المكاتب[4] لأولادهم وحَلَقَ العلم لأدبائهم ، وتشد إليهم رحال الطلب من جميع الوجوه ، لأن لهم من الأدب المكان الذى لا يُرْقَى ، غير أنى لم أر فيهم إلا وهِن البِنْية سقيمها وأصفر اللون كاسفه[5] ، وذلك ناشئ فيهم من عفونة الماء ووقوع إقليمهم فى مهاب الرياح المختلفة التى تتبدل فى اليوم الواحد ألوانا وضروبا ، فيجبرون على لبس القمصان مرة والمبطنات أخرى ، ولذلك سميت مدينتهم بالرعناء ، أنشد الفرزدق[6] :

لولا أبو مالك المرجوُّ نائلهُ ما كانت البصرةُ الرعناءُ لى وطناً

(١) الدميرى والقزوينى والقرمانى .
(٢) ياقوت ١ : ٦٤٤
(٣) ابن بطوطة ٢ : ١٠
(٤) الأبشيهى ١ : ١٧٧
(٥) الأغانى ١٧ : ٧٨
(٦) ابن بطوطة ٢ : ١٦

وقد لقيت فيها جماعة كثيرة من الأدباء مثل عبد الكريم بن أبى العوجاء والمُؤرِّج السدوسى الروايةِ ، والحسن بن هانئ الشاعرِ [١] والنضر بن شميّل تلميذ الخليل بن أحمد وواصل بن عطاء الذى اعتزل مجلس الحسن البصرى لمخالفة فى المذهب ثم سمى الناس من ذهب مذهبه بالمعتزلة[٢] لذلك ، وشهدت حَلْقة عُتْبةَ القحوى وأبى زيد الأنصارى ويونس النحوى، وله أعظم[٣] حلقة فى البصرة من حلق علمائها ، وسمعت الحديث عن سفيان بن شعبة الثَّوْرِى وشعبة بن الحجاج العَتَكِى ، غير أنى ما اصطفيت منهم لمحادثات الأدب إلا الخليل بن أحمد ، لأنى وجدته أوسعهم عقلا[٤] ، وأحضرهم رواية ، لا يساميه فى علو الخاطر إلا صالح ابن عبد القدوس الشاعر ، ولكنى تحاميت مجلسه لما يتهم به من الانحراف عن السنة[٥] ، وإن كنت لا أبخس عقله حقه من التعظيم . وقد سمعت أنه يجهد نفسه فى طلب الدنيا والتماس السعة منها ثم لا يحصل على القليل إلا بعد عَصْب الريق وفى قوله :

لو يُرْزَقون الناسُ حَسْبَ عقولهم ألفيتَ أكثرَ من ترى يَصَّدَّق

إشارة إلى ما هو فيه ، وأن النعمة تصيب غير أهلها ، بخلاف الخليل بن أحمد فانه متقلل من الدنيا راض منها باليسير ، والملوك تبذُل له المال[٦] ولا يقبل منهم شيئا مع مكانه من الحاجة إليه . وقد اشتهر فضله بين الناس بعلم العروض ، وضعه على دوائر خمس تجزأ منها الأبحر الخمسة عشر ، غير أن سموّه فى العلم لا ينفرد بأدب الشعر وحده ، إذ له فى اللغة كتاب سماه العينَ وأودعه من عيون العلم [٧] ما هو زينة وفخر لدولة الاسلام .

---

(١) هو أبو نواس ذكر الأغانى ٦ : ١٧٩ أنه كان مقيما بالبصرة فى صباه .

(٢) المستطرف ١ : ١٢٦

(٣) العقد ٣ : ١٣٧

(٤) ابن خلكان ١ : ٢١١

(٥) الأغانى ١٣ : ١٥

(٦) الشريشى ٢ : ٢٦٨ والأبشيهى ١ : ١٧٦

(٧) المقدمة ٥٠٢ وابن خلكان ١ : ٣٤١

ذكر البصرة وأماكنها المشهورة

ولقد ظننت البصرة لأول وهلة ليست بالمفرطة الكِبر، فلما طفت فى ساحاتها، وجلت فى أرباضها ومَحَلّاتها، بدا لى أنها متسعة البقعة كثيرة العمران، قلّ أن يكون بها موضع غُفْلٌ من العمارة خِلو من السكان. ومبانيها على الغالب من اللبِن إلا ما كان من المسجد الجامع فانه مبنى بالصخر والجِص على أتم إحكام وأبدع صناعة، وأول من بناه عُتْبة بن غَزْوان، أقامه من القَصْباء لأجل أن ينزِعه متى شاء ثم يعيد إقامته، فلما جاء أبو موسى الأشعرى بناه باللبِن وطلى جدرانه بالأصباغ. ثم جاء زياد فزاد فيه السقيفة التى فى مقدَّم المسجد[1]، وحمل إليه العمد المزخرفة من الأهواز ورفع جدرانه بالآجر والجِص[2]، ثم لم تزل عناية الولاة به من بعده إلى أن تمّت زينته وكثرت له الوقوف الواسعة. وفيه اليوم قاض يفرِض النفقاتِ ويحكم فى مائتى درهم وعشرين دينارا فما دونها[3] تخفيفا عن الدواوين التى تنظر فيما هو فوق ذلك من قضايا الناس.

ثم سرت من هذا الجامع إلى مسجد علىّ عليه السلام، وإذا صحنه مفروش بالحصباء الحمراء، وله أوقاف جزيلة مما وقف له الفرس ومن يقول بخلافة أهل البيت، وهم يجتمعون فيه ويتبركون بمزاره، كأنّ وعيدَ أبى جعفر لم يجد منهم نفوسا راجعة إلى غرضه فيما أوجد من الفرقة بين العلوية والعباسية. ووجدت فى بعض مقاصيره مصحفا عليه أثر دابغ مثلُ الدم الجاف، يقال إنه المصحف الذى كان يقرأ فيه عثمان حين قتل[4]، وبعد أن قضيت زيارته المباركة جلت فى أسواق المدينة فرأيت التجارة فيها على أحسن ما يكون من الرواج، ولا غرو

---

(١) الأغانى ١٧ : ٢٨

(٢) ياقوت ١ : ٦٤٢

(٣) الماوردى ١٢٣

(٤) ابن بطوطة ٢ : ١٠

فإن هى إلا فُرْضَةُ العراق والشام وخُراسان وما إليها من البُلدان العالية ممـا يكسِبها حسن الموقع ، بحيث لا يصدر شيء من هذه البُـلدان ولا يرد إليها إلا من البصرة [١] ، ولذلك استفحل فيها العمران وكثرت بهـا المصانع والصنائع إلى أن صارت واسطة عقد بلاد العرب وقبة الاسلام .

ومما يذكر عن بنائها ما حدثنى به الهَيْثَم أميرُها أنّ المسلمين افتقروا فى صدر الدولة إلى منزل ينزلون به وإذا دهمهم عدو لجئوا إليه واعتصموا به ، فبعث عمر (رضى الله عنه) عتبةَ بنَ غزوان المقدَّمَ ذكرهُ وأوعز إليه أنِ ارْتَدْ لنا موضعا فى جهة العراق قريبا من المرعى والمـاء والمحتطب ، فكتب له من البصرة إنى وجدت أرضا كثيرة القضة فى طرف البر إلى الريف ودونها مناقع فيها ماء وفيها قصباء [٢] فكتب إليه عمر أن ينزلها بمن معه فوقع تمصيرها فى السـنة الخامسة عشرة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم .

ولمـا جلست إلى الخليل العالم الأمثل ودار بيننا الحديث على أيام الناس الأول ، أخبرنى أن البصرة إنمـا اختطها العرب نِكاية بالفرس لتحويل التجارة من سواحلهم إليهـا ، وذلك أنهم لـما صالت منهم الأجناد ، واتسعت بين أيديهم أحبوا أن يبنوا هذه المدينـة فُرْضَةً لجميع المشرق ، ففشت العمارة فيهـا فى برهة يسيرة حتى غَصَّتْ بالناس على ما رحُبت أرجاؤها . يقال إنه كان فيها من مقاتِلة العرب لأيام زياد ثمانون ألفا [٣] ، وأخبرنى الهيثم أن أهلها يبلغون اليومَ خمسمائة ألفٍ من الرجال ، بدليل المـال الذى فرقه فيهم أبو جعفر ، وكان ألف ألف درهم فلم يُصب الرأسُ منهم إلا درهمين [٤] .

---

(١) المسعودى والقزوينى .

(٢) ياقوت وابن حوقل ١٥٩

(٣) ياقوت ١ : ٦٤٤

(٤) الشريشى ٢ : ٤٣١

وتبعد البصرة عن عَبّادان حيث الشاطئ نحو ساعة زمانية ، وعندها تختلط مياه دِجلة والفرات [١] وتصب فى البحر الملح بعد أن تفقد عذوبتها ، لأن المدّ يأتى إلى ما فوق البصرة بأميـال ، فاذا امتزج به ماء دِجلة صار ملحا [٢] ، ولقد يخال الرائى لأول وقوع المدّ أن البـلاد صارت غديرا ، كما وقع لحمزة بن عبد الله أميرِ البصرة لعهد ابن الزبيرِ ، وقد ركِب يوما إلى الفيض ، فقال : إن هذا الغدير إن رَفَقوا به يكفهم صيفتهم هذه ، فلما كان بعد ذلك ركِب إليـه فوافقه جازرا فقال قد رأيته ذات يومٍ فظننت أن لن يكفيهم ، فقال له الأحنف بن قيس : أيها الأمير إن هذا المـاء يأتينا ثم يغيض عنا ثم يعود ، فخجِل حمزة ، وعاب عليه الشعراء ذلك فى أبيات لم يعرفها عامة الناس .

ولقد تصفحت فى البصرة كثيرا من قصورها المشرِفة ، واستقريت أماكنها المشهورة بمـا وعيت عنها من الأنباء ، وأحسن ما استظرفت منها قصر لمحمد بن سليمان الهاشمى [٣] ، وهو أوفر بنى العباس مالا وأعطاهم لشاعرٍ نوالا ، تُغِل ضياعه كل يوم مائة ألف درهم [٤] ، وقـد بناه على بعض الأنهار واستفرغ فى زينتـه جهده ، واتخذ فى جنانه المها والغِزلان والنعام وأنواع السباع والطيور المغردة ، فجمع فيه محاسن الحضارة والبداوة ، وفيه يقول الشعراء :

زر وادى القصر نعم القصر والوادى   فى منزل حاضر إن شئت أو بادى

ترقى به السفن والظُلْمان حاضرة   والضبُ والنون والملّاح والحادى

إلى آخر الأبيات .

وأما القصور التى بقيت بعد أربابها فانها لكثيرة فى البصرة شاهدت منها قصرا لأوس بن ثعلبة [٥] الذى ولِى العراق وخراسان فى دولة الأمويين ، وهـو قريب

---

(١) المقدمة ٥٥

(٢) القزوينى والاصطخرى والمسعودى .

(٣) ياقوت .

(٤) المسعودى .

(٥) الأغانى ٣ : ٣٦ وياقوت .

من المِربد (١) ، وعليه قِباب مرفوعة يَغَص الجوّ بها صعودا ، ومن حوله خمائل وارفة ، كأن الأيام تزيدها جدّة ونضارة ، وتُلبسها من الخضرة حلة قشيبة . ولله ابن أبي عُيَيْنَةَ حيث يقول في وصفها هذه الأبيات :

بغـرس كأبكار الجـوارى وتربةٍ ... كأن ثراها ماء ورد على مسك
يذكرنى الفِـردوسَ طورا فأرعوى ... وطورا يواتينى إلى القصف والهتك
وسِربٍ من الغِـزلان يرتعن حوله ... كما استُلَّ منظوم من الدر من سلك
وورقاءَ تحكى الموصـلىَّ إذا غدت ... بتغريدها أحبب بهـا وبمن تحكى
فياطيبَ ذاك القصرِ قصرا ونزهـة ... بأفيح سهـل غيرِ وَعْر ولا ضَنْك

وشاهدت قصر الأحنف بن قيس (٢) المقدَّم ذكرُه فى رَحبَة المنجاب (٣) ، ودارا لأنَس بن مالك (٤) خادِم النبي صلى الله عليه وسلم ، وإيوانا للزبير بن العوّام (٥) تنزله التِجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهات من البحرين وغيرهم ، وآخر لعُبَيْد الله ابن زياد يسمى البيضاء (٦) ، وهو بمقرُبة من الموضع الذى خطب فيه أبوه خطبته البتراء (٧) التى أخذت بقلوب البصريين وقد تداعت جدرانه فلم يبق منه إلا أثر دارس ورسم شاخص .

---

(١) الأغانى ١٣ : ١٠

(٢) الأغانى ١٧ : ٥٦

(٣) محلة ذكرها الأغانى ١٢ : ٣

(٤) ياقوت ٤ : ١٠٩

(٥) المقدمة ١٧٨ والمسعودى ١ : ٣٢٣

(٦) القزوينى ٢٠٦

(٧) سميت بذلك لأنه لم يفتتحها بالحمد لله والثناء عليه .

العرب البادية ونُتَف من أخبارهم

ولقد أتيت مِربد البصرة عن طريق المهالبة (١) فسكة المِربد (٢) ، فاذا هو ساحة كبيرة تنوخ فيها الجمال ، وتحط بها الرحال ، وتعلق فيها الأشعار التي يتناشدها العربُ فى أيام من الشهر معلومة يكون لهم بها مجالس ويبيعون ويشترون (٣) ، وهناك موضع يقال له شمس الوزانين وفيه مسجد صغير يعرف بمسجد الأنصار (٤) ، قد طلي بالأصباغ ولم ترفع صوامعه إلا قليلا ، ووجدت صحراء البصرة من وراء المربد وعرة مرملة لا يغرد عليها طير ولا ينبت فيها شجر غير النخيل لفقدان الماء فيها ، وخيراتَ البصرة تردها من الأُبُلَّة ، وهى مدينة عامرة بالناس خصبة الجناب كريمة البقعة يشقها جدول من دِجلة ولا تخترق أشعة الشمس أرضها لالتفاف شجرها بعضه على بعض ، وفى مُرساها مجتمع كثير من مراكب الهند والصين ، لأن الربح فيها واسع لأهل التجارة . وأما النخيل المتصل فيما بينها إلى البصرة فأعلى الصحراء فانه كسب وافر للناس ، يقال إن ثمنه يعدِل (٥) ما يحمل إلى بيت المال من الأقاليم كافة .

وإلى ما وراء المربد فى ظاهر البصرة عرب من عامرٍ (٦) وقيس عَيْلان كنت أختلف إلى أحيائهم وأبيت ليالى عندهم وآكل من ثريدهم وأشرب من ألبان نوقهم وأجلس على الوبر والأنطاع ، وأعى أحاديثهم باقبال واستمتاع ، وأشهد حلق القُصّاص فيما يحدّثون به من أيام العرب وأخبارهم فوجدتهم يتفاخرون بتأليف الخطب وقول الشعر والسيف والضيف ، ولا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبع

---

(١) الاتليدى ١٠٧

(٢) الاغانى ١٢ : ٦٤

(٣) تقويم البلدان ٣٠٩ والأغانى ٥٠٧

(٤) الأغانى ١٧ : ١٨

(٥) ياقوت ١ : ٦٥٠

(٦) فى الأغانى ٤ : ١٩٣ أن جماعة منهم نزلوا بظاهر البصرة قريبا من ذلك الوقت .

فيهم أو فرس تُنْتَج، وعلمت من أخبارهم أنهم لا يأتون الفحشاء بل يعاقبون الزناة بالقتل[١] وذكر هؤلاء القصاص أن جميلا لما سأله خُلّانه أنْ ما عمِلتَ مع بُثَيْنة طول تلك الأيام قال كنت أمتع عيني من وجهها وسمعي من حديثها، ولم أمدّ إليها يدا غير مرة واحدة، أخذت يدها ورفعتها إلى صدرى لتشعر بخفقان قلبي[٢]، وهذا خبر ينقُلونه عن أكابر الرواة فأحببت أن أكتبه إليك ليدلك على ما وضعه الله فى صدورهم من نبل الهمة وعفاف النفس .

وقد بقى فى خاطرى ذِكر عذب لاجتماعى بهؤلاء العرب، وقد طاب لى الجلوس إلى قيس عيلان أكثر منه إلى بنى عامر، لأنى وجدت فيهم بيانا وفصاحة[٣] غير أنهم لم يلبَثوا فى البصرة إلا قليلا حتى شالت نعامتهم، فصرت أتوجه إلى بنى عامر وعرفت بالمُقام بينهم كثيرا من خلال العرب المحمودة، وقد أعظمت رواج الأدب بينهم، والكتابةُ عندهم مفقودة[٤] غير أنهم يجرون على قواعد اللغة فى أشعارهم ومحاوراتهم بما ليس فى الإمكان أصحّ منه، ولهم فى كلامهم من الأمثال الحكيمة مالم نجده فى كثير من أمم العلم والحضارة، فيمرق الكلام من أفواههم مروق السهم من الوتر كما يقولون، وهم أصحّ الناس أبدانا، لأن الظعن كفيل لهم بطيب الرياح التى لا تخبُث إلا مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات[٥] ولأن طعامهم اللبن والتمر والقليل من اللحم، وما يمارسون من الرياضة بعيد عن أن يجلب إلى أبدانهم العلل[٦]،

(١) تزيين الأسواق .

(٢) تزيين الأسواق ٢ : ٩

(٣) الأغانى ٣ : ٥٣

(٤) أى عند عرب البادية لأنه يعرف أن المتمصرين كانوا يكتبون قديما بالحروف الفهلوية التى كانت تستعملها الفرس ثم صاروا يكتبون قبيل الرسالة بالحروف الحيرية الى أن استبدلوا بها الكتابة الكوفية فى صدر الاسلام و يقال إن أيوب الصديق إنما كتب حديثه بلسان العرب اهـ .

(٥) المسعودى والمقدمة .

(٦) قال فى العقد الفريد لأمر ما طالت أعمار الرهبان . وصحت أبدان العربان . وما لذلك علة الا التخفف من الزاد .

وا كثرهم من صلابة الجسم والنشاط بحيث يلحقون الخيل والحُمُر الوحشية عدْوا، فلقد سمعت من يحدث عن تأبط شرا أنه كان إذا جاع نظر فى السهل إلى الظباء فانتقى لنفسه أسمنها ، ثم يجرى خلفه فلا يفوته حتى يأخذه ويذبحه بسيفه[١] ، وربما حدّث الرواة بكثير من أمثال هذا الخبر عن الشَّنْفَرَى وعمرو بن برّاق وغيرهما من العدّائين .

ووجدت لهم من الصفات الحسان التى تحدثنا فيهم شهامة النفس ما ليس يجتمع فى غيرهم من الأمم اجتماعه فيهم ، فهم يحمون الذمار ، ويمنعون الجار ولا يُغمضون على الذل كما هو معروف عنهم فى الأشعار، فلأن يموتوا قتلا تحت ظلال السيوف ، أحبّ إليهم من البقاء فى رِبْقة الذل والجنوف . يقول عمرو بن كلثوم من أصحاب المعلقات :

إذا ما المَلْكُ سام الناسَ خَسْفا   أبينا أن نُقِرَّ الخسف فينا

إلى غير ذلك من الأبيات المعروفة ، وهم يفون بالقول من غير أن يكتبوا على نفوسهم العهود ، ويأخذون بثأرهم أخذا شديدا ، وذلك ناشئ فيهم من بعدهم عن القضاء ، لأنهم لو كانوا يعانون الأحكام لفسد البأس فيهم ، وذهبت المنعة منهم[٢] ، ولكن ذلك قد يدعوهم إلى التفانى على غير غاية إلا الحصول على الرخيص مما يبذلون فى سبيله من النفيس ، كاثارتهم لأجل امرأة أو فرس أو بعير قتالا يستمر أعواما طوالا بين عشائرهم ، حتى إذا أراد الله تعالى أن يدركهم بلطفه الشامل نهاهم عن القتال فى الأشهر الحرم فنقص فيهم من القتل ما يقع فى أربعة شهور من القتال ، والله رءوف بالمؤمنين وهو العليم الحكيم لا رب سواه .

وأكرم ما وجدت فيهم من المحامد الموصوفة الكرَم والسماحة ، حتى إنهم ليضيفون نزلاءهم ضيافة يوجبونها على أنفسهم ، ولو كان النزلاء قتلة آبائهم[٣] ،

(١) الأغانى ١٢ : ٤٩

(٢) المقدمة ١٠٩

(٣) الأغانى والاتليدى .

وربما توسعوا فى أدب الضيافة إلى أن يكون بهم بشاشة عند قدوم الضيف وغُصَّة عند ارتحاله ، كما يقول عاصم بن وائل من شعرائهم :

وانا لنَقْرِى الضيف قبل نزوله ونُشبعه بالبشر من وجه ضاحك

ولقد كنت أسمع عن كرمهم أحاديث لم أنقلها عن جانب الثقة والاعتبار . فلما نزلت بجوارهم تحققتها بالمشاهدة والاختبار . ووجدت أن كلهم كريم ، حتى لقد يكون السخاء تسعة فيهم وواحدا فى الناس[1] ، ومن زعم أن حاتما الطائى أكرم العرب فقد ظلمهم جميعا . وظنى بأخذهم فى هذه الضيافة الواجبة أنه أمر طبيعى عندهم ، لأن الراحل منهم قد يفوّز فى الفلاة أياما طِوالا على جهد من العطش وسُعار من الجوع ، فاذا انتهى إلى خباء مضروب ورآه أهله بمكانه من العناء والإعياء قَرَوْه وعلفوا مطيته وأوقدوا له نارا يصطلى بها من كَلَب البرد كما يقولون ، حتى إذا أصابهم فى ظعنهم مثل هذا العنت الشديد يتلقاهم أهل الخيام على السّعة من الضيافة .

قال حسان بن ثابت يتهلل بذكر المكرمات :

وإنى لمعطٍ ما وجدت وقائل لموقد نارى ليلةَ الريح أوقِد

وكان الكرم ينتهى بهم إلى أن يقوم لعشائرهم مناد فى الأسواق ينادى فى الناس هل من جائع فنطعمه أو خائف فنؤمنه أو راحل فنحمله ؟ وهذا أحسن ما يكون من محامد النفس الكريمة . ولست أقول إلا أنه كانت لهم فى مناقضة هذه المحاسن مساوئ كثيرة فى الجاهلية ، فلما نزل كتاب الله روّض أخلاقهم المستهجنة وصرف عنهم المكروه من العادات ، فقد نقلت الأخبار السالفة أنهم كانوا فى جاهليتهم

---

(١) المحاضرة ٢ : ١٨١

يتروجون بنساء آبائهم (١) ويُكرهون إماءهم على البِغاء (٢) ويألفون غير ذلك من العادات الخشنة التي ذهبت بمجيء الإسلام .

وإنما اضطُر العرب إلى سكنى البادية وتخير بقاعها على الأيام بحسب أحوالها من الصلاح ، لأنهم وجدوا في قِفار قد تراكمت عليها الرمال المحرقة ، وما كانت تنبت لهم حبا ولا بقلا ، وكانت آبارهم تَغيض حَمَارّةً في القيظ على بعد قعرها ، فكانوا يظعنون لورود غيرها من المناهل في أصقاع يكون بها خضرة من الكلأ ، وتظهر للعين بين ما حولها من الرمال المنبسطة كأنها جزر في بحر تسير في مناحيه الجمال كما تسير السفن على ظهر الماء ، ولكن ليس ذلك إلا القليل في جانب الكثير من رمالهم المحرقة . ثم إن الله تعالى أوجد لهم الإبل (٣) والسائمة فكانوا يرتادون لها الماء فيما اتسع لهم من مجالات البادية ، فكانت سكناهم في الوبر لما تقدّم من الأسباب أمرا طبيعيا ، ولو أنهم نزلوا الأمصار ورفعوا بيوتهم من الحجارة ما اتسعت من حولهم المزارع والمسارح لحيواناتهم (٤) ، فضلا عن كونهم يرون الأبنية والتحويط حصرا لهمم الرجال (٥) وحبسا لما في الغرائز من حب الاستقلال فهم لا يصبرون على الضيم ، والحريةُ عندهم أفضلُ ما أعطاهم الله ، يبذُلون نفوسهم ونفائسهم دون تقريرها لأنفسهم ، فانا لا نجد في أحاديث النقلة أن أمة استعبدتهم في غابر الدهر قط ، فهذه الكلدان والسريان واليونان والروم والفرس وآل ساسان قد ملكوا العالم إلا العرب ، وكان من أمانيّ الاسكندر الرومي أن

(١) الأغاني ١ : ١٠

(٢) العقد الفريد ٣ : ٢

(٣) الإبل سفين العرب وهم يغتذون بألبانها ويكتسون بأوبارها ويستدفئون بوقيد أبعارها وقد أوجد الله في قوائمها لينا فوق القدم يطأ الرمل ولا يغرز فيه مثل حوافر الدواب ليكون لها اقتدار على طرق الرمال .

(٤) المقدمة ١٠٥

(٥) المسعودي ٤ : ٢٣٤

يدعوهم إلى طاعته بعد أن تم له الغلب على المشرق ، غير أن المنية عاجلته قبل الإقدام على هذا التغرير ، فرزق بموته سلامة من الإخفاق ، حتى لا يقال عنه ، وهو الملك المنصور ، إنه توجهت عليه هزيمة ، إذ لست أشك أنه لو أقـدم على العرب ما ثبت له جنـد عليهم فى تلك المجالات التى يتوغلون فيها و يبيتون فى أمن من العدوّ و إن كثُر .

ولقد لِقيت من هؤلاء العرب فتى تلوح عليه النجابة والفطانة ، فذكرت له أن فى لقائه الملوكَ سبيلا إلى نيل العـلا فأخبرنى أنه نزل الزوراء لأول ما بنـاها أبو جعفر ولكن لم يمض إلا القليل حتى مل العمران ومال به الشوق إلى ربوع العرب . وأنشدنى وهو منصرف :

لَبيتٌ تخفِــق الأرواحُ فيـــه أحبُّ إلىّ من قصر منيف

ولبسُ عبــاءة وتقَـــرَّ عينى أحبُّ إلى من لُبْس الشفوف

والأبيـات لفتاة من العرب صارت إلى معاوية بن أبى سفيان ثم لم تطِب نفسا بالمُـقام عنده ، فرجعت إلى البادية بعد ما أنشأت الأبيات التى أنشدنيها هذا الغلام . فسبحان من قسم المعايش بين الأجيال . وركب فى نفوسهم طباعا متفاوتة ، لا إله إلا هو ذو الإكرام والجلال .

الانفصال عن البصرة ولُمْـعَة من أخبار الحجاج

كان مُقامى فى البصرة شهرا وثمانية أيام ، ولمـا طويتُ بساط الإقامة تهيأ لى أن أصعـد على دِجلة سفرا [1] يخفف عنى مشقة الركوب على ظهور المطايا ، فدفعت حمولى إلى الرُبان وانفصلت عن البصرة لأول هدءٍ من الليل ، حتى إذا طلع النهـار كنا فى متوسط بِطاح مفروشة بالنخيل على مـد البصر ، وفيها خيام

(١) المسعودى ٢ : ٢٣٩

لبطون من تميم[١] وشَيْبان[٢] ، قد ضربوها على مرتفعات من ذلك السهل ، فكان تأملى منازلهم مع ما أعلمه من شدة تعلقهم بعيش البداوة يمثل لى من بعد ارتحالهم مرافقين الشعراء وقد وقفوا بالعيس على هذه الأطلال وبكوا عهودا مضت لهم فى زمان الأنس بين هذه الربوع .

ولما كان بعد أيام طلعت علينا سَموم يكاد يأخذ حرها بالنَّفَس ، وكدنا ننكُص على الأعقاب لاختلاف الريح ، فرأى الربان أن ينزل الملاحون إلى البر ويربطوا المركَب بأمراس يجرونه بها من عُدْوة النهر ريثما يحصل الفرج ، ومضى الليل كله من غير أن تكتحل عيناى بنوم من شدة الحر إلى أيام عشرة لم نزل بها فى مغالبة الريح ومقاساة عنتها الشديد إلى أن وصلنا الى مدينة واسط[٣] .

هذه المدينة فى فضاء من الأرض طيبة الإقليم والنسيم ، غير أن الحر غالب عليها لإقبال الرياح إليها من جهة الرمال المتراكمة على هِضابها[٤] ، ومبانيها من الإحكام بمكان سام ، ولا سيما القصر الذى بناه الحجاج[٥] ، وهو باق إلى زماننا هذا ، وهو سنة ست وخمسين بعد المائة ، والناس يسمونه الخضراء ، وله قبة مشهورة فى مبانى الاسلام ، حتى قيل إنه ما بنى لأحد قبل الحجاج مثلُها[٦] ، وفيه أحواض كثيرة يرقى إليها ماء دِجلة ، وأعظمها حوض من الرخام الأخضر وبه مجلس به سرير مذهب[٧] يقال إنه كان مقعدا للحجاج فى مجالسه العامة ، وهذا القصر بهيج مزخرف بأنواع الزينة ، لأن النفقة عليه وعلى الجامع الذى بجواره

---

(١) فى الأغانى ٩ : ٧٨ أنهم كانوا يجتمعون بجوار البصرة .

(٢) تزيين الأسواق ٢ : ٧

(٣) تقويم البلدان ٣٠٧

(٤) القزوينى ٣٢٠

(٥) المسعودى ٢ : ١٨٣ وهو يقول إنه كان باقيا لأيامه .

(٦) المسعودى ٢ : ١١٥

(٧) الأبشيهى ١ : ٦٣

بلغت نحوًا من أربعين ألف ألف درهم [١] ، ولكنه سمج فى عينى بما ورد على خاطرى عند مرآه من قبائح الحجاج ، فكأنه بيت قد رفعت جدرانه على دعائم الظلم والاعتساف .

وبقيت فى واسط ثلاثة أيام لاختلاف الريح ، ولكن على كره من النفس ، لأنى كنت أراها بعين الماقت لها . ونزلت بها فى فندق على شاطئ النهر حيث الجسرُ المُقام من سفن ، وأمامه ساحة تباع فيها الخيول ويكون بها سوق فى أيام معلومة من السنة يأتيها العرب بما يريدون بيعه من الخيل الجياد التى يحتفظون بها احتفاظ الآباء بالبنين [٢] فانهم لا يتخلّوْن عنها بالقليل ولا بالكثير من المال وإذا سألتهم بيعها منك بأغلى الأثمان فأنت مردود فى سؤلك ، يقولون لك هذه منجاتنا من العدو وإذا أطلقنا لها العِنان طبقّت الآفاق بأسرعَ من لمح البصر .

ولم تزل هذه السوق مقامة فى واسط منذ بنيت إلى هذه الغاية ، لأنها كانت فى أول هذه المائة من أعمر بُلدان العراق بما خصها الله من خِصب التربة وكثرة الخيرات ، فلما وقع بها الطاعون الجارف منذ أربعين سنة [٣] ونزلت بالناس السنون وأخذتهم المجاعات أتى عليها الخراب والانحلال وتجافى الناس عن سكانها بما توالى عليها من الفتن التى وقعت فى صدر هذه الدولة إلى أن استقر فيها السلم وبعُد عهدها من الوباء ، فسارع أرباب التجارة إلى استيطانها لما يتسنى لهم فيها من قرب الاتصال ، والمسافةُ الآن منها إلى الزوراء خمسون فرسخا ، ومنها إلى البصرة خمسون أيضا ومنها إلى الأهواز مثل ذلك . وظنى أنها سميت بواسط لهذا السبب ، وهو توسطها العراقَ .

---

(١) ياقوت ٤ : ٨٨٧

(٢) تزيين الأسواق .

(٣) ابن الأثير ٥ : ٧١

وقد اتفق لى قبل الانفصال عنها أنى لقيت فيها شيخا كان أبوه خادما عند الحجاج (حاسبه الله تعالى) فحدثنى من أخباره ما تنفطر منه الأفئدة رحمةً لأهل البيت وأصحابهم ، لأنه كان يقتل منهم جُزافا على التُهَمَة إلى أن بلغ عدد الذين قتلهم صبرا مائة ألف وعشرين ألفا ، وكان فى السجن عند ما أهلكه الله أكثر من خمسين ألفا يرسُفون فى سلاسل الحديد ، ولا ذنب لهم إلا حُبهم لأهل البيت وكان الناس فى أيامه إذا تلاقوا فى المجالس والمساجد والأسواق يتساءلون من قُتِل البارحةَ ومن صلِب ومن قطِع ، وقد تفاحش ظلمه فى الخراج بحيث إن الأمراء بعده كانوا يستنكفون عن ولاية الخراج خوفا [1] من نقص الخراج إذا خففوا ضرائبه ومكوسه ، أو الاستمرارِ على ظلم الناس إذا راموا جِباية ما كان يحمله إلى الخليفة من المـال [2] .

وقد رسم لى هذا الشيخ صورته بأنه كان قوى البِنية مائلا إلى السِمَن ، ولا يزال العرق متصببا على جبينه وصُدْغيه من تحت قلنسوةٍ قد حوّطها بعمامة خضراء[3] ، وكانت له مهابة تقصِم ظهر الوافد عليه . وكان شـديد التهويل فى خطبِه ، و إذا صعِد المنبر تلفع بمُطْرَفه ثم تكلم رويدا رويدا فلا يكاد يسمع حتى يتزايد فى الكلام فيخرج يده من مطرفه ثم يزجر الزجرة فيقرع بهـا من فى أقصى المسجد .

---

(١) ابن الأثير ٥ : ٩

(٢) كان ملوك بنى أمية يعرفون من الحجاج جوره واعتسافه ولكن لم يكن فى كنانتهم سهم أشد منه نكاية على العدو فلم يرق لهم استبدال غيره به و إن ثقل أمره على الرعية . وفى مروج الذهب أنه لمـا وفد على الوليد بن عبد الملك كان عليه درع وكنانة وقوس عربية وقد تفضل الخليفة فى غلالة فجاءت جارية وسارّت الوليد ومضت ثم عادت فسارّته ثم انصرفت فقال الوليد للحجاج أتدرى ماقالت هذه يا أبا محمد قال لا والله قال بعثتها إلىّ ابنة عمى أم البنين تقول ما مجالستك لهـذا الأعرابى المتسلح وأنت فى غلالة ؟ فأرسلت إليها إنه الحجاج فراعها ذلك وقالت والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق اهـ .

(٣) العقد ٣ : ١١

قال وكان يحدثنى أبى أنه كان يجد لذة (١) فى سفك الدماء وارتكاب أمور لم يُقدم عليها غيره ولم يسبقه إليها سواه ، ولما أرسله عبد الملك بن مروان إلى العراق ليوطِّئ له المنابر خرج كميشَ الإزار وغلب الناس بقوة الرجال لا بالسياسة والرأى ، لأن جنوده كانوا من الشام (٢) وهم على غرض الأمويين مخالفون لأهل البيت ، فلما أوجدهم بين أعدائهم لم يرمنهم إلا نفوسا مستقِلة راجعة إلى رأيه فى كل أمر ونهى فحملهم على منازلة مكة المكرمة من هذا الوجه ، ولم ينفك عن ضربها حتى استسلم إليه أهلها بعد أن تصدع جِدار البيت الحرام ، فأقام ملك بنى أمية على هذا الظلم وقومه لهم خمسين سنة من بعده ، إلى أن أراد الله انقراض دولتهم فى المشرق .

هذا نَبْذ يسير من أخبار هذا الظالم الغاشم ، وقد رأيت تناقل الحديث عنه فى أفواه الواسطيين كتناقل الحديث فى مجالس البصريين عن زياد ابن أبيه ، وكلاهما قد أذاق العراق من الهوان والقهر ما لم يسبق إليه أحد من البغاة الظالمين ولكليهما فضل فى تدبير ما خُوِّلا من الولاية إلا أن لزياد فضلا فى بلاغة الكلام التى شهد له بها أكبر الرجال وضبطِه البلاد بأهل البلاد أنفسهم أعظمَ من فضل الحجاج الذى ما غلب العراقيين إلا بأهل الشام وما قوّم ملكه إلا بالسيف الباتر والجبروتِ القاهر .

المرور بمدائن كسرى أنو شِرْوان

كان انفصالنا عن مدينة الحجاج فى ليل رطيب قد انفتق سحابه عن القمر ، فقضينا جزءا كبيرا منه فى السمر حتى إذا أسفر الصباح كنا فى محاذاة قصر يقال له الرمان (٣) ومن حوله خِيام مضروبة للعرب ، فوقع ذلك من نفسى موقع الاستعبار

---

(١) المسعودى ٣ : ١٠٣

(٢) الكنز ٢٢٢

(٣) ابن خلكان ١ : ٤٧١ وياقوت ٢ : ٨١٤

من الدنيا فى نعيم الحضارة وشقاء البداوة ، إذ كانت الأضداد منها على هذا الوجه قلما يقع عليها النظر فى وقت واحد ، وكان يلوح لنا فى صدر السهل إلى آخر النهار بناء عظيم أُخبرت أنه من جملة المناظر التى أقامها الحجاج بينه وبين قَزوين [١] ، وهى إذ ذاك آخر الثغور ، حتى إذا ظهر فيها الخوارج دُخِّنت بالنهار فدُخِّنت المناظر كلها أو أوقدت بها فى الليل نار فاستوقدت المناظر فيعلم ذلك .

ولم نزل نخترق عباب دِجلة يوما بعد آخر حتى جزنا جَبُّل والنعمانية ثم كَلْواذا[٢] وأقبلنا على المدائن مع طلوع الفجر ، فنزلت إلى البر أتفرج بالإيوان الذى بناه كسرى أنو شِروان . فاذا هو فى غاية العظم ونهاية الاتقان . يبلغ طوله نحوا من مائة ذراع وعرضه نحوا من نصف ذلك وقدرت فى ارتفاعه أكثر من ثمانين ذراعا ، وليس فى مبانى الآجر ما هو أبهى منه ، وقلما يوجد فيه موضع غُفْل من رسم أو نقش أو كتابة ، وهو يعد من العجائب ويشهد لما اقتدر عليه الفرس فى عهود الأكاسرة الذين جَبَوْا معظم الدنيا ، حتى صار يضرب المثل بما جمع من الضخامة والإحكام ، ولا يُرى فيه اليوم من الآثار الجليلة إلا صور آلهة جبابرة وسباع ضارية . ومشاهد حروب يفوز بها كسرى الخير أنو شِروان[٣] وأما آنية القصور وزخارفها المنقولة وما كان فيها من المتاع الثمين فقد فقدت بعد الفتح ، وبلغ المحمول منها إلى بيت المال ألفَ ألفِ دينار من الذهب .

وجملة القول أن شأنه فى الفخامة والإتقان مما يحير الأذهان ، على أن الأيام قد أهوت عليه بمعول الفناء الذى ليس فى طاقة الطين اتقاؤه ، ثم زاد على ذلك كله أن أبا جعفر لما ابتنى الزوراء حمل من آجره جانبا كبيرا على بعدِ الشُقَّة وعظم

---

(١) ياقوت ٤ : ٨٨٦

(٢) المسعودى ٢ : ٢٢٩

(٣) ذكر ذلك البحترى فى وصف الإيوان حيث يقول :

والمنايا مواثل وأنوشر وان يزجى الصفوف تحت الدرفس

والدرفس الراية .

النفقة ، فعارضه خالد بن برمك (رعاه الله) وقال يرغبه فى حفظ ذلك الأثر يا أمير المؤمنين لا تفعل واتركه ماثلا يستدل به على اقتدار آبائك الذين سلبوا ملك أهل هذا الإيوان ، فاتهمه الخليفة فى النصيحة وقال أخذته النُّعَرة للفرس ، وأبى إلا التعصب لقومه ، فوالله لأصرعنه قريبا ثم شرع فى هدمه واتخذ له الفؤوس وصب عليه الخل وحماه بالنار ، حتى إذا أدركه العجز وخاف الفضيحة بعث إلى خالد يستشيره فى التجافى عن الهدم ، فقال يا أمير المؤمنين قد كنت أرى ألاّ تهدمه فأما إذ فعلت فانى أرى أن تستمر على ذلك لئلا يقال عجز سلطان العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم ، فعرفها المنصور وأقصر عن هدمه ولكن بعد أن قوض جانبا من هذا الأثر الجليل .

ولما وقفت بالإيوان كانت الشمس لأول طلوعها وعلى تلك الدمن ندى يتلألأ ما بين الأوكار التى تجنح إليها طيور الخراب ، فقعدت أتأمل ما كان عليه رب هذا القصر من العزة وعظم القدر ، وكيف أخنى عليه الدهر فأخذتنى لذلك عبرة من مشاهدة الآثار الباقيات وتذكرت نظم شاعر يقول هذه الأبيات :

أيها الشامت المعير بالدهـ ـر أأنت المبرأ الموفور ؟
أم لديك العهد الوثيق من الأيـ ـام بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدن أم من ذا عليه من أن يضام خفير ؟
أين كسرى خير الملوك أنوشر وان أم أين قبله سابور ؟
وبنو الأصفر الكرام ملوك الـ ـروم لم يبق منهم مذكور

وقد كان لمرأى هذه الآثار تأثير فى الخاطر لا يبرح منه العُمُرَ ، وكان رحيلنا عنها قبيل الظهر ونحن على ستة فراسخ [1] من دار السلام ، وقد فرغتُ من تقييد هذه الرسالة فى آخر يوم من رمضان أرانا الله بركته بمنه وكرمه ، ونحن قد جزنا موضعا يعرف بالنَّهروان [2] وصرنا على مُطِلٍ من الزوراء أم البُلْدان .

---

(١) ياقوت ٤ : ٤٤٧

(٢) ابن خلكان ١ : ١٩٦

الرسالة الثانية

مقامى فى دار السلام

اتفق وصولى إلى دار السلام فى عيد الفطر قبيل العَتْمة وهى تلمع بالأنوار ويتصاعد من المسبحين بحمد الله والمقدسين له نغمات تؤوّبها معهم أرجاء المدينة ، وتعذّر المسير على مركَبنا تجاه باب البصرة [١] أو كاد ، لازدحام الزوارق المشتبكة فى هذا المكان ، وهى مطلية بأبهى الأصباغ والألوان . مرصعة بأنوار القناديل الحسان . حتى كأن دجلة فى الزوراء . أشبه بالمجرة فى كبد السماء . ثم تقدم بنا المركب حتى وقف بمقرُبة من الجسر ، وعلى مُطل من قصور الخلافة التى كانت تتلألأ بضوء باهر [٢] ، فركِبت البر فى الموضع المعروف بجزيرة العباس [٣] ، وقد غَصَّ بجموع من النـاس وقد لبِسوا الطيالِس السود تشبهًا بملوك هـذه الدولة الذين اتخذوا السواد شِعار الخلافة حزنا على شهدائهم من أهل البيت ونعيا على بنى أمية فى قتلهم ، وشاهدت جماعة قد اتخذوا بدل العمائم قلانس طِوالا مصنوعة من القصبِ والورق ملبَّسة بالسواد أيضا ، وبدل الدروع دُراعاتٍ مكتوبا عليهـا بين كتِفى الرجل "فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم" أخبرنى [٤] بعض من لقيتـه فى تلك الليلة أن أبا جعفر هو الذى أحب أن تتريا حَوْزته بهذا الشكل من اللباس منذ ثلاث سنين .

---

(١) هو باب من أبواب بغداد .

(٢) الأغانى ٤ : ١٨٩

(٣) فى المسعودى أن السفن الواردة من البصرة تقف فى بغداد بهذا الموضع .

(٤) ابن الأثير ٥ : ٢٤٥ والأغانى ٥ : ٩٥

ولما جلت فى المدينة أخذت من قطيعة (١) أبى عيسى الهاشمى إلى مَحَلّة يقال لها الميدان (٢) ، ومنها إلى الشارع الكبير المعروف بشارع أبى جعفر (٣) ، فوجدته كأحسنِ ما يكون وأحفلِه من الشوارع ، وله السيادة عليها بأمرين : (الأول) اتساعه إلى أربعين ذراعا (٤) وإن كان يشاركه فيه غيره ، (الثانى) طوله من دار الخلافة إلى محلة باب الشام (٥) على استقامة ليس فى الإمكان أصح منها ، فلما صرت فيه استقبلت فى دور الخلافة زينة كضوء الشمس قد اتخذت على القبة الخضراء (٦) التى رفعها أبو جعفر إلى علوٍ يزيد على ثمانين ذراعا ليشرف منها على جهات المدينة وما بجوارها من البساتين ، كما أنه عُنى بتجميلها بالرسوم العجيبة ليكون منها الدلالة على سعة ملكه والشهادةُ باقتداره على عظائم الأعمال ، فكانت تظهر زينتها فى تلك الليلة وهى مرتفعة فى الفضاء كأنها إكليل من نور قد تدلّى على قصر السلام .

ثم إنى أقبلت فى صدر هذا الشارع على مسجدٍ جامع عليه ازدحام فملت إليه ، وإذا برجال متمنطقين بالسيوف يرجعون الناس ويجعلون ممرّا بين جموعهم ، ووراءهم رجل طويل (٧) أسمر نحيف خفيف العارضين مُعَرَّق الوجه ناطق العينين عليه ثياب سود من الخز وقلنسوة مطوقة بوبر (٨) أسود من الأوبار الغالية الثمن ، وفى وجهه مهابة الملوك وجلالتهم ، فعرفت أنه الخليفة أبو جعفر على غير ما تدل

---

(١) ذكرها ياقوت .

(٢) الأغانى ٢٠ : ٦٦

(٣) ابن خلكان ١ : ٣٠

(٤) ابن الأثير ٥ وابن خلدون ١

(٥) ذكرها ابن خلكان وابن الأثير .

(٦) المسعودى والقزوينى .

(٧) العقد الفريد .

(٨) ابن عون وذكر ابن جبير أنه رأى الخليفة ببغداد وعليه قلنسوة ذات وبر .

عليه حاشيته، إذ الشمس لا تخفى وإن سُترت ، ثم لم أزل أتبعه بالعين حتى توارى بين الجموع وركِب بغلة[١] عليها حِلية خفيفة من الفضة ، وكان لجامها فى يد حاجب من حجاب الخليفة .

ثم دخلت المسجد وعلى المنبر خطيب له بيان وفصاحة يقال له الحجاج بن أرطاة[٢] ، وعلى مقرُبة منه قراء سبعة يتلون الآيات من القرآن إلى مائة آية من مواضع متفرقة وسور مختلفة ، فلما فرغوا من تلاوتهم تطايرت إليه رقع فى مسائل الفقه فأجاب عنها بكلام أمضى من المرهَف ، وحدّث عن البحر فى بعد الغور وقربِ المغترف ، وعهدى بمن لقيته من الخطباء أنى ما سمعتهم إلا تمنيت أن يسكتوا مخافة أن يخطئوا ما عدا هذا الفقيه الذى كان يواتيه الكلام ويتابعه ، حتى إذا فرغ من جوابه على هذه الرقع اندفع فى تفسير كتاب الله وإيراد الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، إلى أن أخذ فى سرد الآى المقروءات فأتى بها على نسق القراءة من غير تقديم ولا تأخير حتى انتهى إلى آخر آية وهى قوله تعالى: "فى بيوتٍ أذِن الله أن تُرفع ويذكر فيها اسمه"[٣] الآية، فنمق خطبة يذكّر بها المؤمنين ، قافية سجعاتها الألف اللينة واللام تردادا لموقف الآية « الآصال » حتى أرسلت العيونُ لخشية الله عَبراتها[٤] .

ولم أزل فى المسجد مع القوم بين قراءة وتسبيح إلى ما بعد العِشاء الآخرة ، فخرجت ألتمس موضعا أبيت فيه بقية الليل لعلى أجد فى النوم راحة تعوّض علىّ بعض ما أخذ منى السفر ، فأرشِدت إلى خانٍ لطيف ينزله الغرباء من أهل التجارات وغيرِهم ، فلما كان الصباح بكّرت إلى أستاذى أبى يوسف ، منزلَه

---

(١) ابن خلدون .

(٢) ذكر فى العقد الفريد أنه ولى القضاء لأبى جعفر .

(٣) سورة النور .

(٤) من رحلة ابن جبير .

على نهر عيسى[١] فى قنطرة الزياتين[٢] بقُربة من دور الخلافة ، فتلقانى بالبشاشة والإيناس وأبى إلا ضيافتى عنـده فى جناح أفرده لى من داره ، وهو يؤمّلنى بلوغ ما أرتجيه من خدمة الدولة ، إذ لا يعدَم قومنا محلا فى مراتبها ، والوزارةُ فى يد خالد ابن برمك أميرِنا . إنى إلى هذا اليوم أتخرج فى الفقه عليـه ، وقد وجدت عنده من العقل والعلم ما يندُر مثله فى صدور الرجال .

ذكر شيء من محاسن الزَّوْراء

ولقـد أكبرت من الزوراء رواج سوقهـا بالتجارة واشتباك أحيائها بالعمارة فى مدة عشر سنين حتى جمعت من أسباب العمران مالا يكون فى مدينة بنيت من قديم الزمان ، ووجدتها من لطف الهواء وطيب الإقليم على خير ما تكون مدينة ، وفيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ، وأسواقها فى نهاية من الاحتفال ، قد جمعت بالكَرْخ أخلاطا من التجار[٣] والصناع ، إلا سوقَ الصاغة منها فانه منفرد بجماعتنا الفرسِ ، وقد بلغوا من الإجادة فى صناعتهم الغاية بحيث يرصعون الزجاج بالجواهر ، ويكتبون عليه بالذهب المجسم ، ويصنعون للملوك أقداحا[٤] تقيّـد الأبصار حسنا وإشراقا ، ويتخذون على الجامات صورا يُحكمون صناعتها بالرسم إلى مماثلة الحقائق ، وقد رأيت من ذلك جاما قد صورت عليه طيور تطير[٥] ومن فوقها عُقاب تنقض

---

(١) ابن حوقل ١٦٥ ويقول المسعودى ١ : ٤٧ إنه يأخذ من الفرات وفى ابن خلكان ١ : ٧٤٠ أنه يأتى بغداد من جهة الأنبار و ١ : ١٠١ أنه بجوار قنطرة الزياتين .

(٢) الأغانى ٣ : ١٨٢ وابن خلكان ١ : ٢٨٣

(٣) الأغانى ٩ : ٣٣ و ١٨ : ٦

(٤) الأغانى ٤ : ١٨٩

(٥) فى الحصرى ١ : ٣٥ هذا الشعر لأبى نواس :

تدار علينـا الراح فى عسجدية حبتهـا بأنواع التصاوير فارس

الأغانى ٣ : ٢٧

عليها ، وهى تهوى فى الفضاء للتخلص منها ، ولكن بهيئة تملك النفس وتستوقف الطرف . وإلى طرف هذه السوق مما يلى سويقة غالب[١] جماعة من البنائين يبنون الدكاكين لأرباب التجارة باشارة من السلطان الذى أمر بتحويل الأسواق إلى الكرخ[٢] ليُبعد أخلاط الناس عن جِواره .

أما دور المدينة فانها متخذة على هندسة الفرس وصنائعهم[٢]، ومِثال ما بنت الروم فى الشام أو حيث كانوا ينزلون من البلاد ، وهى مجللة كِلْسا ومرفوعة إلى طبقتين [٣] ومبنى بالآجر ما ارتفع منها عن الأرض ، وبالحجر ما يماسها دفعا للماء فى أوان السيل[٤] أن يبلغ الطين ويتمكن منه ، ومنهم من يقوّى الآجر بالقصباء والحلفاء ويغمسه بالجص [٥] حتى يصير يابسا وتكون له رنة كرنة الحجر الصلد إذا صاصل . وليس لدور العوام أسوار تحيط بمنازلهم وإنما تُطِل نوافذها على الشوارع[٦] بحيث إذا ارتفع المارّ على حجر أو على دابة تيسر له أن ينظر من بداخل البيت[٧] ، أما دور المتموّلين من أهل اليسار فانها ثلاثة أقسام يجمعها سور واحد، وهى مقاصير الحَرَم وحجرات الخدم ومجالس السلام . وفى ساحاتها جنات تزرع فيها البقول والرياحين والرمان وسائر الفاكهة حتى تكون رَوْحا وريحانا واسترواحا للنفس ، وعلى جدرانها وسقوفها نقوش فى رسم ملوّن أو فُسَيْفِساء من ذهب ، وعلى دائر

---

(١) ذكره ابن خلكان فى محلة الكرخ ١ : ٢٤ فى ابن الأثير ٦ : ٩٩ أن بين الكرخ ومدينة المنصور سورا يفصل بينهما ثم إن العمارة امتدت من وراء الكرخ حتى صار الكرخ فى جوف بغداد .

(٢) المقدمة ٣١٣

(٣) يستدل على ذلك من الأغانى ٢ : ٧٣ و٣ : ٣١

(٤) ذكر الأغانى ٩ : ١٤٤ وقوع سيل ببغداد .

(٥) ابن خلدون ٣ : ١٩٧

(٦) الأغانى ١٧ : ٤٩

(٧) الأغانى ٥ : ٣٨

الأبواب والقمريات و برادات (١) الدور كتابة يتخذونها من الزجاج (٢) الملون ويحوطونها بخشب أسود من الآبنوس وغيره ، ثم يعلقون عليها رسوما من النحاس تمثل غصونا وثمارا وأزهارا وأشكالا فيها كل غريبة من الإبداع ، فتمتلئ العين ارتياحا من النظر إلى إشراقها . وإنى ليعجبنى من جمال مبانيهم ما يتأنقون فى زينته من الخارج أيضا ، فان القباب التى يرفعونها من فوق السطوح على عمد قد دقت أمثال الرماح ليخيل للرائى أنها لا تستند على شىء . وكأنما هى معلقة فى الهواء .

ولما كان الحر يشتد وهجه فى الزوراء ويفتقر أهلها إلى رطوبة الماء افتقار النفس إلى الهواء قل أن يخلو سوق من أسواقهم أو بنية من مبانيهم من سقاية يجرى بها ماء دجلة (٣) . ولذلك لا يسير فيها الرجل إلا محفوفا بالشجر المزهر والرياحين (٤) التى يتغنى بوصفها الشعراء . وهذا دليل على أن الزوراء كلها ماء ونماء . ولأهلها فى إقامة الأحواض عناية تامة فيرفعون عليها عمدا مزخرفة من الرخام ويعقدون من فوقها قبابا منقوشة بآيات من الذهب (٥) وما بينها النقوش الظريفة والرسوم التى تقر بها العيون . فتوسعوا من اتخاذها للضرورة إلى المغالاة بزينتها على سبيل الترف والترفه ، و إذا اشتد عليهم الحر اتخذوا أسرابا تحت الأرض وأقامو فيها بالنهار ليكسروا الحر كما يقولون (٦) .

ولقد عظمت عناية أبى جعفر بهذه المدينة حتى إنه أنفق نحوا من أربعة آلاف ألف دينار فى السورين اللذين يحوطانها والمسجد الجامع ودور الخلافة والمجالس التى عقدها فوق أبواب السور الخارجى من طاقاتها المعقودة ، وهى أربعة : أولها

---

(١) الأغانى ١٧ : ١٢٩

(٢) القزوينى ١٢٧

(٣) المقدمة ١٠٥ و ٣٥٧ والأغانى والاتليدى .

(٤) ياقوت ١ : ٦٨٧

(٥) الاتليدى ٢٢٦

(٦) من ابن خلكان .

باب خُراسان ويسمى باب الدولة لإقبال الدولة العباسية من خراسان . والثانى باب الكوفة وهو تِلقاء الكوفة . والثالث باب الشام وهو من ناحيــة الغرب . والرابع باب البصرة وهو بقُربة من دِجلة . وقد حمل إليها أبوابها من واسط والشام [1] والكوفة على بعــد الشُقة والمشقة . واتخذ الأبواب الداخلة مزوّرة عن الأبواب الخارجة [2] ولذلك سميت المدينة بالزوراء .

ثم إن تناهى جمالها بما شاد فيها الأمراء من المبانى التى تقف عندها الغاية فى الفخامة والإشراق ، ولا سيـما ما كان من المساجد المزخرفة فانها لكثيرة [3] فى الزوراء ، أتيت منها على زيارة مسجد فى قنطرة الصَّراة[4] ومسجدٍ بناه عبد الله ابن حرب فى الموضع [5] المعروف بالحربية . ومسجدٍ أقامه أمير من آل قَحْطبة فى شارع المحرم [6] ، وآخر بنتــه الخيزُران زوج ولى العهد فى الخيزرانيــة [7] ، وهو فائق الحسن وفيــه أكثر من ثلثمائة قنديل من الفضة والذهب ، وصحنه من حجارة سود شديدةِ البصيص تصف الأشخاص كالمرآة ، وعلى حيطانه صور تفاحاتٍ وثمار وغصون تُخَيِّل للوافد على المسجد أنه بين شجر زاه مزهر . فى روض باه باهر . و رأيت العَملة قد حاكوا فيها رسوم الأعاجم على أنسجتهم حتى جاءت الحجارة توهم

---

(١) ابن الأثير ٥ : ٢٣١

(٢) تقويم البلدان ٣٠٢

(٣) ذكر القرمانى وغيره أنه كان ببغداد ثلاثون ألف مسجد وعشرة آلاف حمام .

(٤) موضع ببغداد ذكره ابن الأثير ٦ : ١١٧

(٥) ذكره ابن خلكان ١ : ٢٣ وياقوت ٤ : ٥٨٦ والمسعودى ٢ : ٢٤٠ و ٣٨٨

(٦) ذكره الأغانى ٥ : ١٢٦

(٧) ذكره ابن الأثير ٦ : ١٠١

الرائى أنها بسط حُملت من طَبَرِستان، ولا فرق بينها إلا فرق ما بين الصوف والحجر، وليس فى مساجد الزوراء مثله فى الزينة إلا مسجد بناه أبو جعفر فى شارع دُجَيْل[١] مما يلى باب الأنبار[٢] والمسجد الجامع الذى بجوار دور الخلافة .

فى تقرّبى من رجال الدولة

وقد لقِيت فى الزوراء جماعة من الأمراء المقدّمين فى الدولة غير أنى انقطعت إلى خدمة ملوكنا البرامكة وملازمةِ بابهم فى البكور والرواح ، إذ كانوا أصحاب فضل وجمال ومروءة وعفاف . وقد وقع بيننا من المودة ما ضمنى وإياهم فى أوثق حبال الأنس والائتلاف . وتقربت بكفالتهم إلى معن بن زائدة الشيبانى ورَوْح بن حاتم المهلبى وهما أعظم رجال الدولة بعدهم ، وكنت إلى آل المهلب أكثر منى تقربا إلى شيبان[٣] وإن كانوا جميعا على خلاف غرضنا من الميل مع أهل البيت ، إلا أن مَعْنًا كان على مخالفة البرامكة والانحراف عنهم من حيث تقدمهم فى مراتب الدولة وهم أغراب عن العرب ، وذلك لم يكن فى آل المهلب فانهم كانوا مع البرامكة على خُلطة ومودة واتصال .

وأقرب الأمراء مكانا من الخليفة هو خالد وزيرنا لقيامه بِثقلِ الدعوة فى خراسان من قبل أبى مسلم الخراسانى . وهو من أولاد الملوك لم يبلغ أحد مبلغه فى رأيه وعلمه وبأسه وجوده وجميع خلاله[٤] ، والمنصور لا يُبرم أمرا إلا بمشورته ، ولا يركَن فى أعماله إلى أحد سواه اللهم إلا فى سياسته مع العلويين فانها كانت جارية على البغض والجور ، مع أن خالداً ميال إليهم منذ أخذ فى الدعوة الإمامية

---

(١) ذكره ابن خلكان ١ : ٤٩٨

(٢) ذكره ابن الأثير ٦ : ٩٨ والمسعودى ٢ : ٢٤٠ والمستطرف ١ : ٢٨٩

(٣) يقول ابن الأثير ٦ : ٥١ إن شيبان كانوا مع البرامكة على انحراف .

(٤) ابن خلكان ٢ : ٣٦١ والمسعودى ٢ : ٢٢٢

بخراسان ، وهى إذ ذاك لهم وللعباسيين جميعا . أما المهلبيون فانهم من عظماء العرب ومن لهم الرأى المقدّم عندهم والإمرة المطاعة عليهــم ، وقد كانوا هم وآل قحطبة من القوّاد الذين نصروا العباسيين على بنى أمية ثم انضافوا إلى جملة أبى جعفر بعد الفرقة بينه وبين العلوية رغبة عن الأئمة من أهــل البيت ، فقدّمهم أبو جعفر فى المراتب من هذا الوجه حتى انصرفت إليهم الوجوه وانطلقت الألسن فى مديحهم بالقصائد التى تعظم عن أن يقال مثلها فى الخلفاء أنفسهم كقول المغيرة بن حبناء :

أمسى العباد لعمرى لا غِياثَ لهم ⁂ إلا المهلبُ بعــد الله والمطرُ

هذا يذود ويحمى عن ديارهم ⁂ وذا يعيش به الأنعام والشجر

وأما معن فانه أمير شيبان كلّهم ، وقد اجتمعت فيه جميع خلال العرب الحســان إلا أنه غلب عليه الجود مقرونا بحلم يتحير فى نعته اللســان . وشيبان من بيوتات العرب فى قريش ، وهم أربعة بيوت بعــد بيت بنى هاشم ، وهى بيت قيس . وبيت تميم . وبيت شيبان . وبيت ايمن[1] . وقد كان معن على مخــالفة العباسيين لأول ظهور دُعاتهم وأبلى مع بنى مروان بلاء حسنا ، فلمــا انقرضت دولتهم طلبه أبو جعفر طلبا شــديدا وجعل لمن يأتيه به مالا جزيلا فلم يظفَر به لأنه كان مقيما فى البــادية كما يقال[2] ، ثم إنه رجع إلى

---

[1] الأغانى ١٧ : ١٠٥

[2] وقد وقع لمعن أيام كان يطلبه أبو جعفر ظريفة أحببت أن أذكرها هاهنا لنكتة فكاهية تدل على كرم العرب وأنفة نفوسهم والكلام فيها لمعن يقول : كنت قد اضطررت لشدة الطلب إلى أن أقيم فى الشمس حتى لوحت وجهى وخففت عارضى ولحيتى فلبست جبة صوف غريضة وركبت جملا من الجمال النقالة لأمضى إلى البادية فأقيم بها فلمــا خرجت من باب حرب تبعنى أسود متقلد سيفا حتى اذا غبت عن الحرس قبض على خطام بعيرى فأناخه وقبض على فقلت له مالك قال أنت طلبة أمير المؤمنين قلت ومن أنا حتى يطلبنى أمير المؤمنين قال أنت معن بن زائدة فقلت يا هذا اتق الله أين أنا من معن قال دع هذا عنك فانى والله لأعرف بك منك قلت إن كانت القضية كما تقول فهذا جوهر حمله معى يفى بأضعاف ما بذله =

الهاشمية [١] متلثما ووافق يومُ وصوله قيامَ الرَوَاندية على الخليفة فى الأسواق ، وقد قاتلوه إلى أن ضاق به الخناق ، فكان معن يجد فى ذلك اليوم وسيلة لهلاك أبى جعفر بانضمامه إلى العدو بعد أن بدت له مقاتله ، ولكن أبت مروءته إلا أن يكون الحلمُ فى نفسه طبيعة تجلّه عن مطامع الأخساء ، فأعلن السيف دونه حتى كشف عنه سواد العدو . فلما عرفه أبو جعفر طابت به نفسه وجعل له الولاية ومكّنه من خزائن المال .

ولقد دخلت على هذا الأمير مرة واحدة فأصبته بين حرس على رأسه وحَفَدة بين يديه [٢] ، وفى حضرته جماعة من الأدباء النُدماء قد خاضوا فى حديث الشيعة فى خراسان . وأخذوا يتناقلون خبرها من غير نقد ولا إمعان . فضلّ عنهم سر السياسة فيها إلا رجلا من شيبان بليغ الفطنة يقال له محمد بن الحسن الشيبانى ، وهو بسيط اللسان إذا تكلم خيل لسامعه أن القرآن نزل بلغته [٣] ، فكان يرى لنكبة أبى مسلم رحمه الله السبب الذى لم يفطَن له أحد من هؤلاء الجلاس ،

= أمير المؤمنين لمن جاءه بى نخذه ولا تسفك دمى قال هاته فأخرجته إليه فنظر إليه ساعة وقال صدقت فيما تذكر عن ثمنه واست قابله حتى أسألك عن شىء فان صدقتنى أطلقتك فقلت له قل ، قال إن الناس قد وصفوك بالجود فأخبرنى هل وهبت قط مالك كله قلت لا قال فنصفه قلت لا قال فثلثه فربعه فخمسه حتى بلغ العشر فاستحييت وقلت أظن أنى قد فعلت هذا فقال ما أراك فعلته . أنا والله راحل ورزقى من أمير المؤمنين عشرون درهما فى الشهر وهذا الجوهر قيمته عشره آلاف دينار وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك و لجودك المأثور بين الناس لتعلم أن فى الدنيا من هو أجود منك فلا تعجبك نفسك ولتحقر بعد هذا كل شىء تفعله ولا تتوقف عن مكرمة قط ، ثم رمى العقد فى حجرى وترك خطام البعير وانصرف فقلت ياهذا والله لقد فضحتنى ولسفك دمى أهون على مما فعلت نخذ مادفعت اليك فانى عنه لغنى ثم قال أردت أن تكذبنى فى مقالى والله لا آخذه ولا آخذ بمعروف ثمنا ومضى فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت و بذلت لمن يجيء به ما شاء فما عرفت له خبرا وكأن الأرض ابتلعته . ابن خلكان ٢ : ١٦٠ والأغانى ٩ : ٤٣ وعجائب المخلوقات ٣٠٩

(١) كان يقيم فيها المنصور قبل بناء بغداد .

(٢) الأبشيهى ٢ : ٣٠٩ والاتليدى ١٠٩

(٣) أبو الفداء ١٩٢ وابن خلكان ١ : ٦٤٧ والخميس ٢ : ٣٣٣

فانه لم يتحقق لدىّ مما يذكرون من أن الخليفة قد نكبه لما كان من سبقه إياه إلى الحج ولا لادعائه أنه من ولد العباس ولا لتصدير اسمه قبل اسم الخليفة فى الكتب التى كان يبعث بها إليه ولا لإفراطه فى القتل، وإنما نكب أبا مسلم ما كان من ميله مع أهل البيت وإمداده إياهم بالرأى فيما يدبرونه لأمر أنفسهم ، حتى إذا علِم الخليفة منه ذلك وخاف من فتنة صماء تعصف ريحها بالدولة استقدمه إلى المدائن وفى نفسه أن يفتك به على غرّة ، وكان أبو مسلم على حذر من ذلك كما ظهر من كتاب له إلى أبى جعفر ومما كان من استصحابه للجنود فى سيره إليه ، ولكن طلع عليه وهو بين يدى الخليفة جماعة من حيث لا يدرى فاعتوروه بالسيوف ومعن يعلم هذا كله ولكن لا يقوله إجلالا لأمير المؤمنين .

وأما ما يقولون من أنه خامل السلالة فليس ذلك إلا من باب التدليس لموافقة أرباب الدولة على أهوائهم، على أنه لو صح ادعاؤهم ما منع من أن تكون به خصال لا ترى فى عامة الناس ، فانك لتعلم أنه ملك خراسان[1] وهو ابن تِسعَ عَشْرة سنة ، وأبدى من السياسة وهو بذلك العُمُر ما عجز عن تدبير مثله الحكماء ، وكان ثبْتَ الجنان إذا جاءته الفتوح العظام لم يغلب عليه السرور ، وإذا نزلت به الحوادث الفادحة لم يظهر فيه اكتئاب[2] ، وكان أقلّ الملوك طمعا[3] وأبعدَهم بين الناس شهرة ، حتى كان إذا حج هربت العرب من وجهه ولم يبق فى المناهل منهم أحد لما كانوا يعرفون من شدّة بأسه ودهائه ، وهو أكبر ملوك الاسلام . والرجال عندى ثلاثة وهم الذين قاموا بانشاء الدول : الاسكندر الرومى . وأردَشير الفارسى وأبو مسلم الخراسانى .

---

(١) (ذكر) صاحب العقد الفريد ١ : ١٢١ أنه ربما جرى عليه لقب أمير المؤمنين .

(٢) ابن خلكان ١ : ٢٩٨

(٣) أبو الفرج ٢١٦

لمعة من أخبار أبى جعفر

ومن المقربين الى أبى جعفر غير من لقيته من الأمراء المقدّم ذكرهم الربيع ابن يونس حاجبه ومولاه ، وهو حظىٌّ عنده ومكين لديه إذ أنه مقدّم على الموالى ، وهم المقدّمون فى هذه الدولة ، لبلائهم مع يزيد بن المهلب ، على ملوك بنى أمية بجُرْجان[1] وما إليها من البلدان ولاستمرار أبى جعفر على تقديمهم فى الرياسة تحفظا على نفسه من العرب الذين يميلون مع أهل البيت ، وهو يجد عليهم أشد مما يجد على بنى أمية .

فتجد أكرمك الله أن أبا جعفر لم يقدِّم الأعراب[2] فى مراتب الدولة إلا بما هو مطبوع فى نفسه من التيقظ والسهر ، كما تجد أنه ما أبناه مدينته إلّا الخوفُ من أهل الكوفة أن يفسدوا جنده ويحملوهم على مناصرة أهل البيت ، فجمع المنجمين لذلك ولم يباشر بناءها إلا بعد ما أعلمه نُوبَخْت بسلامتها من الأعداء ، ولما فشت فيها العمارة وجمعت أخلاط الناس خاف قيام العدو عليه فأقفل الدروب بالليل[3] ، وأقام عليها الحراس وحوّل الأسواق إلى جهة الكَرْخ كما تقدم حتى لا يبقى بجواره من لا يأمن ناحيتهم ، وشرع قومه يقولون إن رسول الروم أشار بذلك إليه وقد سأله لمّا وفد عليه كيف وجدت بلدنا أيها الرسول ؟ [4] فقال إنى رأيته أعزَّ على الطالب من بيض الأَنوق بيد أنى رأيت الغريب يطرقه ويبيت فيه وربما كان فيهم العين والجاسوس . وهذا كلام فيه بعض المرية عندى لأن من أبناه الخوف مدينة حوّطها بسور بل سورين[5] وحفر بعدهما خندقا بعيد المهوَى غنىٌّ بما فى نفسه من الخوف عن أن يخوفه أحد كيدَ العيون ومحالهم .

---

(١) الأغانى ٩ : ٢١

(٢) ابن الأثير ٦ : ١

(٣) الأغانى ٧ : ٣٤

(٤) ابن الأثير ٥ : ٢٣١

(٥) أبو الفرج ٢١٩ والمسعودى ٢ : ٣٨٧

ثم إنا لنجد له هـذا التيقظ فى البخل الذى ليس هو فيه عن لؤم[١] يَغلّ يده عن الخير ، لأنه وصل أعمـامه بعشرة آلاف ألف درهم لكل واحد ألف ألف درهم[٢] ، وهو أول خليفة وصل بأمثال هذه الهبات ، وإنمـا أمسك يده عن العطاء مخافة أن يقع ماله فى يد المتربصين به من المخالفين ، كما أنه أقلّ من أعطية الجنـد ليأمن عصيانهم[٣] واستغناءهم عنه ، كأنه يعمل بالمثل السائر الذى يقول جوِّع كلبَك يتبعك[٤] ، وإلا فإنا لا نرى هباته إلا لمن هو خلو من الأغراض السياسية من أهل العلم والأدب وإن كان لا يصل هذا العطاء إلى الكرم ، وذلك لمـا نعلم من خروج[٥] الشعراء فى أيامه من الحضرة إلى غير وجهة يسترفدون بهاصلتَهم.

وأما دليل تخوفه من ولاة الأقاليم فكونه يُذْكى عليهـم العيون ويتدارك عزلهم من قبل أن ترسخ فى الإمارة قدمهم ثم يستولى على ما يصل إليه من أموالهم ويجعله فى بيت سماه بيت مال المظالم[٦] حتى يقعدهم عن القيام عليه فى ثورة أو مخالفة ، وليس ذلك حبا فى جمـع المـال وادخاره كما يزعم كثير من النـاس لأنه لولا أنه بخل ناشئ عن رأى له فى السياسة ما حنِق على معنٍ حين جاد بماله على أهل اليمن ليسهِّل من أمرهم ما حزُن[٧] ، كما أنه لو طمِع فى حفظ هذه الأموال المغتصبة ما أوصى ابنه بردها إلى أربابها فى كلام من الوصيـة يقول فيه[٨] إنى لأحضّك يوم تدركنى الوفاة أن تدعو من أخذت ماله وتردّه عليـه ، فانك ستحمد بذلك

---

(١) الفخرى ١٨٨ وأمر البخل فى أبى جعفر معروف ومتفق عليه .

(٢) المسعودى ٢ : ١٩٤ والمستطرف ١ : ٢٠٠

(٣) فى ابن الأثير ٦ : ٥ أن المنصور عرض جنده فى السلاح وهو لابس درعا وبيضة .

(٤) الفخرى ٦٩

(٥) الأغانى ١٣ : ٩١ وفى العقد الفريد ١ : ١٢٢ أن حاجب الخليفة قال إن الشعراء ببابك وهم كثيرون طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم .

(٦) ابن الأثير ٦ : ١١

(٧) ابن الأثير ٦ : ٩

(٨) الفخرى ١٨٧ وابن الأثير ٦ : ١٢

إليهم ، ولكن إياك أن تعود إلى توليتهم المناصب لأنى ما رأيت الوفاء طبيعة إلا فى الموالى والأغراب .

ثم إنه طمَح من هـذه السياسة إلى أن يأخذ التجارة بالشدة ويضرب عليها المكوس تثقيلا على التجار ، فوضع على الحوانيت خراجا [١] لم يسبق له عهد فى الاسلام .

هذا نَزْر يسير من أخبار أبى جعفر وفيه دلالة قاطعة على الخوف الذى يدعوه إلى التيقظ ، والناسُ يقولون إنه صالح النظر فى السياسة وربما جاريتهم على ذلك فيما هو آخذ بتـدبير أمره ، غير أنه حبس النفس الزكية محمد بن عبد الله ابن حسن بن الحسين رضى الله عنهم ، وقتل أخاه إبراهيم بن عبد الله وكلاهما بَراء من الذنوب ، ولست أرى لأبى جعفر فيما وقع له من الظفر بهما على سبيل الاتفاق وجها تطمئن به نفسه ، لأن فشل العلويين إلى هـذا اليوم إنما نشأ عن تفرق دُعاتهم على أغراض ، لم تجمعهم غاية واحدة فى جميع البُلدان بل كان بعضهم منقطعا عن بعض ، وكان كل واحد منهم منفردا إلى نفسه فيما يطلبونه من ثأر شهدائهم المشرَّفين (عليهم صلوات الله ورضوانه) ، فغلبهم أبو جعفر من هذا الوجه وظفِر بالواحد منهم بعد الآخر كما كان شأن الأمويين فى مقاتلتهم من قبل ، ولو أنهم جمعوا دُعاتهم إلى الوحدة وأثاروا العراق وخراسان والحجاز فى غرض واحد كما فعل أبو مسلم رحمه الله فى إظهار الدعوة الإمامية لأعاد الله إليهم الخلافة التى غلبهم عليها الأمويون ، وهم الذين عرفت لهم الفضائل التى لا يستطيع المكابرون من أعدائهم [٢] إنكارَها ، والله يؤتى ملكه من يشاء وهو العليم الحكيم لا شريك له .

---

(١) المقريزى ١ : ١٠٣

(٢) قال عمر بن عبد العزيز من ملوك بنى أمية إن الذين حولنا لو يعلمون من علىّ ما نعلم لتفرقوا عنا إلى أولاده . ابن الأثير ٥ : ١٧ وكذلك الحجاج بن يوسف جلس يوما يعطى الناس على بلائهم فقام رجل يطلب العطاء وكان من قتلة الحسين بن على رضى الله عنه فلما علم الحجاج ذلك قال له إنك لا تجتمع أنت وهو فى مكان واحد ثم أخرجه ولم يعطه شيئا . ابن الأثير ٤ : ٢٣٩

ذكر الفتوح وأن العدل هو الذى حفظها للمسلمين

ولما حدثنى لسان الشريعة بهذه الأخبار وافق قولُه ما فى نفوسنا من التحسر على أهل البيت لضياع حقوقهم ، وقد كنت استردته الحديثَ عن أخبار العرب وأيامهم فحدثنى عن فتوح الاسلام خبرا أحببت أن أسرُده إليك فى هذا الكتاب ، وأسلُك فيه سبيل الإطناب ، ليكون فخرا للأعراب ، باقيا إلى منتهى الأحقاب.
فان الله تعالى لما أراد أن ينشر فيهم رحمته بعث إليهم رسولا منهم ومعه كتاب من الله ناطق بالهدى ودين الحق ليجيرهم من الملمات التى وقعت فيها جاهليتهم لمخالفتهم سياسة الشرع وتباين عقائدهم فى الدين ، إذ لم يكن فيهم من الموحدين المقرين بالخالق المصدقين بالبعث الموقنين بالثواب فى الآخرة إلا نفر قليل [١] ، فجمع بالرسالة كلمتهم ، ونزع الكعبة من يد الجاهليين الذين وضعوا بها آلهة [٢] وتركوا عبادة الإلهِ الواجبِ الوجودِ . "من يهدِ الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا " [٣] .

ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم مأمورا فى بدء رسالته بأن يدعو العرب إلى الاسلام ، ثم جاءه الوحى بدعوة الناس كافة إليه ، فلما قُبِض صلى الله عليه وسلم وهو مشكور سعيُه ، مرفوع منزلته ، انقبضت نفوس العرب وباتوا فى موقف التردد ، فمنهم من كانوا يخافون أن يدخلوا فى ولاية أحد من بعده يطلق يده فى الأمر بما يشاء ، وعهدُهم قريب بالجاهلية من تباين الميول والأهواء ، فلما رأوا من الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم بعدَهم عن الأغراض النفسانية ، والتماسَهم من الخلافة السلوكَ فى سنة الله ورسوله دون شىء آخر من حاجات الدنيا إلا هدايةَ الناس ،

---

(١) المسعودى ١ : ٢٣٩

(٢) المقدمة ٣١١

(٣) سورة الكهف .

اجتمعوا على كتاب الله أمةً واحدة فى دين وسياسة ، حتى غلبوا الملوك على أمرهم وابتزوا الأعاجمَ سلطانَهم وحازوا معظم العالم فى شرق وغرب .

وإنما صال المسلمون كالسباع ، وشدوا على الحصون والقلاع . وتراموا على ممالك الحضَر ، واقتحموا المشاق والغرَر ، بما حضّهم عليه الكتاب من الجهاد ، ولأن المائت منهم فى ساحة الحملات ، شهيدٌ له فى دار الخلد جنات . وعدهم الله تعالى بقوله "ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسولِه ثم يدرِكه الموت فقد وقع أجره على الله[١] " ، فلما ندبهم أبو بكر رضى عنه إلى فتوح الشام أقبلوا بنسائهم[٢] وولدهم وبيوتهم وماشيتهم وسائر ما يملكون ، وعلى وجوههم سمات الفرح والابتهاج ، [٣] كأنما النصر محقق فى النفوس صِرفا بغير مزاج. ويقال إن الشيوخ الفانين قد قدِموا مع أولادِهم ليطئوا الأرض التى وعدهم النبىُّ صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا رآهم أبو بكر ابتدرهم بالسؤال أَنْ لِمَ أقبلتم؟ ومعناه يزيد على كلامه بأنْ ليس لكم عزم ولا فيكم بقية ، فقالوا قدمنا يا خليفة الرسول رغبة فى ثواب الله وحبا فى فاكهة الشام واستعذابا لمائه الزُلال [٤] ، فتفاءل منهم بالخير ، وقال إن ربكم يعطى النصر العزيز لمن يشاء . فاذا كان هذا عزمَ المَسانِّ وإقدامَهم فما الظن ببسالة الفِتيان الذين هم ضُرّاب السيوف [٥] ، وشُرّاب الحتوف ؟ فان تنظر إلى ما تعرف لهم من الأشعار ، ويروى عنهم من الأخبار ، تجد أنهم لا يبتغون بغير الكفاح الفخار . وتستدل على أن قوتهم فى الهجوم على الديار ، أشد من عدو تمنعه القلاع والأسوار .

---

(١) سورة النساء .

(٢) ياقوت ٤ : ٣٢٤

(٣) المقدمة ٢٣٢

(٤) الواقدى .

(٥) ذكر الطرطوشى ١٧٣ أن من فرسان المسلمين من ضرب عدوه بسيفه فقطع البيضة الحديدية التى على رأسه .

ومما حفظ هذه الفتوح للسلمين أن البُلدان التى دخلت فى حوزتهم لم تبد إشارة ثورة ولا أمارة فتنة ، لأنها كانت قبل ذلك فى سلطان الفرس أو الروم فاستوى لديها أن يحكمها كسرى أو أمير المؤمنين . وربما مالت إلى عمال الخلفاء أكثرَ من ميلها إلى عمال الروم لما وجدت قِبلَهم من وفور العدل والقيامِ على مراعاة العهود مما أمر به الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم وحرَّضوا على التشبث به ، حتى لقد عزلوا خالد بن الوليد عن الإمارة من أجل أنه أراد أن ينقض الأمان الذى أعطاه أبو عبيدة المعروف بأمين الأمة لأهل دِمَشْق ، إذ دخل مدينتهم صلحا ، بينما كان خالد يدخلها بالسيف . وأمثال هذه الرعاية المنصفة كثيرةٌ فى سِيَر الخلفاء ، وكانوا إذا أوصوا عمالهم باستعمال العدل والاحتراس من المعصية والاستنكاف من القتل الكثير قالوا لهم : "إنه لولا ذلك لم تكن لنا بالأعاجم قوة ، إذ كان عددنا دون عددهم ، وعُدّتُنا دون عدّتهم ، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا بالقوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا" فيظهر لك أنه إنما عمَّ الإسلامُ بما عدل الخلفاء الراشدون رضى الله عنهم فى زمن الفتح ، وما أوجد الله فيهم من حسن السيرة التى ذهبت فضائلها مثلا بين الناس ، حتى إن الخلق الكثير من الأعاجم كانوا يدينون بالإسلام على بعد الديار ، وليس ذلك إلا لما يسمعونه من عدل الخلفاء وعفاف أنفسهم . فلعمرى إنه لولا انقلاب خلافة الملة إلى ملك فى يد الأمويين ما بعُد أن يعمَّ الإسلامُ العالَمَ بأسره ، والله تعالى أعلم بالغيب ، وله فى قضائه حكمة تعالت عن أن يدركها العباد .

هـذا هو السر فى اتساع الفتوح وحفظها فى يد المسلمين ، والأعاجمُ يعلمون ذلك ولكنهم يقولون إن الإسلام غلب أمما لا مدنية عندها ولا نظام لملكها فقوِى عليها . وهذا مردود من وجوه كثيرة ، ولا سيّما أن فارس كانت من أضخم الدول سلطانا ، وأبعدها فى الحكمة أعراقا ، فلم يصعُب عليه منالها ، كما لم يعسُر عليه غَلَب الروم فى الشام ، وهم بمكان من المدنيـة لا يرام . ولست أقول إلا أنه لما نشأ الإسلام كانت القياصرة فى ضعف وانحلال ، وكان الفرس يمزقهم ظلم

العمّال . فكان ذلك داعيا إلى انتزاع ملكهم ، ولم ينل الإسلامَ إخفاقٌ فى عهد الخلائف الأولين وهم بمكانهم من صلاح الرأى وحكمة السياسة . فلم تُهْزَم للإسلام راية فى أيامهم ، إلى أن ذهبت الخلافة من بيت علىّ عليه السلام فذهبت سذاجة الملة ، وانقلب أمر الأمة من الخلافة إلى الملك ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : " الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تصير ملكا عضوضا " ولله فى خلقه شؤون ، وهو يقدّر الليل والنهار .

وكان الفراغ من تقييد هـذه الرسالة فى أوّل يوم من رجب من السنة السابعة والخمسين بعد المـائة من الهجرة النبوية المشرّفة على صاحبها أشرف السلام وأزكى التحيـة .

الرسالة الثالثة

لقائى ولىَّ العهد وحظوتى لديه

هذا كتاب إليك أبدأ فيه بذكر لقائى ولىَّ العهد . فإنا لفى بعض الأيام ، ونحن جلوس إلى فقيه الإسلام ، إذ دخل علينا البيتَ خادم من خدم الخليفة ، فتخوّف الفقيه من شىء لم أدر ما هو ، وكذلك الناس يغشاهم الخوف والانقباض كلما دخل عليهم خادم الخليفة على غير موعِد [١] ، فقال له أبو يوسف سبق وهمى إلى أنك تطلبنى لأمر جلّل ، قال أجل إن الأمير يدعوك الساعةَ إليه لأمر أقلقه الليلَ كلَّه ، ولم يجرِ فى خاطر أحد من العلماء التصرفُ فى وجه يكون به كشف الغُمة وتحقيق المسئول ، فدعا خالدَ بن برمك إليه فقال له عليك بتلاميذ أبى حنيفة وما فيهم أحفظُ لعلمه من أبى يوسف [٢] .

فلما سمع ذلك طابت نفسه وذهب ما كان يجده من الخوف ، ولم يلبَث أن استوضح هذا الخادم الخبرَ فأعلمه أن الأمير حنِق على الخيزُران أم أولاده ليلا ، وقال لها فى سورة الغضب أنتِ طالق ثلاثا إن بِتِّ الليلةَ فى مملكة أبى ، فلما سكن غضبه ووجدها بَراءً من التُهَمَة راعه أمر الطلاق فاستدعى الأعيان والفقهاء فلم يكن عندهم مايرجوه من الإفتاء الذى يطيب به نفسا ، ففكر أبو يوسف برهة فلم يفتح الله عليه بشىء .

وكنت فى ذلك الوقت أجيل الفكرة فى أمر الخيزُران وأذكر مآثرها فى الدولة وذلك المسجدَ الذى زينت به الزوراء ، فوقع فى نفسى ما يكشف هذه المهمة ، فقلت لأبى يوسف إن المساجد بيوت عبادةِ الله تعالى ، ولا تدخل فى ملك أحد ،

---

(١) هو أمر معروف فى الحكايات وكتب التاريخ .

(٢) الشريشى ٢ : ٣٦٧

فلو بات الأمير فيها الليلة ما حسبته يبيت فى مملكة أبيه ، فما كدت أنتهى من كلامى حتى كاد يخلع من ثيابه لشدّة الفرح ، وهو يقول لقد ظننتُ والله أن إعمال الفكرة فى مثل هذا التخلص الجميل جهد من غير تحصيل ، وعناء للنفس ليس له من سبيل . فأما إذ ابتدعت هذا الرأى الميمون فعلىَّ عهدُ الله لاذكرنّك عند الأمير ليقربك إليه بما أنت أهله من الخير ، ثم خرج وأنا أحسَب للأمير مَسَرّة عظيمة مما رزقنى الحظ استنباطه ليكون فى حِل من يمينه ومَبرّةٍ له من قسمه .

فلم تكن إلا ساعة حتى عاد إلىَّ نُصَيْر ذلك الحاجبُ قائلا [1] أجب الأمير ، فقمت لساعتى أمتثل الأمر ، فلما صرت فى باب الدار وجدت جماعة من الغلمان قد أعدوا لى بغلة فارهة من مطايا الأمير مجللة بالديباج ، عليها حِلية من الفضة ، فركبت وسار الغلمان بين يدى حتى وصلنا إلى دور الخلافة ، وقد كان أخبرنى نصير عما جرى بين الأمير وأبى يوسف من الحديث ، وأنه لما مَثَل بين يديه كاد يعدِل عن استفتائه ظنا منه أن لا يكون من فتواه جدوى ، « والخلفاء وأولادهم يبدءون الناس بالكلام وليس للناس أن يفتحوه معهم » [2] ، فلما استطلعه رأيه فيما أهمّه من الأمر وذكر له الرأى الذى تقدّمت به إليه غلب عليه السرور حتى ما كاد يستقر به المجلس من القيام والقعود ، ثم سأله أمن معقوله ذلك أم من منقوله ؟ فقال له أبو يوسف لا والله و إنما قائلُ هذا صديق لى من أبناء الفرس وأخذ يذكرنى عنده بما استطاع من جميل الكلام .

فلما أقبلنا على دور الخلافة جُزْنا باب السور الكبير وسلكنا ممرا مفروشا بالحصباء الحمراء تحيط به حدائق القصر وجنان قد اتخذ فيها أحواض يتصعد منها الماء وعليها عمد من الرُخام تقِلّ قبابا مغشاة بالرسوم الموسومة بماء الذهب. ورأينا

(١) ذكره الأغانى ٣ : ٥٧ والعقد الفريد ٢ : ٩٩

(٢) ابن خلكان ١ : ٣١

فى طرف هذه الجنان صناعا يرفعون [١] قصرا سماه أبوجعفر قصر الخلد[٢] وأضافه إلى قصر السلام [٣] الذى يسكنه فى هذه الأيام ، فانتهينا من هـذا الممر إلى باب القصر وهو معقود تحت القبة التى كانت مزينة فى عيد الفطر ، وهى علَم الزوراء ومأثُرة بنى العباس ، فلما جاوزناه انتهينا إلى دار مسوّرة بالعمد وبها مقاصير منجدة أرضها وحيطانها بالأرمنى [٤] ، وفى أطرافها دِهليز ينبعث إليه الضوء من شمسيات قد اتخذت فى قِباب بديعـة الشكل حافلة الزينة ، بجزناه فاذا نحن فى دار أفسح من الدار الأولى ، ولهـا باب عليه مسامير من الفضة والذهب [٥] ، وفيها كثير من العمد التى يوجه الخلفاء عنايتهم إلى تزيينها بالرسوم والإكثار منها فيما يبنون من القصور ، حتى إنى عددت فى صحن من صحون دور الخلافة سبعا وأربعين سارية لو أن ثمانين غلاما وقفوا وراءها ما راهم من هو فى صدر الدار .

ثم انتهينا من هـذا الدِهليز إلى سلم من الرخام ينتهى بالراق [٦] عليه إلى مجالس الأمير ، وناهيك به مجلسا قـد فرِش بالرخام المجزّع ، وبين كل رخامة قضيب من الذهب يشد بعضَها إلى بعض [٧] ، وقـد اتخذ فرشه من الديباج والبسط الطَبَرية [٨] عليهـا أبيات [٩] فى مدح الأمير ، وفيه كراسىّ مرصعة بأصداف اللؤلؤ وعليها جماعة من الأعيان خافتون كأن على رءوسهم الطير [١٠] ، وفى صدرهم

---

(١) الأغانى وابن الأثير ٦ : ٥

(٢) القزوينى ٢١٠

(٣) الأغانى ٩ : ٤٥ والسيوطى .

(٤) الأغانى ٥ : ١٧٣ والاتليدى ٢٢٦

(٥) الاتليدى ١٤٦

(٦) فى الأغانى ٦ : ٧٨ ما يشير الى أن قصور الخلافة طبقة فوق طبقة .

(٧) الأغانى ٥ : ١٦٦

(٨) المسعودى ٢ : ٨٢ والأغانى ٥ : ٥٩ و ١٢٨

(٩) الكتابة على البسط مذكورة فى الأغانى ٥ : ٨٦

(١٠) الفخرى ٥

الأمير جالسا فى قبة قد اتخذ لها فرش مبطن بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب والإبريسم [١] وإذا به أسمر طويل القامة معتدل الخلق مليح الشكل جَعْد الشعر ، بعينه اليمنى نُكْتة بياض ، وعلى رأسه خَصِىٌّ واقف بالمِظلة ، وهو من الخدام المقربين إلى السلطان وأهلِ بيته ومن يستميلهم الناس بالمال الكثير ليذكروهم عنده أو يخاطبوه فى حاجتهم .

فلما أقبلت على المجلس غلبنى البُهْر من جلالة المهدى فسلمت عليه بالإمارة فردّ على السلام بخفض الجناح ، وأظهر ما حسِب لى عليه من المِنة ، وقال لى إنه يأنس بى ويُحب أن يصيِّر إلىّ تأديبَ ولديه موسى وهارون لِما بلغه عنى من العقل ، فدنوت من كرسيه وقبّلت الأرض بين يديه وقلت له فى موقف الشكر على جزيل ما أولانى من النعمة : إنك قد جعلت لى بهذا شرفا لم ينله أحد قبلى من العلماء ، فقال لى أحسن الله عنا جزاءك ، فما الكثير من فعلنا بك بجزاء لليسير من حقك [٢] ، ثم إنه دعا أبان بن صدقة كاتبه فوقف بين يديه [٣] ، فقال له اكتب له بدارنا على دِجلة ، وأقطعه من ضياعنا الخاصة ما تتيمه غلته على السعَة ، ثم أمر لأبى يوسف بخمسين ألف درهم معجلة [٤] ، وكان هذا أول اتصالى بولىّ العهد أصلحه الله وتولى عنى مكافأته بما هو واسع من الجميل .

فى تأديبى الأميرين وما توالى علىَّ من نعمة بنى العباس

ولما اتصل هذا الخبر بالخيزران وقد كانت فى دار لها عادت إلى دور الخلافة فى موكب عظيم من الغِلمان المزينة والخيل عليها القطوع من

(١) المسعودى ١ : ٢٣٤

(٢) الأغانى ٩ : ٣٠

(٣) المسعودى ٢ : ١٨٢

(٤) الأغانى ٣ : ٩٥

الديباج والحلية الثقيلة من الفضة حتى تظهر ما عندها من الأبهــة مع تقرير موضعها من السلطان . وأقام الأمير فى ذلك اليوم مأدُبة صرف فى زخرفتها وُسْعَه ، وجلس فيهـا لعطاء قريش [١] وسائر الناس حتى امتلأت المدينـة بأسباب المسرة والأفراح ، ثم جاءنى من لدن الأمير من ينطلق بى إلى الدار التى وهبهـا لى على دجلة ، فاذا هى مشيدة على أساطين رفيعة وحنايا مقوسة وقباب مخرمة ، ولهـا رَوْشَن [٢] بديع الحسن يشرف على دجلة وما وراءها من الرُصافة ، وفيها من السدول والأستار الحـريرية والبسط الديباجية والقماقم النحاسية والآنية المزخرفة والخزائن [٣] المجزعة ما ليس مثله إلا فى أمتعة الملوك وجلسائهم مما [٤] يتكرمون به عليهم فى سبيل الهبات ، حتى لقد كانت الأوتاد التى تدق بجانب الباب ليعلق فيها الداخل [٥] ما ثقل عليه من ثيابه متخذة من العاج الأصفر وعليها رسوم متزَّلة بالذهب تمثل ثمارا تجتنى بالأبصار لحسنها ولفرط ما أبدع فيها الممثل من الصناعة .

ثم جاءنى من لدن الخيزران خادمان للمهدى لم تكن نوبتهما [٦] فى ذلك اليوم بملازمة بابه ، ووضعا بين يدى إناءين من الذهب فى أحدهما منشور [٧] بضيعة فى السواد وفى الآخر مِخْنقة فى وسطها درة عن يمينها ويسارها أربع يواقيت وأربع زمردات بينها كثير من شذور الذهب [٨] ثم جاءنى وصيف آخر للمهدى أكرمه الله يحمل إلىّ رقعة بالضيعة التى سبق لى بها العطاء وهى فى السواد من جوار الحِيرة يقال لها العُمَرية ، [٩] ثم بعده وصيف لأم المهدى وهى بنت منصور الحميرية ومعه إناء

---

(١) الأغانى ٧ : ٩
(٢) الأغانى ٥ : ١٠
(٣) الأغانى ٥ : ١٠٩
(٤) الأغانى ٥ : ٤٠
(٥) الأغانى ٤ : ٥٢
(٦) الأغانى ٣ : ١٨٤
(٧) المستطرف ١ : ٢٤٣
(٨) الأغانى ٧ : ٣٦
(٩) ذكرها الأغانى ٢ : ١٠٣

من ذهب قد انتثرت عليه اللآلئ [١] ، ثم وفد للغالية أخته ومعهم جام [٢] فيه دنانير وخاتم من العقيق قد رسمت فيه أم القرآن ولكن بأحرف صغيرة لا تبصرها العيون وذلك أحسبه من محاسن الأشياء التى لا تكون إلا عند الملوك ، فهطلت على النعمة غيثا من الذهب ، وليس ذلك إلا لأنى وجدت منصرَفا فى القول لحل تلك اليمين .

وأخذت من ذلك اليوم فى تأديب الأميرين موسى وهارون بما أحب أبوهما وأوصانى به يحيى بن خالد وزيرنا ، ولكن كنت إلى الصغير أميل منى إلى الكبير لما وجدت من انصبابه على المطالعة [٣] واعتباره بأقوال الحكماء ، ووددت أن يكون هو السابق فى الولادة لتكون له حقوق الولاية قبل أخيه لما هو جدير به من تعمير البلاد . وتقويم العباد . لأنى رأيت الكبير صعب المرام شكس الأخلاق ، وقد عرفت ذلك ذات يوم من أمر لم يتدبر معناه فلما استطلعته فيه رأيه حرِد على وطار طائره من الغيظ ، فخفضت له ذلك وأخذت أشغَله من العلم السهل بما لا يحتاج إلى كبير مطالعة ولا إلى تكلف عناية به ، فسرّ لذلك وأوسعنى عما بدر منه فى وقت الحدة اعتذارا ، فعرفت من ذلك أنه صعب المرام [٤] وأن من توقاه وعرف أخلاقه دخل فى رضاه ، ومن فتح فاه فاتفق له أن يفتحه بغير ما يهواه اطرحه وأقصاه [٥] ، وهذا كما ترى خلق غير محمود فى أولاد الملوك الذين يتجافون عن الحكماء والوعاظ إلى تقريب من يداهنهم بالثناء على ما ليس فيهم من الخلال ، فانّ ذلك دليل واضح على بعد الحزم منهم وضعف البصيرة عندهم .

---

(١) الأغانى ٦ : ١٢٣

(٢) ابن خلكان ٢ : ٤٥٥

(٣) الفخرى ٢٣٠

(٤) المسعوى ٢ : ٢٠٢

(٥) الأغانى ٥ : ١٦

أما هرون رعاه الله فانى عرفت فيــه من الرقة واللطافة وسجية الحلم ما أعظم فى عينى منزلته ، ولم أر فى أولاد الملوك أجمل منه خَلقا وخُلقا ، وفيه مماثلة للفضل ابن يحيى بن خالد فى الصورة ، وهمــا فى سن واحدة ونشأة واحدة ، حتى إنهما تبادلا لبن الرضاعة من ثدى واحد [١] فكانت أم الفضل ترضع هرون والخيزران ترضع الفضل ، وهو أبيض [٢] اللون واسع العينين عالى الجبهة منطوٍ على خير وصلاح وسلامة قلب ، وإذا تألم من أمر لم يستفزه الغضب ولا يزيد على هاه هاه [٣] كلمةَ غيظٍ واحدة ، وأنا أتشرف بتأديبــه [٤] إلى هــذا اليوم وهو سنة ثمــان وخمسين بعد المــائة ، وقد أتى عليه من العمر أربعة عشر عاما أصلحه الله ووفقه إلى ما به صلاح الملة والدولة بمنّ الله وكرمه .

ولست أكتم عنك أنه لمــا صارت إلىّ نعمة بنى العباس تحدّث الناس بهــا كثيرا فى الحضرة ، وأحدثت فى النفوس غصصا يثيرها الإشفاق على دولتهم من المهدى أن يجرى على سنة أبيه فى تقديم الأغراب عليهم فى المراتب إلى أن تخلو منهم مناصب الدولة ، غير أن ما يخافونه من هــذا الأمر لا يتعدى إلى غير مصلحتهم الخاصة ، فانمــا يعظم الاسلام بانضمامنا وجميع المسلمين إليه فى غرض واحد حتى

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٣٩ وأبو الفدا ٢ : ٥ وفى الفخرى أن من بعض ما قيــل فى مديح الفضل بن يحيى قولهم :

كفى لك فخرا أن أكرم حرة   غذتك بثدى والخليفــة واحد

(٢) العقد الفريد ٣ : ٥٤ والخميس ٢ — ٣٣١

(٣) الأغانى ٥ : ٦٦

(٤) قال فى مروج الذهب : إنه لمـا أسلم المهدى ولديه الهادى والرشيد إلى المؤدب أوعز إليه أن يصير يده عليهما مبسوطة وطاعته منهما واجبة وأن يقرئهما القرآن و يعرفهما الآثار ، و يرويهما الأشعار ، و يعلمهما السنن ويبين لهما فضل الحكماء فى مواعظهم و يبصرهما بمواقع الكلام و يمنعهما الضحك إلا فى أوقاته و يأخذهما بتعظيم الأمراء من بنى هاشم و رفع مجالس القواد وألا تمر به ساعة إلا وهو يغتنم فيهــا فائدة يفيدهمــا إياها من غير أن يقسو عليهما فيميت ذهنهما ولا يتوسع فى مسامحتهما فيستحليا الفراغ و يألفاه وأن يقومهما ما استطاع بالقرب والملاينة فان أبياها فعليه بالشدة والغلظة .

تشتد صولته ويروج فيه سوق الأدب بما يوجده له العجم من فوائد العلم ومحاسن الصناعة ، ولو أن الخليفة لم يقدمنا لهذه الغاية لم يكن له مع ما سبق من خوفه من الأمويين إلا أن يتجافى عن العرب ويقصيهم عن المراتب إلى أن ترسخ فى قبائلهم دولته من غير حاجة إلى قتل المسلمين بالمسلمين فى فتن صعاب لا يرجو بها بلوغ أمنيته ، وإنما رزق من السياسة الحكمة فى تقديم الأغراب واستمالتهم إلى غرضه حتى يستظهر بهم على تقويم ملكه بما يظهر من الجبروت الذى لا يلتمس فى تمكين مهابته من المخالفين له سواه ، كدأبه فى الانقطاع عن اللهو [١] ، وبعده من البهرجة التى تبعده عن شعائر الملة ، وتوجسه من الناس ريبة يتهم فيها كثيرا من أهل بيته أنفسهم ، وتجافيه عن الجلاس والندماء إلا خلف ستارة يضربها فيما بينه وبينهم على بعد أربعين ذراعا [٢] إلى أمور غيرها تدل على أن مَثَلَه فى التيقظ مَثَلُ الذين يستقلون بالملك على غير استرضاء الناس ، ثم يمر بهم زمانهم فى أشد ما يكون من الخوف والريبة .

بقية من أخبار أبى جعفر

وقد عرفت بترددى إلى دور الخلافة كثيرا من أخبار أبى جعفر وسياسته فوجدته ينظر [٣] فى أحكام الدولة وأمور العمال دون أن يدع لنفسه فرصة يستريح فيها من عناء الأعمال ، فاذا طلع النهار جلس فى إيوانه ونظر فى حال الأمة وعزل الولاة الذين يريبه منهم مخالفته ، ونصب [٤] من يعرف فيه الأمانة وتظهر منه النجابة والفطانة مكانهم ، ولا يزال آخذا فى ذلك بما يروم من إذلال المخالفين له إلى قبيل الظهر ، فاذا تناول الغداء عاد إلى النظر فى المصالح والاهتمام بأمر الجند ،

(١) الخميس والعقد الفريد وابن الأثير ٦ : ٨ والفخرى ١٨٧

(٢) السيوطى .

(٣) ابن الأثير ٦ : ١٠

(٤) الماوردى ١٣٧

فاذا صلى العصر جلس لأهل بيته وفاوض أعمامه وغيرهم ، فاذا صلى العشاء نظر فى كتب العمال مما تجمع فى النهار وشاور [١] من يركن إليه من سُمّاره ، تلك عادته من يوم ولِى الخلافة .

وإن تذكر رعاك الله ما وصفته لك من نحوله فى الرسالة السالفة ثم تُضِف إلى ذلك ما أنا ذاكر لك من سهره على تدبير المملكة تمثل لك صورته بما هو مطبوع فيها من آثار المجاهدة العظيمة التى أفنى فيها عمره وطال منها عناؤه ، فان أيامه قد انقضت بين مخالفة الأمة له والتياثِ الجند عليه حتى اقتضت الحال أن يوجد الفرقة فيهم بين مضر وربيعة والخراسانية [٢] يملك بعضهم بالذى هو واجد على الآخرين . فترى أن ما لقِىَ من تصاريف الزمان هو الذى جعله على سوء ظن بالرعية ، فهو لا يركن فى أموره إلا إلى وزيرنا خالد أعزه الله ، ولولاه ما استوى له الملك بين تغلب الأكراد [٣] فى فارس وظهور الخوارج فيما إليها من البلدان .

وقد علمت مما تقدم إليك من الكلام أن البرامكة يميلون بطبعهم مع أولاد علىّ عليه السلام ، فلما بعُد خالد عن الحضرة لحرب الأكراد [٤] تمادى أبو جعفر مع وزيره أبى أيوب المُورِيانىّ [٥] فى سياسته مع أهل البيت من القتل والعنف ، وجاء بالنفس الزكية وأخيه إبراهيم وقتلهما على حُنْق كثير من أهل بيته عليه ، ولا سيما عمه عبد الله الذى غلب بنى أمية فى الشأم، فانه لما أحس منه الانحراف أسكنه فى قصر بنى أساسه على الملح حتى إذا دجا الليل أرسل الماء حوله فذاب الملح وسقط البيت عليه [٦] ،وهذا من الأمور التى يتناقلها الناس عنه بسوء الأُحدوثة

---

(١) المسعودى ٢ : ١٨٤

(٢) ابن الأثير ٥ : ٢٣٩

(٣) ابن خلكان ١ : ١٤٩

(٤) ابن الأثير ٥ : ٢٣٦ و٦ : ٦

(٥) المسعودى ٢ : ١٨٢

(٦) الفخرى ١٩٨ وابن الأثير ٥ : ٢٣٥ والمستطرف ١ : ٩٦

كما يتناقلون ذكر قتله لأبى مسلم داعيةِ الإمامية فى خراسـان ، وكلاهما من القواد الذين غلبوا الأمويين وأقاموا ملكه فى فارس فالعراق فخراسان فما بين المسجد الأقصى إلى البلد الحرام . ولقد فاوضت أبا يوسف يوما فى هذا الشأن فحدثنى عن جبروت أبى جعفر وأخبرنى أن سلامة أمه لما حملت به رأت فى منامها كأن سبعا زأر فأقبلت عليـه السباع من كل ناحية ، وكلما انتهى إليه سبع سجد له[1] فصح تعبير منامها بما يراد من معنى الملك والظفر .

ولقد دخلت على أبى جعفر مرة واحدة بعد رجوعه من الحِيرة وهى المدينـة التى يقصِدها [2] حين يشتد عليه الحر فى الزوراء ، إذ ليس فى جِوارها ما يصلح لسكنى الملوك غيرها[3] فلمـا أذِن للناس بالدخول عليه صحِبت لسان الشريعة أبا يوسف فأصبناه فى مجلس الأمراء وفيهم شاعر مقرب إليه يقال له أبو دلامة ، وهو يدنيه ويضحك منه على بيتين من الشعر[4] قالهما فى استهجان الزى الذى عمّ استعماله فى لباس الخواص والعوام كما تقدّم ، كأنهـم فى كتابة الآية بين أ - آفهم ينبذون كتاب الله وراء ظهورهم[5] ، فلما أدينا فروض السلام أمرنا بالجلوس ، وقال لى بعد أن قمنا بالواجب من إجلاله إنى رأيتكم "يريد الفرس" أهل وفاء[6] وفطانة فوليتكم المناصب فى دولتنا ، ولم أر بنى مروان وقد انتبهوا لذلك ولا تكلفوا العناية فى تجميل الدولة بانتفاعهم من آداب العجم ، فقد كان عبد الملك جبارا

---

(١) المسعودى .

(٢) وفى ابن الأثير ٦ : ٥٥ أن الرشيد سكنها أيضا برهة من الزمان .

(٣) الأغانى ٢ : ١٢٥

(٤) البيتان هما قوله :

وكنا نرجى من إمام زيادة ... فجـاد بطول زاده فى القلانس
تراها على هام الرجال كأنهـا ... دنان يهود جللت بالبرانس

(٥) العقد الفريد ١ : ٩٨

(٦) ابن الأثير ٦ : ١٢

لا يبالى بما يصنع ، وكان سليمان همُّه بطنُه ، ثم أفضى أمرهم إلى أولادهم المترفين فكان همهم الشهواتِ وركوبَ الملاذِّ من معاصى الله عز وجل جهلا منهم باستدراجه وأمنًا منهم لمكرِه باطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الرياسة .

فلما ذكر ذلك عنهم جعل يضرب الأرض بمِخْصَرة كانت فى يده ، فوقع على بنى أمية ممن حضر المجلسَ قذف شديد ، يرومون به موافقة السلطان ، وقالوا إنهم كانوا يعاقرون الخمر ويظلمون العباد حقوقَهم ويستحِلُّون أخذ أموالهم بغير استحقاق ، ويكلفون أهل القرى إذا خرجوا إلى الصيد ما لا طاقة لهم به من الضرب والإهانة ، ولا يقنعهم ذلك حتى يحطِّموا زرعهم فى طلب دَرّاج قيمتُه نصفُ درهم ، ثم انتقل بعضهم من هذا القذف إلى أن يحث الخليفة على تتبع الهاربين منهم فى جميع الوجوه ، وسمعت من أنشده هذين البيتين المشهورين اللذين قالهما سُدَيْف لأبى العباس لما تمّ له الغَلَب عليهم :

لا يغرّنْك ما ترى من رجال ۞ إنّ تحت الضلوع داءً دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى ۞ لا ترى فوق ظهرها أمويا

فامتلأ وجه الخليفة غضبا وقال : لعمرى إن الأمويين أهل مظالم قد غمَطوا النعمة فهوى نجمهم وثُلَّ عرشهم ولله فيهم[1] نقمة سأتبعها فيهم حيث لقيت عاتيا . فعجبت من مظاهرته بهذا الكلام وبين يديه كثير من الذين يتقربون إليه بالتدليس والمحال. وأنا لا أقول إن الأمويين منزهون عن هذا الطعن ولا عن أشدَّ منه ولكنى أرى أنهم لولم يكونوا حقيقين بمثله لرماهم كثير من هؤلاء الجلّاس بأنكى منه تقربا من السلطان فيما يحب من القدح فى أعدائه ، وكان ذلك أولَ ما لقيت أبا جعفر ، ثم لم أره بعد ذلك لأنه ركب[2] إلى مواطن الحج المباركة شرّفها الله بكرمه وإحسانه .

---

(١) ابن الأثير ٥ : ١٦٧ والقزوينى ١٦

(٢) ابن الأثير ٦ : ١٦

فى ركوبِ الخليفة إلى الحج

كان لخروج الخليفة إلى الموسم موكِب لم يُرَ أحفل منـه فى مواكب الملوك ، فقد أقبل أهل المدينـة إلى باب الكوفة [١] حيث اجتمع من النافرين إلى الحج الشريف من العراقيين والخراسانيين والفرس وغيرهم ما لا يحصِى عدده إلا الله ، وكلهم مجِّهز إبلَه وكُسوته وقِرَبه وخُرْثِيَّه وطعامه وهو الأخبِصة اليابسـة والأقراص المعجونة باللبن والسكر والكعك المنضَّد والفواكه اليابسة وغيرُها من طعام الحاج [٢] ، ومعهم قِطعة من الجند تحوطهم [٣] فى نزولهم وارتحالهم ، وفى طليعتهم هوادج تظللها قِباب من الديباج المطرز بالذهب [٤] ، وفيها يقيم الأمير المولَّى على الحُجاج ، وله فى إمارته النظر فى أمور عشرة وهى أن يجمع الحجـاج فى مسيرهم ونزولهم حتى لا يتفرقوا فيخاف عليهم التوانى . وأن يرتبهـم فى المسير ليعرف كلٌّ منزلَه ويألف مكانه إذا أناخوا فى بلد . وأنْ يرفُق بهم فى المسير حتى لا يعجِز عنـه ضعيفهم ولا يضل عنه منقطِعهم . وأن يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها . ويتجافى أوعرها وأجدبها . وأن يرتاد لهم المياه إذا قلت والمراعىَ إذا انقطعت ، وأنْ يحرُسهم إذا نزلوا ويحوطهم إذا رحلوا . وأن يمنع عنهم من يصدّهم عن المسير بجهاد لا بمال . وأن يصلح بين المتشاجرين لأنهم يكونون تحت ولايته كأهل المـدينة تحت ولاية رئيسهم . وأن يؤدب خائنهم ويلزم الناسَ آدابَهـم . وأن يراعى فوات الوقت فلا يُخشى عليهم ضيقُه لأنهم إذا لم يصلوا عرفةَ فى يوم عرفةَ ما بين زوال الشمس إلى طلوع الفجر فقد فاتهم الحج [٥] .

---

(١) هو من أبواب بغداد .

(٢) المسعودى ٢ : ٥٦

(٣) الأغانى ٩ : ٦٤

(٤) أبو الفداء ١ : ١٥٧

(٥) الماوردى ١٨٧

ولما صارت الشمس على ارتفاع قامة وقد غَصّت بالناس المواقف وضاقت بهم الساحات ضُرب البوق إيذانا بركوب الخليفة ، ثم لم يلبَث أن أقبل مرتفعا على فيل أبيض قد استرسلت عليه الفضة [١] فى الحلية الثقيلة ، وهو جالس فى هودج [٢] مترّل بالأصداف اللامعة، وعلى القبة أستار من الديباج يتخللها رسوم من الذهب ، وفى يده قضيب الخلافة وفى الأخرى الخاتم ، وعليه جبة وشى [٣] من فوقها بُردة خضراء للنبى صلى الله عليه وسلم وهى غير البردة التى كانت لملوك بنى أمية يُلقونها على أكتافهم فى جلوسهم وركوبهم ، لأنها فقدت بفقدان الخلافة منهم . وكان قد اشتراها معاوية من آل زهير بن أبى سُلمى بأربعين ألف درهم [٤] وإنما هذه البردة هى التى أعطاها النبى صلى الله عليه وسلم لأهل الأُبُلّة لتبقى عندهم بركة، فاشتراها أبو جعفر بثلثمائة دينار [٥] واتخذها فى شعار الخلافة موضع البردة التى كانت عند الأمويين . وأما الفِيَلة فانه لم يسبق أحد من ملوك العرب إلى اتخاذها فى المواكب، وقد أخبرنى نُصَيْر ذلك الخادمُ الذى مضى فى هذه الرسالة ذكرُه أنه إنما اتخذها مركبا له لما كان من تعظيم الملوك السالفة إياها واقتنائهم لها وإعدادها للحروب والزينة فى الأعياد وغيرها ، إذ كانت أوطأ مراكب الملوك وأمهدها [٦] .

وكان يصحب أبا جعفر جماعة من الأمراء ورجال بيت الخلافة ، ووراءهم الإبل التى يَظّعنُها حريمُه وأهل بيته وفيهم موسى بن المهدى حاجا [٧] ، ومعهم حرس خاص بهم يحملون الرايات السود .

---

(١) المقدمة ١٤

(٢) الكشكول .

(٣) كذا فى العقد الفريد ٣ : ١٥٦

(٤) أبو الفداء ١ : ١٥٦

(٥) السيوطى .

(٦) المسعودى ١ : ١٨٥

(٧) ابن الأثير ٦ : ١٣

فلما وصل موكبهم إلى موقف الحجاج ارتفعت أصواتهم بالدعاء وعلا ضجيجهم بالتكبير والتهليل فكان الواقف يستشعر من عزة الإسلام ما لا يخالج النفس أعظمُ منه ، إذ ليس من فروض العبادة ما تظهر فيه أبهة الدولة غير حج البيت الحرام ، فلما وقف الأمراء والعظماء إلى وَداع الخليفة أوصاهم بالسهر على الرعية [١] ، وأن يسألوا الله له النعمة و يوفقه ويُلهمه الرأفة بهم . ثم إنه عزم على ولى العهد أن يصحَبه إلى قصر عبدويهِ على مسيرة يومين [٢] من الحضرة لتتم له الخلوة به على انفراد ، إذ كان يحسَب من هذا الموسِم إتيان مالا مردَّ له ، وقد كان يرى فى منامه كان نجوما تهوى من السماء [٣] فيتشاءم من ذلك . فلما نفخ فى البوق إيذانا بالنفير زحف الحجاج كالبحر المتلاطم الأباب . كأن سفنه الرِكاب . وشُرُعَها الظلل المرفوعة والقِباب . وفى مقدّمتهم هودج الخليفة قد لمع ذهبه كأن الشمس ترسل إلى النـاس نورا من جلال الخلافة .

ولمـا كان بعـد ذلك عاد المهدى إلى الحضرة وشرع فى مباشرة الأحكام على الوجه الذى يريده أبوه ، حتى صرنا ونحن اليوم فى ولايته أشـبهَ بنا فى ولاية أبيه إلا فيما يصير إلينا من العطاء الذى لم نتعوده من أبى جعفر ، وأما ما سوى ذلك من أمور السياسـة فلم يكن له إلا أن يقتفى فيها أثره ، وقد أوصاه وهو يودّعه فى قصر عبدويه الوصية التى هى من أحسن ما أوصى الملوك به أولادهم فى السياسـة ، بدأ فيهـا بتحريضه [٤] على سـكن الزوراء وألا يستبدل بهـا غيرّها ، وأن يظهـر كرامة آهل بيته [٥] ويحسِن إلى مواليه ويستكثر منهم ولا سيما أهل خراسان إذ كانوا

---

(١) السيوطى .

(٢) أبو الفرج ٢٢٠

(٣) ابن الأثير ٦ : ٦

(٤) ابن الأثير ٦ : ٧ وأبو الفداء ٢ : ٧

(٥) أبو الفرج ٢٢٠

شيعتهم وأنصارهم ومن لا تخرج محبتهم من قلوبهم[١] وألا يستعين بأحد من بنى سُلَيْم (خوفا من ميلهم مع أهل البيت)، وأن يحفظ النبي صلى الله عليه وسلم فى أمته ويلزم حدود الله والآدميين ويعف عن البغى الذى لا حاجة به إليه مع ما خلفه له من المال ، وأن يشحَن الثغور ويضبِط الأطراف ويعُدّ الكُراع والرجال ويسئَ الظن بالعمال ، وألا يُدخل النساءَ فى أمره[٢] ولا ينام إلا وهو مستيقظ إلى آخر ما أطال به فى هذه الوصية التى ذهبت مثلا بين وصايا الملوك .

فى ذكر من لقيته من الشعراء

يحسن بى فى ختام هـذه الرسالة ، أن أذكر لك عن الشعراء الذين زهت بهم دولة أبى جعفر ما ورد على الخاطر الفاتر ، ولكن بايجاز يدل على موضعهم من الإجادة فى مذاهبهم، دون إطناب ينتهى إلى مالا تسعه الصحف من ذكر أبياتهم ونوادرهم . فأبدأ منهم بذكر بشار بن بُرد البصرى، وهو ضرير قد لقيته فى مجالس البرامكة[٣] لأول قدومى إلى الزوراء،وكان خالد أعزه الله قد أحب أن يطلق على اسم الزائر ويطل عنى اسم السائل الذى كان ينعت به الغرباء فى ذلك الوقت [٤] لقوله لى إنى والله لا أحب اسم السائل إلا لطلاب الإحسان ، وأرفع قدر الكريم عن أن يُسَمِى به أمثالَ هؤلاء المؤملين، لأن فيهم الأحرار والأشراف ومن لعله خير ممن يقصد وأفضل أدبا ولكنا نسميهم الزوار ، فوجد بشار لنفسه نصيبا من كلام الوزير فأطلق لسانه فى الإنشاد بما دل على سرعة خاطره إلى النظم وسرعة تصرفه فى فنون الشعر .

---

(١) العقد الفريد .

(٢) الفخرى ٤٨ .

(٣) الأغانى ٣ : ٣٦

(٤) الأغانى ٣ : ٣٦ الوطواط ٢٤٩ والفخرى ١٨٥

وقد رويت لبشار هـذا الشاعرِ نحوا من مائة قصيدة ورأيت له فى أكثرها ابتداء يرفعه إلى مساماة المقـدَّمين من شعراء العرب ، فلقد سمعت من لا أحصِى من الرواة يقولون أحسن الناس ابتداء فى الجاهلية امرؤ القيس حيث يقول (ألا عم صباحا أيها الطلل البالى) وحيث يقول (قفا نبك من ذِكرى حبيب ومنزل) وفى الإسلام القَطامى حيث يقول (إنا محيوك فاسلم أيهـا الطلل) ومن المسلمين بشار حيث يقول :

أبى طلل بالجِزع أن يتكلما وماذا عليـه لـو أجاب متيما

وبالجِـزع آثار بقين وباللوى ملاعب لا يُعْرَفْن إلا توهمـا

ووجدت له من جمال التشبيه ما يعجِز البصراء عن الإتيان بأفضل منه وفى قوله :

كأن مُثار النقع فوق رءوسنا وأسيافَنا ليـل تهـاوَى كواكبـه

سمو لم يعل عليه أحد من المتقدّمين ولا المتأخرين ، وهـذا من الغريب الذى لم يسمع بمثله عن أحد من العُميان لأن قولهم منحصر فى الزهد والمديح والهجاء وما يتصرفون به من أبوابها ، بخلاف هـذا الشاعر فانه يتوسع منها إلى سائر المذاهب من غـير أن يقع فى الانحطاط الذى لا يؤمن على من يدخل نفسه فيما هو غريب عنه ، وكان المتبـادر إلى العقل أن يكون بعيدا عن تصوّر الحسن ولكنه أغزل الشعراء [١] حيث يقول :

أنا واللهِ أشتهى سحـر عينيـكِ وأخشى مصـارع العشاق

وهذا أحسبه من المواهب الطبيعية والملكات النفسانية ، ولذلك أقدّمه على جميع الشـعراء من هـذا الوجه الذى يُجِلُّه عن التكلف ولا أجد فيـه من انتقادٍ

---

(١) الأغانى ٦ : ٤٩ وابن خلكان ١ : ١٢٥

عيب [١] به شعره الا استرسالَه فى الهجاء واختلاقه بعضا من الألفاظ التى يحتاج إليها لقيام أبياته على القافية من غير أن ترد فى لغات العرب .

ولقيت من الشعراء المقدمين مروان بن أبى حفصة وهو منقطع فى شعره إلى مديح معن بنِ زائدة[٢] لأنه كفاه مؤونة الاستعطاء من غيره ، ولما أتى فى بعض مديحه له على ذكر بلائه فى حرب الراوندية بقوله :

ما زلت يوم الهاشميــة معلنا بالسيف دون خليفةِ الرحمن

فمنعت حــوزته وكنت وقـاءه من وقع كل مهنـدٍ وسنان

أعطاه مائة ألف درهم ،وذلك أعظم ما أعطى الملوك من الجوائز ، حتى إن أبا جعفر لما علم بذلك أكبره وقال فى سبيل التعجب من سماحة معن : ”لله دره من أعرابى ما أهون عليه ما يعِز على الرجال وأهل الحُـرَم“ [٣] .

وقد انتهت بلاغة هذا الشاعر إلى القصيدة اللامية التى يقول فيها مادحا هذا الأمير :

بنــو مطـر يوم اللقـاء كأنهـم أسود لهم فى غِيل خَفّـان أشبل

هم يمنعـون الجـار حتى كأنمـا لجارِهــم بين السماكين منزل

إلى أن يقول :

تجنب لا فى القول حـتى كأنه حرام عليه قول لا حين يُسأل

تشـابه يوماه علينـا فأشـكلا فما نحن ندرى أىّ يوميْه أفضل

أيوم نداه الغَمْر أم يوم بأســه وما منهـما إلا أغــرُّ محجـل .

---

(١) الأغانى ٣ : ٤١ و ٥٣ و ٧٣ وابن خلكان ٢ : ٢٥٢ وابن الأثير ٦ : ٣٧

(٢) الأغانى ٩ : ٤٤

(٣) المسعودى ٢ : ١٨٣ والأغانى ٩ : ٤٤ وابن خلكان ٢ : ١٦٠ والمستطرف ١ : ٧٣

ولكنى سمعت من يقول إنه رفعها بعد حول كامل [١] فقالها فى أربعة أشهر وانتخلها فى أربعة وعرضها فى أربعــة فجاءت كأنها السحر الحلال [٢] يعجِز عن مثلها الشعراء ، ولكن هذا يدل على أن علمه أكثر من عقله وأن الشعر عنده صناعة ينال نفسَه منها عناء شديد، وإنما يحب من الشعراء سرعة الخاطر إلى النظم كمثل ما نعلم عن العرب من قولهم الشعر ارتجالا فى المجالس والأسواق . ومن كلام مروان :

طـــرقتـك زائرة فحى خيالهـا   بيضاءُ تخلِط بالجمـال دلالها [٣]
قادت فؤادك فاســتقاد ومثلُها   قاد القـلوب إلى الصبا فأمالهـا

وممن لقيته من شعراء هذه الدولة أبو إسحق إسماعيل « من قبيلة عنزة » [٤] ويعرف بأبى العتاهية وهو من المطبوعين المجيدين يقول المـائة والمـائة والخمسين بيتا فى اليوم الواحد ، حتى ليس إلى الإحاطة بجميع شعره من سبيل ، وله كلام لم يسبِق إليه أحد [٥] كقوله :

النـــاس فى غفلاتهـــم   ورحى المنيـــة تطحن

وله من بعض كلام [٦] :

لا تـأمنِ الدنيـا على غـــدرها   كم غـــدرت قبـــلُ بأمثـالكا
أجمعـتِ النـاسُ على ذمهـــا   وما أرى منهـــم لهـا تاركـا

---

(١) الأغانى ٩ : ٤

(٢) ابن خلكان ٢ : ١٣١

(٣) فى العقد الفريد « بيضاء تنشر بالحياء دلالها » .

(٤) الأغانى ٣ : ١٢٧

(٥) الأغانى والعقد الفريد ١ : ٣٧٤

(٦) المسعودى ٢ : ٢١٨

وهو يأخذ فى ذلك على أسلوب سهل يروم أن تفهمه العامة وترضى به الخاصة وإن كان منحطا عن لغة الأولين فى فصاحة الألفاظ ، وتصرفه فى الشعر مقصور على وصف الآخرة [١] ولم أحفظ له من المديح غير بيتين قالهما فى عمرو بن العلاء :

إن المطايا تشتكيك لأنها قطعت إليك بسابسا ورمالا
فاذا وردن بنا وردن خفائفا وإذا صدرن بنا صدرن ثقالا

وهذا أحسن ما يقال فى امتداح الكريم ، إذ لا يخفى أن وراءه من المديح ما يترك البلاد والعباد والحيوانات العجم ناطقة بما له من الجميل .

ولقيت منهم أبا دُلامة زَنْدَ بن الجَوْن وهو من الشعراء المجيدين لكنه قد أضاع شعره فى استعطاء أبى جعفر وهو بمكانه من الإمساك كما علمت وقد قال فى الثناء عليه :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم لقيل اقعدوا يا آل عباس
ثم ارتقُوا فى شعاع الشمس كلكم إلى السماء فأنتم أكرم الناس

وهذا كلام يسمو به إلى جمال الشعر ويملك النفس بما أودعه من وصف السعادة التى صوّرها محفوفة بالنور، ولكن قد ضاع تأثيره فى النفوس ببعد الممدوح عن محاسن الكرم . وقد وجدت أبيات هذا الشاعر محلاة بالخلاعة كما أنى وجدته يتوسع فيها إلى المجون[٢] وكثيرا ما كنت ألقاه فى مجالس المهالبة يلتمس نصيبه من عطائهم بما يتصرف به من الهزل والمزاح .

---

(١) الأغانى ٣ : ١٢٦

(٢) ابن خلكان ١ : ٢٧١ والأغانى ٩ : ١٣٢ والمستطرف ٢ : ٤ والشريشى ٢ : ٢٦

ومن الشعراء المجيدين محمد بن المولى الأعرابى لقيته فى مجالس المهالبة مرة واحدة وقد قصدهم من البادية وقال فيهم المدائح الرنانة فأجزلوا عطيته من المال وقد حفظت له من جملة أبيات يقولها فى مديح روح بن حاتم من أمرائهم[1] :

إنى لأرجو إن لقيتك سالما ألا أعالج بعدك الأسفارا

وكان روح عند ما أنشده إياه قد غلبته الأريحية فأمر بافراغ المال عليه حتى تثقّل به فقلت للأمير ما أنت إلا من يقول فيه زهير :

تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله

فقال والله لأن أعطى أحبّ إلى من أن أُمدح . ولابن المولى كلام يقرب أن يكون مثل أقوال الجاهليين ، لمُقامه فى مواضعهم من البادية بعيدا عن حضارة الأمصار ومن شعره فى النسيب :

أحن إلى ليلى وقد شطت النوى بليلى كما حن اليراع المثقب

تقربت ليلى كى تُثيب فزادنى بِعادا على بعد إليها التقرب

وقوله :

وأبكى فلا ليلى بكت من صبابة إلىّ ولا ليلى لذى الوُدّ تبذُل

وكان الحسن بن زيد رضى الله عنه ، وهو عامل على المدينة[2] ، قد دعاه وأغلظ له ، وقال أتشبب فى حرم المسلمين وتنشد ذلك فى المحافل والمساجد ظاهرا ؟ فقال امرأتى طالق ثلاثا إنْ كانت ليلى إلا قوسى هذه ذكرتها على سبيل التشبيب ، لأن القريض لا يحسن إلا بالنسيب . على أنى وجدت شعره إلى فصاحة البداوة أقرب منه إلى حلاوة الحضارة وفى قوله :

سلا دار ليلى هل تُبِين فتنطِق وأنى تردُّ القول بيداء سَمْلق ؟

عفتها الرياح الدامسات مع البلى بأذيالها والرائح المتعبِّق

بكل شآبيب من الماء خلفها شآبيب ماء مزنها متألق

(1) الأغانى ٣ : ٩٠

(2) ابن الأثير ٥ : ٢٤٣

ما يبعد تناوله على سكان الأمصار الذين ينقطع عهدهم بمحاضرة أهل البادية ، وإنما يَدخلون فى لسانهم كلام السوقة[1] وألفاظ الأعاجم الذين يخالطونهم فى أسفارهم وتجاراتهم ، حتى تصبح لغتهم فى أشد المباينة للسان العرب .

وممن لقيته من الشعراء المجيدين السيد الحِميرى ، وهو من الواقفية القائلين بالإمام المنتظر[2] ، يأتى فى شعره على غرضه فى السياسة ، ويفرط فى سب أصحاب النبى[3] صلى الله عليه وسلم ممن كان يرغب عن آل البيت ، وربما وقع عليه من الناس تجافٍ عن شعره من هذا الجنس ، إلا أنه ليس لأحد من الشعراء ماله من عذوبة الألفاظ ، وجودة السبك ، ورونق الشعر وطَلاوته . وقد جمعنى وإياه إلى هذا اليوم أكثر من مجلس ، ووجدته حسن الكلام جميل الخطاب ، إذا تحدث بين القوم أعطى كل رجل فى مجلسه نصيبه من حديثه[4] ، وله فى النسيب كلام رقيق فمن ذلك قوله :

ولما رأتنى خشيةَ البينِ موجَعا أكفكِف منى أدمعا بيضها درر

أشارت بأطراف إلىّ ودمعها كنظم جمان خانه السلك فانتثر

ومن الشعراء المقدمين أشجع بن عمرو السُلَمى[5] ، وقد نزل الشعر فى صدره موهبة من الله ، فانتهضت به قيسٌ لذلك ، إذ لم يكن بها فى الإسلام شاعر قبله ، وإنما كان الشعر فى ربيعة واليمن . فلما نجم أشجع وقال الشعر افتخرت به قيس

---

(١) يقول فى الأغانى ٣ : ١٧٣ إن الألفاظ السوقية لا تمنع أن تكون القصيدة جيدة .

(٢) العقد الفريد ١ : ٢٦٦ والمقدمة ١٧٣ وذكره المسعودى ٢ : ٨٠ وسمى شيعته بالكيسانية .

(٣) أبو الفداء ٢ : ١٥

(٤) الأغانى ٧ : ٣

(٥) الأغانى ١٥ : ١٠٨

على العرب[١] ، ومما أستحسنه من نظمه سهولة القول التى لا يعانى إلى البراعة فيها تكلفا ،وقد حفظت له فى مديح ولى العهد بيتين من جيد الشعر وهما قوله[٢] :

وعلى عـدوك يا ابن عم محمد رصدان ضوءُ الصبح والإظلام

فاذا تنبـه رعته وإذا غفـا سلّت عليـه سيوفَك الأحلام

هذا ما أذكره عن شعراء هذه الدولة بوجه الاختصار، وقد رأيتهم يتسابقون إلى ابتكار المعانى الحِسان من غير أن ينتحلوا مذاهب من تقدمهم فى عصـور الجاهلية ، إلا فيما كان أقل من النادر[٣] ، ولو رأينا لهم ما سبِقُوا إليـه ما صح أن تتهمهم بالانتحـال ، لأن العقـول قد تتوافق وتتوارد ، وإن كان المتقدمون من الجاهليـة أشرف منهم لفظا فانهم لألطف منهم صنعا وأكثر من المعـانى حظا . وهؤلاء هم أشـعر العرب قد اجتمعوا فى الزوراء إلا ابن هَرْمة وسَلْما الخـاسر ، وكلاهما شاعر مجيد أيضا إلا أن أبياتهما لم تصـل إلىّ ، فلم أعلّق أخبارهما فى هذا الكتاب .

وقد كتبت هذه الرسالة فى منتصف ذى الحجة من السنة الثانية والخمسين بعد المـائة من هجرة نبينا المكرم ، والله المسئول فى توفيقنا إلى السـداد ، وهدايتنا إلى الرشاد : بمنه تعالى وكرمه .

---

(١) الأغانى ١٧ : ٣٠

(٢) البيتان قيلا فى هرون الرشيد .

(٣) انظر ابن خلكان ١ : ١٠٢ والأغانى ٣ : ٤٩ و ١٤٨ و ٥ : ١٧٨ والحصرى ٢ : ١٦٧

الرسالة الرابعة

جلوس المهدى على دَسْت الخلافة

أفتتح هذه الرسالة إليك بذكر جلوس المهدى على دست الخلافة عند وصول الخبر بوفاة أبى جعفر ، وقد كان لذلك يوم عظيم فى الحضرة والإسلام كله ، لأن العقلاء من أهل السياسة كانوا يرون زوال الخلافة عن ولدِ العباس إلى الأئمة من أهل البيت وتعذرَ مصيرها إلى المهدى ، والمشايخ من أهل هاشم حاضرون ، فجرى الأمر على خلاف المظنون بحيلة علمتها من البرامكة سرا لم تتكشف للناس إلى هذا اليوم . وذلك أنه لما أودى أبو جعفر — غفر الله له — كتم الربيع موته إلى الصباح عمن كان معه فى الحج ، واستدعى عيسى بن علىّ عمَّه وعيسى ابن موسى ولىّ العهد بعد المهدى وجماعة من القوّاد والأمراء ، وتقدّم إليهم بأمره — فيما كان يزعم — أن يجددوا البيعة لابنه من غير أن يُعلمهم بوفاته ، فلم يتجرأ أحد على مخالفة الأمر، ظنا منهم أنه صادر من السلطان . ولو أنهم علموا بوفاته ما تسارعوا إلى تجديد بيعتهم لابنه ، فلما بلغ مراده ولم يبق له غرض من كتمان موته دخل عليه كمن لا يعلم أمرا مما نزل به ، ثم خرج إليهم مشقوق الجيب باكيا ينعَى وفاته ، فلم يكن فيهم إلا من أخذت عليه البيعة ، وركب رجال المهدى إلى مكة ، وبايعوا أهل الحل والعقد من أهلها[1] ، فصارت الخلافة إلى المهدى بهذه الحيلة التى تعاب على الربيع من وجه الظلم ، وإن كان فيها حقن لدماء المسلمين .

وكانت وفاة أبى جعفر فى بئر ميمون مع السحر، لست خلون من ذى الحجة، وهو محرِم بظاهر مكة [2] ، ولذلك دفن مكشوف الرأس دون احد غيره من

(١) ابن الأثير ٦ : ١٣

(٢) ابن الأثير ٦ : ٨

الخلفاء ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم منع المحرم من لُبس القُمُص والعمائم والبرانس[١] وغير ذلك من أنواع المخيط ، وحفر له أهله مائة حفرة بين الحجُون وبئرِ ميمون[٢] لِيعَمُّوا على الناس ، ثم دفنوه فى غيرها . ووجه الربيع منارة [٣] الخادمَ إلى الحضرة بالبيعة ، وأمره بالسرعة خوفا من أمر يحدث فى الإسلام ، فجاءها فى أحد عشر يوما[٤] من مكة .

وقد كنت فى مجلس هرون الرشيدِ حين سمعت الجلبة فى مقاصير الحرم ، فاستعلمت الخبر ، فنبئت أن أبا جعفر قد مات ، فأسرعت إلى منازل البرامكة لأشهد مجلسهم فى ذلك الوقت ، فأخبرنى نافذ أحد الحجاب أن المهدىّ قد دعاهم إليه ، فنزلت إلى السوق فلقيت أستاذى أبا يوسف ، فأبنت له ما أنا تائق إليه من حضور البيعة ، فأشار إلىّ بالبقاء معه إلى قبيل الظهر ، وهو الوقت الذى يجتمع فيه أهل الحل والعقد لمبايعة المهدى .

فلما سرنا إلى دور الخلافة ، رأينا الساحات غاصة بجماهير الناس ، فولَجنا باب السور بين ازدحام تضيق منه الأنفاس ، حتى انتهينا إلى باب القبة الخضراء ، فجاوزنا الحجاب إلى المجلس الذى تقام فيه البيعة ، فاذا به قد جميع الأمراء من بنى العباس وجِلّة القوّاد والأعيان وأهل البيوتات مثل البرامكة أعزهم الله وآل المهلب وآل طاهر وآل قحطبة وآل نُوبَخْت وغيرهم . وكان المهدى مستويا على عرش مكلل باللؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر ، وعلى رأسة قبة تتدلى منها أستار من الديباج[٥] ، وعلى يمينه ويساره غلامان قد التحفا بالذهب ، ووقفا بمظلتين من الريش الأسود مرفوعتين على رمحين مكسوين بعروق من الذهب ،

---

(١) الزرقانى ٢ : ١٤٨

(٢) الخميس والعقد الفريد ٣ : ٥٣

(٣) المسعودى ٢ : ١٩٤

(٤) أبو الفداء ٢ : ٩

(٥) المسعودى ١ : ٢٣٤

قد نُزّل فيها الياقوت والزبرجد والفيروز ، ودونهما بنو هاشم على وسائد قد ثنيت لهم[١] ، ولباسهم خز أسود ، وكذلك كان لباس المهدى ، وكانت عليه الطرحة ، وعلى كتفه بردة النبي صلى الله عليه وسلم التى استصحبها أبو جعفر إلى الحج ، وفى يده القضيب وفى الأخرى خاتم الخلافة .

وكان على يمين العرش منبر مزخرف بأنواع الزينة والجواهر والديباج ، قد وقف به كاتب المهدى فى خلافة أبيه[٢] أبو عبد الله معاوية بن عبد الله الأشعرى ، وهو الكاتب المشهور بالبلاغة ، قد اتخذه وزيرا[٣] له فى سياسة الملك وكان سلامان الأبرش حاجبه واقفا على بعض مرقاة[٤] هذا المنبر بالبيعة التى جاء بها منارة من مكة ، وتحت يد الخليفة أمير من البرامكة[٥] ، قد أخذ فى يده البيعة على أمراء الحضرة الذين لم يروا إلا متابعة الناس ، بعد أن بايعت مكة والمدينة وبايع القوّاد والوزراء وأكابر المسلمين .

وكانت عادة الناس فى مثل هذا الموقف أن يبدءوا الخليفة بتعزيته فى أبيه ، ثم يهنئوه بجلوسه على تخت الخلافة ، فلما أخذوا فى تعزية المهدى خلعوا قلانسهم ونبذوها وراء ظهورهم ، لأن الخلفاء لا يُعزّون بالعمائم[٦] ، ثم وقف وزيره أبو عبد الله يبايعه عن المسلمين ، ولفظ البيعة قوله[٧] " إنا نبايع سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة على جميع الأنام أبا عبد الله محمد بن عبد الله المنصور ، على

(١) الأغانى ٤ : ٩٣

(٢) الفخرى ٢١٥

(٣) الأغانى ٣ : ٤٦ العقد الفريد ٣ : ٥٣ والمسعودى ٢ : ١٩٦

(٤) السيوطى .

(٥) يفهم من ابن الأثير ٦ : ٦ أن خالدا ويحيى كانا غائبين عن بغداد لما توفى المنصور م

(٦) الأغانى ٩ : ٩٧

(٧) السيوطى .

كتاب الله وسنة نبيه واجتهادِ أمير المؤمنين ، وأن لا خليفة سواه" ، ثم بايعه كل من حضر المجلس حتى لم يكن يسمع إلا دعاء له وتنويه باسم بنى العباس .

ثم تناول الوزير منشورا كتبه الربيع على لسان أبى جعفر استنهاضا للناس إلى مبايعة المهدى [1] ، فتلاه على مسمع من الأمراء وفيه يقول . " بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله المنصورِ أمير المؤمنين إلى من خلف من بنى هاشم وشيعتِه فى خراسان وعامة المسلمين . أما بعد فإنى كتبت هذا وأنا حى فى آخر يوم من أيام الدنيا وأولِ يوم من أيام الآخرة . أقرأ عليكم السلام ، وأسأل الله ألا يفتنكم بعدى ، ولا يلبسكم شيعا ، ولا يذيق بعضكم بأس بعض وأوصيكم بمحمدٍ ولىّ عهدكم وأذكركم البيعة له ، وأستنهضكم للوفاء بعهده واجتماع كلمتكم عليه ، فانما قوتكم تكون بالاجتماع إلى رأيه ، وقد أوصيته بكم وبالرأفة عليكم والإحسان إلى المسلمين والسلام". فترقرق الدمع فى عينى المهدى [2] ولم يتمكن من إطالة الخطبة التى يقولها الخلفاء ، لِما غلب عليه من تأثير النفس ، فصرف الأمراء وهم يدعون له بالسلامة .

سياسة المهدىّ وخلعه عيسى ابنَ عمه عن الولاية

ولما كان المساء أقيمت فى المدينة زينة حافلة فصرفت العناية إلى تزيين مَشْرع الزوايا [3] بالأنوار ، لقربه من موضعى ، ليكون فى ذلك قضاء الواجب من شكر الخليفة على ما أولانى من الجميل ، ودفعٌ لألسنة الوشاة عن السعاية بى إليه فيما استقر بنفوسنا من الميل مع أهل البيت ، وامتلأت الزوراء فى تلك الأيام بأرباب الملاهى ، وبما يعرضون من صور الطين التى يصنعونها لِلَعب الصبيان

---

(١) ابن الأثير ٦ : ١٢

(٢) الإسحاق ٨٨

(٣) موضع ذكره ابن خلكان ١ : ٤٦٤

فى المواسم والأعياد [١] ولا أطيل لك الكلام على عاداتِ العامة وسذاجتهم ، لأنها فى جميع الأمم عامة ومتماثلة ، وإنمــا أخبرك بما عرفته للمهدى — أصلحه الله — من حسن السيرة التى يروم بهــا أن تستبدل برعب الناس من أبيــه ورغبتهم عنه محبتَهم له وميلهم إليه فأقول :

إنه بعــد أن أظهر من الأبهة بافتتاح خلافته ما يعظِّم موضعَه من السلطان ، صنع لبنى هاشم وسائر قريش طعاما جاوز فيه الحد بسعة النفقة[٢] ، حتى إنه أطعم الناس الطير وخبزَ السَّميذ . وكانــ يحمل معه بِدَر الدراهم والدنانير فى ركوبه ، فلا يتعرض له أحد إلا أعطاه[٣] ، فكان أرباب الدولة يخافون نفاد ما فى بيت المــال [٤] إذا استمر هــذا العطاء [٥] ، ولا سيما بعد أن نقص دخل الدولة برفعه المؤن والكسور وهو الأمر الذى كان يفاوضنى فيه أيام خلافة أبيه ، فان الناس فى صدر الإسلام كانوا يؤدون ما فى أيديهم للخراج من دراهم ودنانير مضروبةٍ على وزن ِكسرى وقيصر ، لا يفرّقون فى الأوزان ، فلما ساد فيهم العمران وأفسدها التجار والصيارفة صاروا يؤدونــ الدينار الطَبرى ، الذى هو أربعــة دوانق ، ويُمسكون الوافى ، الذى هو مثقال ، فلما أَمَّرَ زِيادٌ صار يطلب الوافى ، ثم أَمَّرَ الحجاج فطلبه كذلك ، فلمــا صار الأمر إلى أبى جعفر أزال الخراج عن الحنطة والحبوب ، وصيره على الناس مقاسمة ، ولكن من غير أن يُســقِط الكسور ، فلما وَلِى المهدى قال معاذ الله أن أُلزم الناس ظلمــا فى ذلك ، فقيل له إن أسقط

---

(١) ابن خلكان نقلا عن كتاب إحياء علوم الدين للغزالى .

(٢) الأغانى ٣ : ٩٤

(٣) المسعودى ٣ : ٤٠١

(٤) المسعودى ٢ : ١٩٦

(٥) الحصرى والخميس ٢ : ٣٣٠

أمير المؤمنين هذا ذهب من أمواله فى السنة اثنا عشر ألف ألف درهم[١] ، فقال علىّ أن أقرر حقا وأزيل ظلما ، لأن العدل موفر للجباية ، كفيل بعمران الأمصار .

ولقد أعظمت للمهدى هذه المأثُرة التى أحسبها له من أجمل آثار العدل وأحسن سياسة الرفق ، فان لنا فى سقوط الدول التى قامت فى هذا المكان نفسه من النبَط والكلدان وغيرهم ما يدلنا على أن الظلم يقتل العباد والبلاد جميعا ، فانما كان غرض الناس من الاجتماع تحت لوائهم القيامَ بأعمال الزراعة والمُقام فى بلدان الخصب ، لما يتسع بين أيديهم من أسباب الكسب والارتزاق ، وقد تناسلوا فى ظلال العدل ، وبلغوا من الكثرة فيما مضى من الزمن الغابر بحيث كانوا إذا اجتمعوا لحرب أو لغزوة بلغوا ألوف الألوف من الخلائق ، ثم لما غفلت الدولة عن مصلحتهم ، وأوقعت عليهم المكوس الفادحة لسد ما دعتها إليه مطالب الترف ، لم يبق فى نفوسهم شىء من حب البلاد ، وهم لا يبتغون منها إلا تحصيل القوت الذى يأتيهم على إجهاد النفس ، فضعفت فيهم أسباب الهمة ، ولم يكن للدولة طاقة على مرد العدو بهم ، وقد ماتت نفوسهم من الظلم ، فخلت البلاد منهم ، والله يرث الأرض ومن عليها .

وكان وفود البلدان يردون على المهدى من الأقاليم الإسلامية الأقرب فالأقرب لتهنئته بالخلافة ، فاجتمع ببابه كثير من أشراف العرب وملوك الأقاليم ، وكانوا يتبركون به ويتوسمون فيه الخير لأنهم رأوا منه عدولا عن سيرة أبيه ، وإنما كان محسنا إليهم[٢] ، محبا لهم وساعيا فيما تصلح به أمورهم ، فاتخذ لهم من هذا الوجه مجلسا لرد المظالم[٣] ، ولم يكن قبله فى الدولة العباسية من ينظر فى تعدى الولاة على

---

(١) الماوردى ١٣٧

(٢) الخميس ٢ : ٣٣١

(٣) السيوطى وابن الأثير .

الرعية وجورهم فيما يجبونه من الأموال[1] ، ولقد وجدت له فى استمالة الناس إليه غايتين تصبو إليهما نفسه، ولا يهدأ له بال إلا بقضائهما على ما يروم، وهما إذلال العلويين إلى أن يكون بمأمن من تغلبهم عليه ، ثم جعلُ الخلافة من بعده فى ولده ممنوعة على غيرهم من بنى العباس . فأمّا أمر العلويين فما كان يشتدّ عليه وقعه بعد أن رماهم أبو جعفر بالخسائر التى يحتاجون معها إلى زمن يلُمون به شعثهم ، ويجمعون إليهم أطرافهم، فكأنما هو يقارعهم بسيف أبيه إلى هذا اليوم. وأما خلع عيسى ابن عمه عن ولاية العهد فانه كان يُتعِب منه البال، وقد دخل عليه يحيى بن خالد — أعزه الله — فأصابه فى قلق شديد، يقعد مرة ويضطجع أخرى . قال لى يحيى فعلمت من ذلك أنه يريد أمرا عظيما، فقال اجلس قريبا منى، لأنى أريدك للشورة[2] إن النبىّ صلى الله عليه وسلم مات فى غير وصية، وترك الأمر شورى بين المسلمين، فما لبثوا أن أجمعوا على أبى بكر، ولكن بعد فتنة كادت تقع بين المهاجرين والأنصار، لقولهم منا أمير ومنكم أمير، ثم مات أبو بكر وقد صير الأمر إلى عمر بمحضر من الصحابة ، فلم ينازعه فيه أحد ، ثم عهِدها عمر إلى ستة النفر الذين مات النبى صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض، فأجمع رأى الأمّة على علىّ وعثمان، وكان عبد الرحمن بن عوف أحد الستة المنوه عنهم يميل مع عثمان، وفى وصية عمر إلى المسلمين أن يتبعوا رأيه، فبايعوا من أراده ، فاستقر عثمان فى خِلافته إلى أن ثارت عليه الفتنة لإقصائه ولد أبى بكر وإقباله على أقاربه من الأمويين بالصلات الطائلة، وعهدُ المسلمين قريب

---

(١) فى الماوردى ومقدمة ابن خلدون أن هذا المجلس ينظر فى كتابة الدواوين إذا وقع بها تزوير وفى تظلم المسترزقة من الجند من نقص أرزاقهم ومن تأخرها عنهم وفى مشارفة الوقوف ورد المغصوب إلى أصحاب الحقوق وتنفيذ ما وقف من أحكام القضاة لضعفهم عن إنفاذه وعجزهم عن المكتوب عليه لقوة يده وعلو خطره وإمضاء ما يعجزون عن إمضائه فى البينات والتقرير واعتماد الإمارات والقرائن وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق وحمل المتخاصمين على الصلح .

(٢) المسعودى ٢ : ٢١٥

بضبط[1] أبى بكر وعمر، فقتلوه وكانت تلك أوّل فتنة فى الإسلام، [2] ثم أجمع العرب على علىّ عليه السلام، وكان الفرس يميلون معه، فاستوثق له الأمر فى العراق واليمن والحجاز ومصر وفارس وخُراسان، إلا الشام لاستواء معاوية فيها، فلما قتله الخوارج لم ير الحسن ابنه مقاومة الأمويين بالقتال ضنا ببذل الدماء فنزل له عن الأمر، وصارت الخلافة إلى غير أهلها بما قد بلغك من الفتن فأخاف اليوم إن صارت إلى ابن عمى أن تذهب من بيتى بلا رجوع، ثم يكون من الفتن مالا يؤمن غائلته على المسلمين، فأشِر علىّ يا أبا الفضل فى هذا الامر، الذى لا يتعاظمه أمر، فانك بحمد الله مبارك الرأى لطيف النظر .

فقال له يحيى يا أمير المؤمنين إنى أرى الزّلة فى هذا الأمر لاتستدرك، والخطأ فيه غير مأمون، فإن تكتب بالولاية لأولادك بعد ابن عمك كان ذلك أوكد فى البيعة . فقال له المهدىّ كنت أفعل هذا لولا أنى أخاف من عيسى نَكْث العهود، ولكنى أرى أن أخلعه عن الولاية وآخذ البيعة لموسى على المسلمين، فقال له يحيى على أمير المؤمنين أن يُعلِم شِيعته ومَسانّ أهله بذلك، ولم يتعمق فى هذا البحث إلى أبعد مما أشار به، لأن موقفه بين العلوية والعباسية من أشدّ ما يكون من الصعوبة، وأنه وإن كان يأخذ فى تعظيم العباسيين لرسوخ دولتهم فى المشرق، له فى حبه للعلويين ما يرى به عدولَهم عن العراق الذى تزهَق النفسُ دون التمكن من أهله، وإنما يلتمس لهم من المغرب أمما ترسخ فيهم دولتهم، إلى أن يأتيهم الله بالنصر القريب .

ولما جمع المهدىّ أكابر الدولة وفاوضهم فى هذا الأمر ظفِر بالموافقة من نفوسهم [3] ولكن على أن يجيبه ابن عمه إلى الانخلاع وانتهى بعض من يستخدم

---

(١) الفخرى ١١٦ .

(٢) السيوطى .

(٣) ابن الاثير ٦ : ١٦

الفقــه فى رضا الملوك إلى أن يقول إنّ أبا جعفر لم يكتب لعيسى بالولاية إلا لتبقى الخلافة فى بيته بعد المهدىّ ، فلما رزقه الله أولاداً كانوا أحق بها من أعمامهم ، فكتب المهدىّ إلى الرَّحْبة يستقدم ابن عمه إليه ، فلم يصل منه خبر ، أو وصله أنه يعتل بالشكوى ، وما بنفسه اعتلال ، ويستنكر الخروج إليــه إلا أن يُكره بالقتال . فعمد إذ ذاك إلى مكيدة الحرب ، وأرسل الجند على ذلك الوجه مأمورا بألا يأخذه بالقتال ، بل يستعمل الرفق والملاينة فى ترغيبه عن المخالفة إلى أن يجيبه إلى الخضوع . وكان على هذا الجند قائد نبيه الصوت فى الحروب يقال له أبو هريرة محمــد بن فروع ، فرأى أن يفاجئ الحصن فى آخر الليل ويصفّ العساكر صفوفا متعارضة ، ويضرب وراءهم مَصافّ الخيام ليوهم باستكثار العدّة والعزم على مثابرة الحصار ، ثم يُنزِلَ بالجنود الزعقة العظيمة التى إذا سمعها عيسى وهو فى نومه خامره الجزع وأفزعه الهول ، فلمـا فعل ذلك استيقظ عيسى على رعب من الصيحة ، ثم أشرف من الحصن سَحَرا ورأى سواد الجيش ، فامتلأ قلبه من الوحشة ولم ير السلامة إلا بالاستسلام ، فأخذه أبو هريرة إلى المهدىّ ، فلم يفتُر عن استعمال الحيلة فى تعويضه عن الولاية بالمـال إلى أن أجابه إلى الانخلاع ، ولكن بعــد شدة ما لحقه من الضيم .

ولمـا تصرّف المهــدىّ فى أمر البيعة بمـا أراد ، ثار فى قلوب المخالفين (١) له ما كان يُحمِده فيهم حلمه وسعة عطائه ، فحصل فى نفسه منهم خوف شديد ، ولكنه لم ير مقاومتهم بالقتل ، وفيهم كثير من أهل السيف ، لئلا يتسع الفتق وتعود عليه الفتنة بغير ما يحب ، وإنمـا رجع إلى من يلوذ به من العلماء ، وأمرهم بتصنيف الكتب فى الرد عليهــم ، وأخذ فى استصلاح الزوراء والنظر فى حسن السيرة الظاهرة من أهلها بإكراه العــزّاب على الزواج ، والإحسان إلى المتعففين من الشبان ، ممـا جرى له قيل وقال بين الناس ، كمثل أن نسبوا ذلك منــه

(١) ابن الأثير والفخرى والسيوطى .

إلى غَيْرة به على النساء [١] ، وهم قد غفلوا عن الغاية التى يرومها من صلاح أمره بصلاح الزوراء ، وموازنتها بمكة مهد الإسلام حتى يعظم فيها أمر الدين ، وتصبو إليها أفئدة المسلمين .

ظهور المهدى بمناصرة العلم

إنى و إن لم أكن على غرض العباسيين فى السياسة ولا تطيب نفسى بما ينفردون به من الملك (لأنى إلى قوم سواهم لأميل) لأوفِّ المهدىَّ حقه من الثناء على ما له من جميل العناية [٢] فى تعظيم العلم وتكريم العلماء . فهو يتخذ لأهل الأدب وأرباب الصناعة والغايات أياما [٣] معلومة من السنة ، يعرضون فيها بضاعتهم من علم أو فن أو أدب أو صناعة حتى يحصل بينهم التنافس ، ويُصدروا ما عندهم من النفائس ، ثم يجزيهم على ذلك بما هو مطبوع عليه من الكرم .

ولقد رأيته أصلحه الله أعطى الخلفاءِ نوالا للشعراء ، وهو يأذن لهم بالدخول عليه مرة فى السنة [٤] فيجتمعون ببابه ويتفاخرون بما عندهم من محاسن الشعر وفصاحة الكلام . وقد حضرت اجتماعهم بداره لأول ما ولى الخلافة ، وقد قصده ابن المولى من البادية [٥] وسَلْمٌ الخاسر من البصرة ، وابن الخياط من مكة ، وأشجعُ السُّلَمى [٦] من الحجاز فقالوا فيه الشعر الذى لم يمدح بمثله أحد من الملوك . ومن جملة ما حفظت لأبى العتاهية فى تهنئته إياه بالخلافة قوله :

أتته الخلافة منقادة إليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

---

(١) فى الأغانى ٣ : ٤١ أن المهدى من أشد الناس غيرة .
(٢) الإسحاقى ٨٨
(٣) المستطرف ١ : ٣٧
(٤) الأغانى ٩ : ٤٤
(٥) الأغانى ٣ : ٨٨
(٦) ابن خلكان ١ : ١٠١

ولو رامها أحد غيره ... لزلزلت الأرض زلزالها
و إنّ الخليفة من بغض « لا » ... إليه ليبغض من قالها

فأصاب لذلك حظا وافرا من المال . وكان بشار المقدَّم ذكره فى الرسالة السالفة واقفا فى صفوف الشعراء فلم يتمالك أن يقول لمن حوله ويحكم انظروا هل طار الخليفة عن سريره ؟

وكان المهدى يقدم عليهم سَلْما البَصرىَّ ومرْوانَ بن أبى حفصة ويعطيهما عطية واحدة، فأما مروان فانه يلتمس الفصاحة فى كلامه تشبها بأكابر الشعراء[1] ، وأما سلم فانه يودع أبياته المجون والخلاعة لتكون أنسا فى عيون السلطان ، فوقع فيما يتصرفان به من مذاهب الشعر بون يشبه أن يكون ناشئا عما فيهما من تباين المشرب بين الإفراط عند الأول والتفريط عند الآخر ، فان مروان بخيل يضن بماله [2] ، وسلم سَمْحٌ يبذُل المال ، يأتى إلى دار المهدى على بِرْذَوْن قيمته عشرة آلاف درهم ، ولباسه الخز والوشى[3] ، و يأتى مروان بأثواب رثة على حمار يكتريه بدرهم لا يخرج من يده إلا بعَصْب الريق ، مع كثرة ما أصابه من المال [4] فى صلات تجاوزت خمسة آلاف دينار فى عطية واحدة كما علمتُ .

ولئن تكن الفصاحة فى كلام مروان أجلَّ منها فى شعر سلم إنى لأعيب عليه المداهنة التى يلتمس بها مرضاة الخليفة بقدحه فى أهل البيت على غير حكمة وعقل ، كأنه يجزم بما يراه عن يقين لا رجوع فيه ، كقوله فى ثبوت الخلافة للعباسيين وبُعْد العلويين عن وراثة النبى صلى الله عليه وسلم :

يا ابن الذى ورِث النبى محمدا ... دون الأقارب من ذوى الأرحام
أنَّى يكون وليس ذاك بكائن ... لبنى البنات وراثةُ الأعمام [5]

(١) الأغانى ٩ : ٤١
(٢) الأغانى ٩ : ٣٩ والوطواط ٢٩٥
(٣) الأغانى ٩ : ٣٩
(٤) ابن خلكان ٢ : ١٣١
(٥) الأغانى ١٢ : ١٧ والعقد الفريد ١ : ١١٨ والمسعودى ٠

وهذا مردود من وجوه كثيرة ، لأن الخلافة إنما هى مصلحة دينية لا وراثة دنيوية لحيث توجد المصلحة الدينية تكون الخلافة ، ثم إن النبى صلى الله عليه وسلم صرح بأن الحسن والحسين هما ذريته ، فاذا وجدت الذرية لم يبق مدخل للأعمام فى الوراثة ، اللهم إلا إذا رجعنا إلى شريعة الجاهلية التى نُسخت بمجىء الإسلام ، ولو أنا ضربنا عن ذلك كلِّه صفحا ما وجدنا أصلح للإسلام من أن تجتمع كلمته على من لا ينصرف عن طاعته أحد من المسلمين ، إلى ردود كثيرة ما أنا من ذكرها الآن فى شىء ، وإنما أعود إلى الحديث الذى جرى به القلم عن سيرة المهدى ، فانى شهدت بداره أيامَ الشعراء وأيام القُصّاص وأيام النـدماء وأيام المغنين وأيام الرماة [1] وأيام جرىِ الخيل ، وقـد سبقه إليها الخلفاء ، إلا يوم السباق فانى لا أعلم عن أحد من بنى العباس أنه أقام الحَلْبة وأجرى بين يديه الخيل فى محفِل من كبراء الدولة قبله . وكان له فرس سبّاق الأضاميم ، يقال له الغضبان [2] ، فكان أول خيل الحلبة فى ذلك اليوم ، فلما وصفه الشعراء أصاب جائزتهم العُمانى وقد ارتجز :

قد غضِب الغضبان إذ جدّ الغضب ... وجاء يحمى حسبا فوق الحسب
من إرث عباسِ بنِ عبد المطلب ... وجاءت الخيل به تشكو التعب
له عليها ما لكم على العرب

ولكن هـذا من الأمور التى تكفى المشاهدة لهـا مرة واحدة ، وأما الذى ترتاح إليه النفس ، على التماس الكثير منه فى دور الخلفاء ، فهو يوم الغِناء وكان المهدى إذا اتخذ له مجلسـا بداره ضرب للمغنين ستارة يجلسون وراءها فى صفوفهم بحيث لا يرونه [3] إلا فُلَيْح بن أبى العوراء ، وهو أوضح الناس غناء وأعرفهم بالألحان

---

(١) ذكرها المستطرف ١ : ٢٧

(٢) الأغانى ١٧ : ٨٢

(٣) الأغانى ٤ : ٩٩ وذكر المسعودى ١ : ١١٨ أن الأوائل من بنى العباس ما كانوا يظهرون للندماء .

والأصوات[1] وإن لم يكن أحسنَهم صوتا ، فانما يحسن الغناء عند من يُشبع الألحان، ويملأ الأنفاس ، ويعدِل الأوزان ويفخِّم الألفاظ، ويعرِف الصواب، ويُقيم الإعراب ، ويستوفى النغم الطِوال ، ويحسن مقاطيع النغم القِصار ، ويصيب أجناس الإيقاع[2] ، فهو يحسن ذلك كلّه لمحله الجليل من هذه الصناعة وليس له فيها شريك إلا مغن آخر يقال له عطرد [3] قد أدرك دولة الأمويين فى آخر مدتهم وأما من سواهما من المغنين فليس لهم فى الصناعة ما للمتقدمين من الفرس ، وأنا لا أعيب ذلك عليهم لأن الزمن الذى مضى عليهم فى صدر الدولة كان مضرجا بدماء الحروب ، فانصرف الخلفاء عن النظر فى مطالب اللهو والترف إلى التماس الأسباب التى يؤيدون بها ملكهم من الحكمة والسياسة . ثم إن نقل الغناء إلى العربية[4] ليس بقديم عهد عندهم حتى يتمكنوا من صناعته وفنونه، لأنهم نقلوه من الفارسية فى خلافة معاوية بن أبى سفيان ، وهو الزمن الذى أخذ فيه العرب بسكنى الأمصار وانقلب أمر الأمة من سذاجة الخلافة إلى ترف الملك ، فلقد نَقَلَت إلينا الأخبار السالفة أن الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم لم يقيموا أبهة الملك ، ولا كان لهم على المسلمين سلطان دنيوى يتوسعون منه إلى التماس النعيم من الدنيا [5] وإنما كانوا مظهر الفضيلة ومثال القناعة والعفاف ، وكانوا يلبَسون الثياب المرقعة [6] ، ويتخذون فى أرجلهم نعالا من ليف [7] ويمشون فى الأسواق كبعض الرعية رجالا [8] وكان لباس أبى بكر الشملةَ والعباءة ، ولباس عمر جبةً

(١) الأغانى ٤ : ٨٨

(٢) الأغانى ١ : ١٢٦

(٣) الأغانى ٤ : ٩٩

(٤) الأغانى ٣ : ٨٦ والمسعودى ٢ : ٣٥٧

(٥) وكانوا يقولون فى خطبهم للسلمين أطيعونا ما أطعنا الله فيكم فاذا عصيناه فلا طاعة لنا عليكم.

(٦) الطبقات ١ : ١٩ والمقدمة ١٨٥

(٧) الفخرى ٣٣

(٨) الفخرى ٨٩

من التصوف مرقعة بالأديم ، ومركبه الابل [١]، وكان علىّ عليه السلام يتجافى عن جمع المــال ، ويقول ياصفراء ويابيضاء غرى غيرى [٢] وكان مطعمهم على مثل هــذا الوجه من الكَفاف يلتمسون به الغذاء من غير تأنق فى الأطعمة ، حتى إن المناخل كانت مفقودة عندهم ، فكانوا يأكلون الحنطة بنخالتها ، ولا يعرفون من الألوان إلا اللحم يطبخونه بالملح والمــاء [٣] ، وكان أبو موسى الأشعرى يتجافى عن أكل الطير والدجاج [٤] ، وكذلك كان العرب فى ســذاجة دولتهم على بُعْــدٍ من ترف المتمصرين فى جميع معايشهم وأحوالهم ، حتى إنه لم يكن عنــدهم من الغناء إلا حُداء الركبان أو ضربٌ من النَصْب أرقُّ منه ، فلما ساد فيهم العمران فى عهــد الأمويين وألقيت عليهم أصوات الفرس نبغ الكثير منهم فى محاسن هذه الصناعة ، ثم فتقت الفتن فى دولة العباسيين ، وقد طلبوا الخلافة من دون الملك ، فلم يتهيأ لهم مجلس بدُورهم إلى هذا الزمان .

وَلوع المهدى بمزاولة الصيد

تجد فيما أنا ذاكر لك عن المهــدى أنه يجمع إلى خلافة الأمة أبهة الملك ، وهما أمران لم يجتمعا فى خليفة غيره ، وربما التمس الطيبات فى هذه الأبهة والتأنق فى فنون المعيشة إلى الغاية التى لم يبلغها ملوك بنى أمية من قبله ، فاذا جلس إلى الندماء أحب أن يمتع نفسه بلذة أحاديثهم [٥] وإشارتهم دون ستارة تحجبهم عن نظره ، وإذا خرج إلى الصيد ركب فى المواكب العظيمة المزينــة ، وربمــا كان ذلك من أحب الأشياء إليه .

---

(١) المسعودى ١ : ٣٢٠

(٢) الطرطوشى ١٢٤

(٣) الأبشيهى ١ : ١١٤

(٤) المقدمة ١٧٨ وفى البخارى وشرحه القسطلانى مايخالف ذلك .

(٥) السيوطى .

وأنا لا أعُدُّ الصيد من الملاهى التى تعاب على الملوك إلا متى أفرطوا فيه وكانوا أقرب به إلى الأَشَر منهم إلى النزهة والرياضة ، كما نعلم عن صبية الأمويين الذين أجْلَوْا أهل الزراعة من حولهم لتحطيمهم زرعهم فى طلب الصيد . وهذا بعيد عن أن يكون فى المهـدى (أصلحه الله) وإنما هو كَلِفٌ به [١] من غير إفراط فيه . لأنى رأيت من الأمراء من يتأنق أكثر منه فى اتخاذ العُـدّة له ، إلى أن يصنعوا نِصال سهامهم من الذهب كما ورد عن بعضهم فى كلام الشعراء :

ومن جوده يرمى العُـداة بأسهم ... من الذهب الإبريز صِيغ نِصالهُـا
لينفقها المجروح عنـد انقطاعه ... ويشترىَ الأكفان منهـا قتيلُها [٢]

وهذه مباهاة لا ينظر إليهـا الخليفة من مزاولة القَنْص ، وإنمـا عنى باتخاذ الصقور والبِيزان وتربيـة الكلاب التى تسبقُ الظليم فى عَدْوها ، يُلبسها أطواقا من ذهب [٣] ، ويوكِّل بكل كلب عبدا يخـدمُه كما يفعل كثير من الأمراء وأهل النعمة [٤] فى تربيتها للتحريض على الصيـد ، إذ كان لا ينهى الشرع عن اتخاذها إلا فيما كان لغير الصيد والحِراسة . وأما البيزان والصقور فانه لم يَسبِق إلى اتخاذها ، بل كانت معروفة عند العرب من ملوك كِنْده ، وقد وقف أحدهم يقانص بالحِبالة فنقض بازٍ وحمل عصفورا وعلِق وإياه فى الحِبـالة ، فأخذه الملك وهو يأكل العصفور ، ورماه فى كِسْر البيت فرآه قـد دجَن ولم يبرح مكانه ، وإذا رمى إليه طعاما أكله ، وإذا رأى طيرا طار إليه فاتخذه فى عُدّة الصيد وطاب به الطيرَ ، وصار العرب يؤدبونه [٥] لذلك ، ثم يؤدبون العِقبان أيضا ، ويقولون إنهـا تعمل عملا لا يدركه أكثر الصقور [٦] .

---

(١) ذكر حب المهدى للصيد فى الأغانى ٣ : ١٥٠ وابن الأثير والاتليدى وابن عون .
(٢) الاتليدى .
(٣) ذكر الفخرى ٦٧ هذه الأطواق من الذهب .
(٤) الأغانى ٦ : ٧١
(٥) المسعودى ١ : ٩١ والأغانى ٧ : ٤٥
(٦) الدميرى ٢ : ١٥٢

وقد ركب المهدى يوما إلى الصيد وكنتُ فى خدمته مع الأمير علىّ بنِ سليمان ابن عم أبيه وأبى دلامة الشاعر ، وكان خروجه من القصر فى آخر الليل ، وفى طرف الأفق شفق من الفجر ، وكان يحوطه فُرسان من الحرس متنكبون قِسِيّهم ، متقلدون سيوفهم ، يتبعهم قطعة من الجنود ، وطائفة من الغلمان قد حملوا المؤونة على الخزائن[1] الخفيفة ، و بينهم عدد من الوصفاء فى أخفّ كُسوة وأجمل لباس ، وكان مسيره محاذيا للنهر ارتيادا للخضرة التى تجنح إليها الطيور وتسرح فيها المَها والغزلان ، حتى إذا انجلى النهار وقد رمى شيئا من الطير تقدم إلى من بين يديه من الفرسان أن يضربوا حلقة فى أرض مطمئنة ممرعة ، ثم يضيقوها رويدا رويدا إلى أن يُؤْخَذ الصيد بين جموعهم من كل جهة [2] ، فلما أحاطوا بذلك الموضع وقع فى حلقتهم غزال قد نفر ومرّ ، وكان الخليفة قد نشِط للصيد وخفّ له فى ذلك اليوم ، فمال هو وابن عمه إليه ورشقاه بالسهام فأصابه سهم فى صدره ، وأصاب السهم الآخر بعض الكلاب فصرعه ، فلما جلسا للاستراحة حُمِل إليهما هذا الغزال ، فوجد فى صدره سهم الخليفة ، فارتجل أبو دلامة وهو يريد المزاح[3] :

قد رمى المهدىّ ظبيا	شكّ بالسهم فؤاده
وعلىّ بن سليما	ن رمى كلبا فصاده
فهنيئا لهما كل امـ	رئٍ يأكل زاده

وقد اتفق للمهدى فى ذلك اليوم نادرة لم أر أظرف منها فيما يتفق للملوك من النوادر ، وهى[4] أنه أخذته السماء وهو منقطع عن عسكره منتبِذ من أصحابه ،

(١) ابن الأثير ٦ : ٣٠

(٢) الفخرى ٦٥

(٣) الأغانى ٦ : ٤٧ والشريشى ٢ : ٢٦١ والعقد الفريد ٣ : ٤٤٥

(٤) المسعودى ٢ : ١٩ وابن الأثير ٦ : ٣٠ والفخرى ٢١٢ والمستطرف ٢ : ٣٠٦ والشريشى ٢ : ٢٥٧ والاتليدى ٨٦

فَرَكَضَ فرسَه مِلء فروجه حتى لا يلبِّده المطر ، فانتهى إلى بيت أعرابى مُلاحٍ [1] فبادر إلى نزع ما ابتل من ثيابه وجلس بجانب نار موقدة ، ثم قال يا أخا العرب هل من قِرى ؟ قال عندى فضلة فى رَكوة فقـال له هات اسقنى ، فشرب قَعبا وسقاه ، فلما شرِب قال له يا أخا العرب أتدرى من أنا ؟ قال لا والله قال أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة ، قال له بارك الله فى موضعك ، ثم شرِب قدحا وسقاه فلما شرِب قال له ياأعرابى أتدرى من أنا ؟ قال زعمت أنك من خدم أمير المومنين قال لا بل أنا من قواد أمير المؤمنين، قال رُحبت بلادك وطاب مَرادك ، ثم شرِب قدحا وسقاه فلمـا شرب قال له يا أعرابى أتدرى من أنا ؟ قال نعم ذكرت أنك من قواد أمير المؤمنين ، قال فلست كذلك قال فمن أنت ؟ قال أنا أمير المؤمنين فأخذ الأعرابى الركوة وأوكأها ، فقال له الخليفة مالك ياشيخ ؟ فقال مكانَكَ . والله ما آمن أن أسقيك القدح الرابع فتزعم أنك رسول الله . فضحك المهدى حتى استلق وأقبل الجند عليه . ونزل الأشراف إليه . فطار قلب الأعرابى من الخوف ، فقال له المهدى لا بأس عليك ولا خوف . ثم أمر له بمال وكُسوة . ولم يلبثَ أن رجع إلى الحضرة بعد انكماش ناله من العدْو السريع ونزول المطر وهبوب الريح الباردة .

فى تتمة أخبار المهدىّ ورسالتى إلى خُراسان

نعود إلى ذكر المهدى فى دولته وسياسته ، فانه لمـا حقق البُغْية بمـا أراده من البيعة لأولاده بقِى عليـه أن ينظر فى أمر العلوية ، وقد بقى منهم فى السجون جماعة لم يطلقهم منها فيمن أطلقه عنـد ما ولِى الخلافة [2] ، بل أبقاهم مع الذين عندهم تبعات من دم أو مال، وهذا من شر ما يلاقيه أهل البيت من الذين خالفوا جدهم عليـه الصلاة والسلام ، ثم إنه لم يكتف بهـذا الظلم حتى تعمد مضرتهم

---

(١) الأغانى ٣ : ١٥٠

(٢) فى ابن الأثير ٦ : ١٥ والأغانى ٣ : ٣٩ انه عند ما ولى الخلافة أطلق المسجونين .

باستمالة جماعة من أشياعهم يطلعونه على أمورهم فيما يسرون ويعلنون ، وفيهم رجل من بنى سُلَيم يقال له يعقوب بن داود ، طوقه أمر الوزارة ومكّنه من بيوت المال ليطلعه على أمورهم ، ويعلمه بمكان الحسنِ بنِ إبراهيم بنِ عبد الله بعد خروجه من السرداب الذى حفره إلى محبسه ذوو النخوة من رجال الشيعة ، ولكن يعقوب كان ذا عقل ورأى وفتوة ومن لا يستبدل المالُ بغرضه غرضا آخر ، فبقِى ميله مع أهل البيت ، والمهدى وأبو عبد الله يظنان أنه على خلاف ذلك [1] .

ولما استوثق للمهدى أمر العراق رأى أن يستميل أهل الحرمين ، فركب إلى الحج فى كثير من عظماء دولته ، واتخذ من الأبهة ما لم يسبق له مثيل فى الإسلام ، واستصحب معه هرون ابنه ويعقوب بن داود المقدَّم ذكره وجماعة من أقاربه المقربين ، واستخلف فى الحضرة موسى ابنه ويزيد بن منصور الحميرى خاله ، وحمل معه خمسين ألف ألفِ درهم ومائة وخمسين ألف ثوب [2] يفرقها فى أهل الحرمين ، وكان عازما فى تلك الحِجة أن ينكّب الإمام الحسن بن إبراهيم بن عبد الله من أولاد علىّ عليه السلام ، وقد علم أنه فى جوار مكة ، فتقدم يعقوب بالشفاعة إليه والحيلة المباركة عليه حتى نال رضاه عنه فأطلق له الأمان [2] الذى كان مقبوضا عنه وعن آل بيته فى خلافة أبى جعفر .

ولما قدم إلى مكة نزع كُسوة الكعبة وطلى جدرانها بالمسك والعنبر ثم كساها كسوة جديدة من الحرير ، لأنه كان يخاف عليها أن تتهدم لكثرة ما عليها من الديباج الذى كساها إياه هشام بن عبد الملك ، ثم أمر بانشاء أروِقة المسجد الحرام ، وحمل لها الأعمدة الرخام من البحر [3] ، واتم بناءها على عناية يلتمس بها استمالة أهل الحرمين مع ما أولاهم من الإحسان ، واتخذ لهم مآدبَ أفرغ الوُسْع فى زخرفتها

---

(١) ابن الأثير ٦ : ١٤

(٢) الخميس ٢ : ٣٣٠

(٣) ابن الأثير ٦ : ١٨

وتميقها للدلالة على عِظم ملكه ، حتى إنه سقاهم المـاء المبرَّد بالثلج المحمولَ من الشام[١] ، (وكان الذى حمله إلى مكة محمد بن سليمان الهاشمى الذى تقدّم فى الكلام على البصرة ذكره) وهذا من الأمور التى تُوسع أهل البادية تعجبا من اقتدار الملوك على الغريب ، ثم إنه ردّ عليهم الوظائف التى قُبِضت عنهم فى خلافة أبيه ، وفرق عليهم غير ما حمله من الحضرة ثلثمائة ألف دينار حُمِلت إليه من مصر ، ومائتى ألف دينار من اليمن ، وغير ذلك ممـا جاءه من الجهات ، فبلغ المنفَقُ فى هذا الحج على كسوة الكعبة وصِلة الناس وبناء القصور بطريق مكة واتخاذ المصانع فى كل منهل منها وتحديد الأميال والبرك وحفر الركايا وغير ذلك نحوا من ستة آلاف ألف دينار، واصطفى لنفسه من الأنصار خمسمائة نفر أجرى عليهم الأرزاق الواسـعة واتخذهم لمراتب السيف فى العراق، كأنه يعارض أباه فى تقديم الموالى على العرب ليستبدل بجفائهم له محبتهم إياه ، واتفق أن كانت هذه السنة سنة رُخْص وخِصب بعد جَهْد أصاب الناس فى العام لمـّا دهمهم الوباء[٢] الجارف، فأحبه الناس وتبركوا به وقالوا هذا هو المهدى ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وسميّه [٣] .

ولمـا عاد إلى الحضرة وقد وجد فى تجواله فى البلاد اختلالا لم يأمن معه على الدولة من الفساد صرف الهمة فى النظر إلى تدبير الولايات ورتب أناسا يؤدون رسائله إلى العمال ويراقبونهم فى إنفاذها وسماهمّ الأمنـاء [٤] ، ووجههم فى جميع الأمصار فكان لا يُنفذ كتابا إلى عامل فى أمر خطير حتى يكتب يعقوب الوزير إلى بعض الأمناء بانفاذ ذلك . ثم نظر فى أمر الرعية فوضع لهم ديوان الأزمَّة [٥] وأقام على

---

(١) الخميس ٢ : ٣٠

(٢) ذكره ابن الأثير فى حوادث سنة ١٦٠

(٣) الأغانى ٣ : ٩٤

(٤) ابن الأثير ٦ : ٢٠ ويقول فى موضع آخر إن المنصور كان يحب أن يوجد فى دولته مثل ذلك ٦ : ١٠

(٥) ابن الأثير ٦ : ٢١

الشُرْطة من تبيّن فيه حسن النظر والتدبير ، فاستوثق له الملك من الوجه الذى يرومه فى استمالة الناس إليه .

إلّا أنه تواترت عليه فى منتصف هذه السنة ، والدهر له صاف ، رسائلُ من أبى عون عامله على خراسان يشكو فيها ضعف جنده واعتلال دولته وتغلب رجل أعور من مرو قد ادعى الربوبية وأغوى الخلق ، وقامت له فى الصَفد وبُخارَى أنصار قد عاثوا فى البلاد ، واتخذوا البياض شعارهم لمخالفة السواد ، فتخوف المهدى أمرهم وأخرج إليهم مُعاذ بن مسلم موعِزا إليه بأن يلتئم مع الحَرَشىّ الذى هو أمير الجيش فى خراسان ، حتى إذا كان على انتظار البشائر منه وصله من أبى عون أن قد وقع الخلاف بين الجيشين ، فعزم على توجيه رسول يكشف قناع الفتنة ويصلح بين الأميرين ، فوقع الخلاف بين يعقوب وأبى عبد الله فيمن يطوقانه أمر هذه الرسالة ، فرام يعقوب أن يقلدنيها ، وأحب أبو عبد الله أن يصيرها إلى أمير من آل قَحطبة وكان الربيع حاجب أبى جعفر راغبا فى توجيهى بها أيضا حبا لى ، وكانت وقعت نُفرة [1] بينه وبين أبى عبد الله فاشتغل فى معاكسته وبلوغ المكروه منه .

ثم إن المهدى وقع رأيه على أن يبعثنى إلى مرو لأنظر فى أمر هذا المقنع الأعور ، وجعل لى التصرف فيما أرى حلّه وعقده من خلاف القواد ، إذ يكون خير الجيش المرجوّ ما لم تتقلب بأمرائه الأغراض ، ولا سيما أن له فى خراسان عدوين يتفقان جميعا عليه . جماعة خارجىّ يقال له يوسف البرم [2] وشيعة هذا المقنع الذين يدعون ألوهيته ويقيمون دعوته على بذل الدماء . فأما جماعة البرم فلم يكن لهم وجه بالثورة إلا فى أمر من السياسة ، ولذلك كانوا أقلّ على الدولة خطرا من رجال المقنع الذين أقاموا دعوتهم بأمر الدين وزعموا أن الله تعالى خلق آدم فتحوّل

---

(١) الفخرى ٢١٦ وابن الأثير ٦ : ١٩

(٢) ابن الأثير ٦ : ١٦

فى صورته ثم فى صورة نوح ثم فى صورة غيره من الأنبياء حتى تحول فى صورة هذا المقنع بعد أبى مسلم رحمه الله . وقد نقلت الأخبارُ السائرة أنهم يسجدون له من جميع النواحى ويزعمون أنه أراهم فى السماء قمرا آخر يراه المسافرون على بعد شهرين ويستضيئون بنوره والعياذ بالله من شرور الأعمال .

وإنما زعم هذا المقنع أن الله تعالى تحول قبله فى صورة أبى مسلم ليستميل الناس إليه كما استمالهم داعية الإمامية رحمه الله وإن كان بعيدا عن إظهار دعوة أهل البيت . فكان استخدامه الدين لنيل مناه وجها من السياسة ، يريد من شيوع المعجزات عنه بين العوام وهم بمكانهم من السذاجة والغفلة أن يتسارعوا إلى الانضمام إليه ، وقد رأى أن عصر موسى عليه السلام كان مقدّما بالسحر فغلب السحرةَ ، وعصرَ عيسى عليه السلام مقدّما بالطب فغلب الأطباء ، وعصر النبى صلى الله عليه وسلم مقدّما بالبلاغة ففضُل البلغاءَ ، فرأى أن عصره مقدّم بالكيمياء فأراد أن يبهَر الناس بما يستنبطه من المركّبات .

وقد فرغت من تقييد هذه الرسالة فى ختام السنة الحادية والستين بعد المائة من الهجرة المشرفة وأنا على أهبةِ السفر إلى خراسان وسأصدِر لك منها كتابا أودعه ذكر الشيعة فيها وأخبار أممها من الفرس والديلم وغيرهم وبالله نعتضد فيما نعتمد . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الرسالة الخامسة

طرف من أخبار المهدى والهادى

ولما [١] وصلتُ إلى بغداد قصدت باب البرامكة لأقرأ عليهم سلام الفضل [٢] أعزّه الله وأطفئَ ما بنفسى من الشوق إلى الأنس بقربهم المحبوب ، إذ كانت المكاتبة بيننا طول هذه الأيام لم تزدنى إلا شغفا بمحاسنهم واستطلاعا إلى محيا جمالهم . ثم إنى قصدت باب فقيه الإسلام وقد اتخذه المهدى (رحمه الله) قاضىَ قضاةِ المسلمين ، وصارت إليه جوائز الهادى والرشيد من بعده حتى بنى لنفسه فى درب أبى خلف [٣] من ناحية الكرخ الدارَ التى لم يبن مثلَها إلا ملك أو أمير ، فألفيته فى مجلس حافل بالأدباء والأمراء وعليه[٤] المبطَّنة والطَّيْلسان وقَلَنْسوة طويلة [٥] قد حوّطها بعمامة سوداء دعته الحاجة من خدمة العباسيين إلى اتخاذها على لون شعارهم ، وهذا هو الزِّى الذى يروم أن يكون مخصوصا بالفقهاء [٦] لتمييزهم عن سائر الناس ، فكان لَملْقانا موقف يستبكى الحمام لفرط ما بنا من الأشواق ، وصرفت اليوم بقيته بحضرته أجاذبه أطراف الحديث ، وقد نبأنى بأحوال القوم فى المدة التى كنت منفصلا فيها عن دار السلام ، لأن القضاة قد

---

(١) الرسالة المكتوبة فى خراسان لم تطبع والحديث هنا تابع لها موصول بها كما تراه .

(٢) كان فى ذلك الوقت عامل خراسان من لدن الرشيد كما هو مذكور فى ابن الأثير .

(٣) محلة ببغداد ذكرها ابن خلكان ١ : ٣٠

(٤) المسعودى ٢ : ٢٣٧

(٥) وجدت فى العقد الفريد ٣ : ٤٣ و ٢٣١ لفظة الطويلة بمعنى القلنسوة .

(٦) ابن خلكان ٢ : ٤٥٠ والأغانى ٥ : ١٠٩

يرد عليهم من طرائف الأخبار [١] ما لا يرد على غيرهم ، ولا سيّما من كان بمنزلة هذا الفقيه عند الخليفة حتى إنه ليجلسه على سريره بجانبه [٢] ، ويقوم له إذا دخل عليه ولا يقلّد القضاء [٣] ببلاد العراق والشام ومصر وخراسان إلا من أشار به إليه .

ولقد ذكرت لك فى رسالتى من خراسان ما اتصل بى من أخبار المهدى والهادى رحمهما الله فيما يتعلق بأمور الدولة . أما أخبارهما الخاصة فقد حدثنى بها لسان الشريعة على إسهاب لا موضع له فى هذا الكتاب ، على أن المهدى ما برح مستمرا إلى انقضاء خلافته على ما ذكرت لك من استمالة الناس ومقاومة أهل البدع فيما به تعزيز الملة والدولة ، ولقد جرت الشريعة فى أيامه وإلى هذا اليوم على أحسن منوال معروف لانقطاع النظر فيها إلى أبى يوسف من دون الخلفاء ، بحيث لم يتول القضاء الا أهل العلم ومن لا يميل به طمع النفس إلى الخروج عن جادّة العدل . وقد أقرّ رجالَه فى وظائفهم إلا وزيرَه يعقوبَ وقد وضَح له ميله مع أهل البيت [٤] ورفع إليه المفسدون بيتين من الشعر أغروا بشارا على قولهما ، وأطاروا ذكرهما كل مطار :

بنى أميـــة هُبّوا طال نومـــكم إنّ الخليفـــةَ يعقوبُ بن داود

ضاعت خلافتـــكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين النـاى والعود

فنكبه لذلك وألقىَ فى بئر عمِيَ فيها وهو يتوسد التراب إلى أن مات فى خلافة الرشيد قبيل عودتى من خراسان .

---

(١) الاتليدى ٧٩

(٢) الاتليدى ١٤١

(٣) الماوردى والإسحاق ٩٠

(٤) ابن الأثير ٦ : ٢٦ والمسعودى ٢ : ١٩٦ والفخرى ٢٢١

وكانت مأثُرة المهدى فى آخر أيامه وضعَه البريد (١) إبلا و بغالا فى كثير من البلاد مما استنفق أموالا طائلة ، ولا سيما فيما بين مكة والمدينة إلى العراق ، وهو أول من أقام البريد من الحجاز إلى الحضرة لما يروم من تناول الأخبار ومناولة الرسائل على وجه السرعة ، إذ كان على تيقظ من العرب فى مناصرتهم لأهل البيت بالمواطن المشرفة كما كان على حذر من أهل الشام فى استظهارهم على عماله بما يجاورهم من العرب الذين ما كانوا بحكم العباسيين راضين سوى نفر قليل كانوا يحملون الضيم لمخالفة السواد الأعظم من قبائلهم ، ولذلك كان يرى المهدى إمداد عماله بالرجالِ والعربِ بالمال حينا بعد حين، حتى دعته الحال إلى الشخوص بنفسه إليهم فزار دِمَشْق (٢) و بيت المقدس (٣) ، وأخذ فى إزالة الخلاف الذى كان بينهم فى بادية الشام بما فرق فيهم من الأموال الجِسام .

أما الهادى (رحمه الله) فانه نسج على منوال أبيه وقد رسم له بتتبع الزنادقة فمضى على ذلك وافتتح خلافته بقتلهم ووكّل بهم رجلا يقال له عبد الجبار (٤) وهو المعروف بصاحب الزنادقة ، فاقتص أثرهم فى الزوراء حتى لم يدع منهم عينا تطرِف فما كان الزنادقة فيما أخبرنى أبو يوسف إلا لِزٌ شِرٍ فى عقيدتهم و إن بدا للناس ظاهر لهم من الظرافة وحسن السيرة (٥) ، كما يشير لذلك بعض الشعراء بقوله فى رجل قد اتُّهِم بالزندقة (٦) :

لستَ بزنديق ولكنما أردت أن توسم بالظَرف

(١) ابن الأثير ٦ : ٢٦ وأبو الفداء ٢ : ١٠ والسيوطى والكنز ١٠٦

(٢) قضاة الشام .

(٣) الأغانى ٦ : ٦٧

(٤) الأغانى ٣ : ٧٢

(٥) ابن الأثير ٦ : ٣٨

(٦) الأغانى ١٧ : ٧٢

فانما يتعدَّون مذهبهم من التكذيب بالأنبياء وتعايم الناس بغضّ الخلفاء إلى أن يمسّوا الشرع الشريف بما لا يحلله كتاب الله، فقل للمفترين على الله إنه يحضرهم فى يوم لا يغنى عنهم شيء ولا هم يرحمون . واعلم أنه لم يلِ الخلافة قبل الهادى أحد فى سنِّه ، ولكنه لم يستكمل ستا وعشرين سنة حتى مات ، فكانت مدّة ولايته سنة وشهرين إلا أياما ، وكان ذا جبروت [1] وإذا ركب مشت الرجال بين يديه بالسيوف المشهَّرة والأعمدة والقِسىّ الموتّرة ، ولذلك كثر السلاح فى عصره ، وأحرز منه الشيء الذى كان يحب التباهى به ، حتى قيل إنه أعطى شاعرا مدح سيفا عنده كان لعمرو بن معدى كرب يقال له الصَمصامة عشرين ألف درهم على هذه الأبيات :

حاز صَمصامةَ الزُبَيْدىّ من بـ ـين جميع الأنام موسى الأمينُ
سيفَ عمرو وكان فيما سمعنا خير ما أُغمِضت عليه الجفون
أخضرُ اللون بين خديه بَرد من ذُعاف تميس فيه المنون
أوقدت فوقه الصواعقُ نارا ثم شابت به الذعافَ القُيون
فاذا ما سللته بهر الشمـ ـس ضياءً فلم تكَد تستبين
ما يبالى من انتضاه لحرب أشِمال سطت به أم يمين
يستطير الأبصارَ كالقَبَس المشـ ـعل ما تستقر فيه العيون
وكأن الفِرِند والجوهر الجا رى على صفحتيه ماء معين
نِعم مخراق ذا الخليفةِ فى الهيجـ ـاء يقضى به ونعم المعين[2]

---

(١) الخميس والمسعودى والسيوطى .

(٢) الحصرى .

وقد صارت المراتب فى أيامه إلى الناشئين من البرامكة والطاهريين والمهالبة وغيرهم ممن كنت أعرفه صبياقبل نزوحى إلى هذه الرحلة التى امتدت بى طويلا .
وكان على وزارته الربيع بن يونس حاجب أبى جعفر (غفر الله له) وعلى بيت ماله المعلَّى بن طريف[١]، وعلى حجابته الفضل بن الربيع، وعلى جنده آل أبى العلاء، وقد حدثنى بأخباره معهم بعض من كان مقربا إليـه من الندماء ومنهم رجل من أهل الحجاز يقـال له عيسى بن دأب ، وقد بلغ من الحظـوة لديه والجـلوس بحضرته على المتكآت ما لم يكن يطمع به غيره فى ذلك[٢] ، فكان يصف لى أخبار مولاه بما يرفعه إلى مساماة العظماء من أهل الرأى والتدبير ، غير أنى ما عرفت له شيئا من هـذه المحاسن وهو صبى ولا رأيت فى دولته الزُهاءَ الذى أشرق على دولة المهدى قبله ثم الرشيد من بعده ، لأنه كان منهمك النفس بحب اللهو وولد له فى فتاء سِنه أولاد كثيرون وفيهم ولد أعمى[٣] فيما سمعت . ولذلك كان الطامعون إليـه من غير أهل المراتب أ كثَرهم أهل لهو وطرب . وكان أقربهم إليـه مكانا وأفضلهم عنـده منزلة إبراهيمَ الموصِلى النديم ، وهو أعجمى الأصلى بارع فى جميع فنون العلم والأدب إلا أنه غلب عليه الغناء بعد أن تخرج على جوانو يه[٤] وسِياط ، فبلغ من الإجادة فيـه المكان الذى لم يبلغه المغنون من أهل الحجاز ، ولذلك كان الهادى إليه أميل منه إلى سواه من الندماء، يقال إنه كان إذا استعطاه خمسين ألف درهم أعطاه مائة ألف[٥] وقد قال لى إسحق ابنـه والله لو عاش لنـا الهادى لبنينا حيطان دورنا بالذهب[٦] .

---

(١) الأغانى ٣ : ١٥٣

(٢) المسعودى ٢ : ٢٠٢

(٣) العقد الفريد ٣ : ٥٤

(٤) الأغانى ٥ : ٤

(٥) الحصرى ٢ : ٢٠١

(٦) الأغانى ٥ : ٦

جمال بغداد بالرشيد والبرامكة

ولما جُلْت فى المدينة بعد طول الغيبة عنها وجدتها فى سعة من العمران ما كنت أعهدها قبل هذا الوقت ، فما كفى أهلَها الموسرين ما رفعوا فى مدينة المنصور من المبانى المشرقة حتى توسعوا إلى سكنى الجانب الشرقى المعروف بالرُصافة ، فبنوا فيه القصور الرفيعة والمنازل المزخرفة واتخذوا الأسواق والجوامع والحمامات[١] وتوجهت عناية الرشيد والبرامكة إلى تزيينها بالبنايات العامة ، حتى أصبحت الزوراء بجانبها كأنها البلد العتيق ، تجتمع محاسنه فى جزء من محاسن المدينة التى أحدِثت فى جواره .

ولقد أكبرت من بغداد بلوغ العمران فيها بما رأيت من ازدحام الناس بأنحائها . وتموجهم كالبحر فى أرجائها ، يقال إن عددهم يزيد عن ألف ألف وخمسمائة ألف[٢] ، وهذا جمع لم يكن مثله ولا قدر نصفه فى مدينة من العالم قط ، فانما يدل اجتماع الناس إلى هـذا القدر العظيم على أن ليس فى المدن أيمنُ[٣] ولا أيسر من الموضع الذى يتكوّفون فيه تكوّف الرمال . ثم أعظمت بلوغ النعيم فى أهلها بما رأيت من توفر أرباب الغايات عندهم على الفنون التى لا تقتصر الحاجة منها على ضروريات العمران ، وإنما تتوسع المنفعة من صناعتها ومصنوعاتها إلى مطالب الترف الذى يقع فى الأمم عند استكمال دولتهم واستفحال أمرهم .

وإنه يتعذر علىّ بهـذا القلم الذى لا مادة فيه أن أصف مفاخر المدينة[٤] التى أقل ما تصيبه من الشرف أنها تزهو ببهاء السلطان . وتضم إليها من عيون الأعيان

(١) قال ابن خلدون نقلا عن الخطيب إن الحمامات بلغ عددها فى بغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف حمام وكانت مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الأربعين ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لاتساع العمران .

(٢) فى الاتليدى انهم ألف ألف وخمسمائة ألف .

(٣) ابن الاثير ٦ : ٩٦ وأبو الفداء ٢ : ١٩

(٤) يقول الحصرى إن أدباء العصر يصفون الجمال بقولهم كأن بغداد مسروقة من حسنه وظرفه .

كثيرا حتى إذا لَقِى السائر جماعة منهم فى الطريق لم يفطُن لهم من حيث الكثرة مع أن أقلهم فى الثروة والجاه يتعذر على أكبر المدن أن تحمل سخاه وتسع جنده وحاشيته والطامعين إليه من كل الوجوه[1] فلقد يمشى أهل النعمة فيها بالغلمان[2] والحاشية إلى عدد يتوهمه السامع بعيدا عن الصدق ، فشاهدت فى محلة العتّابية [3] أميرا قد ركب فى مائة فارس وأحدق به الغلمان حتى ملئوا الطريق وسدّوا على الناس سبيلهم إلى أن مرّ ، وشاهدت فى مشرع القصب [4] على دجلة فتى من أهل النعمة قد سار بموكب عظيم من الخيل والرَّجْل كأنى به قيصر على مركَبه أو كسرى فى جلال موكبه ، وربما عدّ المحصى فى ولد العباس أكثر من ألف رجل[5] يركبون فى مثل هذا الجمع ، وكلهم فى سعة من الثروة وترف من الحضارة ، وإنما ساد العمران عند البغاددة إلى حد الترف تشبها بما يرون من الرشيد فى إقباله على الدنيا بطلب النعيم ، حتى يصدق المثل الذى يقول « الناس على دين الملِك » ، فهو الذى ألبس الدنيا هذا الجمال بسعة عطائه ، ولم يُسْمَع عن الخلفاء من كان أسمحَ منه ببذل المال[6] . يقال إنه ينفق على طعامه فى كل يوم عشرة آلاف درهم [7] ، وربما اتخذ له الطباخون ثلاثين لونا من الطعام[8] ، وقد أخبرنى أبو يوسف أنه لما بنى بزبيدة بنتِ جعفر اتخذ وليمة لم يسبق مثلُها فى الإسلام ، وجعل الهباتِ فيها غير محصورة حتى كان يهب أوانى الذهب مملوءة بالفضة ،

---

(١) الأغانى .

(٢) الأغانى ٤ : ١٠٤ و ٥ : ٨٤ وابن الأثير ٥ : ١٤٠ و ٢٣١ والمستطرف ١ : ٦٥

(٣) ذكرها ابن خلكان ١ : ٧٤١

(٤) ذكره ابن خلكان ١ : ٧٩

(٥) فى مروج الذهب ٢ : ٢٥٩ أن المأمون أحصى ولد العباس سنة ٢٠٠ فكان عددهم من رجال ونساء وصغير وكبير ثلاثة وثلاثين ألفا .

(٦) الفخرى ٢٣٠ والخميس ٢ : ٣٣١

(٧) المسعودى ٢ : ٣٤٢ و ٢٢٠ والمستطرف ٢ : ٣٤١

(٨) السيوطى والعقد الفريد وتزين الأسواق والمقدمة .

وأوانى الفضـة مملوءة بالذهبِ ونوافج المسك وقطع العنبر ، وبلغ جملة المنفقِ فيها من بيت المـال خمسة وخمسين الف ألفِ درهم ، وأمر أن تجلى زبيدة فى درع من الدر لم يقدِر أحد على تقويمه بثمن ، وزيّنها بالحُلِيّ حتى لم تقدر على المشى لكثرة ما عليها من الجوهر ، وهذا شيء من الإسراف لم يسبق إليه أكاسرة الفرس ولا قياصرة الروم [١] ولا صِبْية الأمويين مع ما تقلبوا فيه من المـال الكثير .

ومن جمالِ الدنيا فى هـذه الأيام أن الرشيد لا ينفرد وحده بكثرةِ الإنفاق والتبذير ، فان زبيدة زوجَهُ تصنع أعمالا تفوقَ مقدُرة المـلوكِ ، كمثلِ اصطناعِها بساطًا من الديباج جمع صورة كل حيوان من جميع الأجناس ، وصورةَ كل طائر من الذهب وأعينُها من يواقيت وجواهر ، يقال إنها أنفقتّ عليه نحوا من ألفِ ألفِ دينار [٢] وكمثلِ اتخـاذها الآلة من الذهب المرصعَ بالجوهر ، والثوبَ من الوشْيِ الرفيع يزيدُ ثمنــه على خمسين الفِ دينار ، والقبابَ من الفضـة والأبنوس والصندل عليهـا الكلاليبَ من الذهب الملبَّس بالوشى والديباج والسَّـمُّورِ وأنواعِ الحرير ، وكمثل اتخاذها شمعَ العنبرِ واصطناعِها الخفَّ مرصعا بالجوهر واتخـاذها الشاكريةَ من الخــدم يختلفون على الدواب ويذهبون فى حاجاتها ورسائلها [٣] ، إلى غير ذلك من الأمور التى تدون فى سِيرِ الملوكِ لتعظيم موضعهم من السلطان وذكر ما تقلبوا فيه من الطيبات .

---

(١) وجدت فى بعض الكتب أن المـأمون بن الرشيد اتخذ فى قصوره ثلاثة آلاف وثمـانمـائة بساط منها ألف ومائتـان مزركشة بالذهب وغيرها مطرز بالحرير واتخذ سبعمائة خادم منهم ثلثمائة عبد أسـود فان صحت الرواية فليس لذكر ترف الروم ولا الفرس موضع فى جانب العظيم من ترف العباسيين .

(٢) المستطرف ١ : ٩٨ وذكر أن التى صنعته هى أم المستعين .

(٣) المسعودى ٢ : ٤٠٢

ولم أر مثل هـذا الترف فى غير دور الخلافة إلا عند البرامكة الأمجاد ، و إليهم ينتهى جمالُ المـلوك وإشراقهم ، فاذا عزموا على الركوب جلس الناس لهم حتى يروهم أكثر مما يجلسون للخليفة . ولقد رأيت بعض صبيتهم بباب المُحَوَّل من الجانب الغربى [١] فى موكب عظيم وقد طُرِّز ملبسه وبين يديه الجند والغلمان ، والحَفَد والأعوان ، وهو واضع طرفه على مَعْرَفة فرسه ، والناس ينظرون إليه وهو لا يلتفت إليهم كبرا وجلالة ، وكان الرشيد نفسه إذا حضر مجالسهم وهو بين الآنية المرصعة ، والخزائن المجزَّعة ، والمطارح من الوشى والديبـاج ، والجوارى يرفُلن فى الحرير والجوهر ويستقبلنه بالروائح التى لا يُدْرَى ما هى لطيبها ، خيل إليه أنه فى الجنـة بين الجمال والجوهر والطيب .

وقد انتهى ترف شبابهم إلى الغاية التى لا وراء بعدها من التمتع بسعة النعيم ، وربمـا كانت مجـالسَ الطرب فى دورهم أجلَّ منها فى دار الرشـيد وأجمع لمعدّات اللهو [٢] ، لأن عندهم الغوانى [٣] اللواتى لا مثيل لهن فى البلاد ولا سيما فَوْز وفريدةُ [٤] ومنَّـةُ [٥] وهن أظرف القيانِ غناء وأحسنهن ضربا بعود .

واعلم أن الغناء من قبل البرامكة ما كان يعلم فى دور الأمراء لغير الصفر والسود [٦] ، فلما نشـأ أولادهم أحبوا أن يعلموه الجوارى الحسان [٧] ليزيد جمالُهن فى الغنـاء تأثيرا فى النفوس ، وقد أخبرنى نافذ من بعض حجابهم أنه لمـا زارهم الرشيد فى يوم من أيام فراغه أخرجوهن إلى البستان فاصطففن مثل

---

(١) ذكر الاغانى ٦ : ٧٨ والمسعودى ٢ : ٢٣٧
(٢) الأغانى ١٥ : ١٤١
(٣) الأغانى ١٥ : ١٤١
(٤) الأغانى ٣ : ١٨٣
(٥) الأغانى ٤ : ٨٧
(٦) الأغانى ٥ : ٩
(٧) الأغانى ٥ : ١٤ و ١٧

العساكر صفين صفين ، وغنين وضربن بالعيدان ونقرن على الدفوف إلى أن طلع إلى مقاصير القصر .

ولا نعلم عن أحد الملوك السالفين أنه نال من الطيبات ما هو موفور عند ملوكنا فى هذا الزمان ، فكأن بغداد قد ألقت جوانبها على مهاد الدعة ، ووُجدت لأهلها أسباب النعيم والكِبر [١] بما توفر عندهم من المال .

ترف البغاددة وانغماسهم فى طيبات العيش

يتوفر الترف عند العظماء من أرباب الدولة ثم ينقص شيئا فشيئا عند من هم أقل منهم فى الجاه إلى أن يبقى منه نصيب لعامة الناس . وهم وإن لم يكونوا بموضع هؤلاء الملوك من جلالة قدرٍ لهم واتساع نعمة عندهم أخذوا يمتعون أنفسهم من الطيبات فى جميع وجوهها ، بعد أن تغربوا بالأسفار التى أكسبتهم التجارب وأرتهم العجائب ، وأوجدت لهم التجارات والمكاسب . فصار الناس من الجهات يقصدونهم بأفخر ما عندهم من جميع الأجناس إلى أن عمرت عندهم الأسواق ، وتطرقوا من التماس الحاجات لضرورة العمران إلى إقتناء الأشياء للزينة والمباهاة ، كابتياعهم السلاح المنزّل بالذهب ، وتنافسهم فى الجواهر الثمينة والآنية المزخرفة والمتاع الفاخر ، واقتنائهم العدد الكثير من الغلمان والقيان إلى غير ذلك مما كانوا يوجهون رسلهم فى طلبه من الجهات [٢] ، فلما حُمل إليهم كل غال ونفيس من البلاد تحقق لدىّ أن محاسن الدنيا قد اجتمعت فى بغداد .

ولقد شهدت سوق الجوارى بعيد عودتى من خراسان ، وقد أقيمت فى الموضع المعروف بسوق النخّاسين [٣] وهم الرجال [٤] الذين يجلبونهن من أطراف الدنيا

---

(١) ذكر ابن جبير ٢١٩ الكبر من عيوب بغداد .

(٢) ذكره تزيين الأسواق ١ : ٣

(٣) الأغانى ٩ : ١٢٨

(٤) الأغانى ٥ : ١٢٦

إلى بغداد، فرأيت فيهن الحبشيات والروميات والجُرجيات والشركسيات والعربيات من مولدات المدينة والطائف واليمامة ومصر ذوات الألسنة العذبة والجواب الحاضر . وكان بينهن الغانيات اللاتى يعرفن بما عليهن من اللباس الفاخر الذى لا غاية بعده (١) ، وبما يتخذن من العصائب التى ينظمنها (٢) بالدر والجوهر ويكتبن عليها بصفائح الذهب .

ولقد يخال الناظر لأول وقوفه بهذه السوق أن بيعهن إنما هو جارٍ عليهن من قبيل الظلم والاسترقاق ، غير أنه لا يستقر فى هذا الوهم الطارئ بعد أن يرى تطارحهن على أهل النعيم . ولقد سمعت أن بعض الغوانى المترَفات يتخلصن سرا من حيث لا يُحببن المُقام ، ثم يأتين السوق متواريات عن عيون الرقباء إلى أن يقع سوقهن على أحد من الناس ، ومواليهن بهن غير عالمين ، فيتصرف النخاسون فى بيعهن مثل تصرف التجار ببضائعهم ، وإذا وقع سوقهن على رجل قبض بيده على يد النخاس كما هى العادة المألوفة فى البيع والشراء . ولقد وقفت فى ذلك اليوم والدلال ينادى بمن حوله من الراغبين ويصف لهم الجارية بعد الجارية بأحسنِ ما يكون من أوصاف الجمال (٣) وكانت الضوضاء مرتفعة والسوق رائجة .

أعود إلى ما كنت بصدده من ذكر البغاددة فى ترفهم المفرط فانى رأيتهم يزينون مجالسهم بالفرش الفاخر والمتاع الثمين ، ويُلبسون حيطانها الوشى والديباج ، ويعنَون بغرس الأزهار فى جنانهم ، حتى إنهم ليجلبون لها الرياحين (٤) من بلاد الهند ، فيصير من هذه الجنان ما يقوَّم ثمن البستان الواحد منها بعشرة آلاف دينار (٥) ، ويتخذون غلمانهم من أظرف الناس وأخفهم نشاطا ، ويميلون إلى

---

(١) الأغانى ٢ : ١٧٥ والعقد الفريد ٣ : ٤٣٩

(٢) الكنز ٤٧

(٣) الأغانى وحلبة الكميت .

(٤) ياقوت ١ : ٦٨٧ والمسعودى ١ : ١٨١

(٥) الأغانى ٥ : ١١٥

اللهو والطرب بما قد ذكرت من إقبالهم على اقتناء القيان ، ويفتنُّون فى ملاذ الطعام إلى أن يشتروا الصيد فى غير أوانه ، والثمارَ فى غير إبّانها بما يزن مثله فضة ، ويتمتعون بالذوق فى غير طعامهم بما يمضغون من الطيب وورق التآنبول الهندى الذى يمزجونه بالنورة المبلولة مع الفَوْفل لتطييب النكهة وتشهية الأكل وإحداث الطرب والأريحية فى النفس[١] ، ويتخذون مقاعدهم فى أوان الحزيين الماء المتدفق من صور السباع وأشكال الطيور وأشكال التفاحات وغيرها ، مما ينقشون فى الرخام فاذا ما أصابت الأجساد منها الرطوبة الوافية بترويح النفس اتخذوا فى السقوف مراوح[٢] يعملون لها حبالا تجرها ، فيجذبونها فيُهب عليهم النسيم البارد ، ويستجيدون فى اللباس والزينة وركوب الخيل بالديباج والحلية الثقيلة من الفضة إلى الغاية التى لم تبلغها الأمم المترَفة من قبلهم .

دخولى على هارون الرشيد

لقد ذكرت لك عن بغداد باليسير من الكلام ما فيه دلالة على عظيم ماصارت إليه فى هذه الأيام ، فأكتب الآن إليك ما يأتى به القلم عن دولة الرشيد وما يقابلنى به من جميل العطف والإحسان ، فانى مضيت إلى داره فى ذلك اليوم الذى وصلت فيه إلى الحضرة فأصبت ابن البواب جالسا فى حُجُرات الحجاب ، وهو الذى يخلف الفضل بن الربيع على حجابة الخليفة[٣] ، فلما رآنى أوسعنى سلاما وتحية ، ثم جاوزنى إلى قصر الرشيد وهو قصر بناه[٤] لنفسه تجاه دار الضيافة[٥] من دور الخلافة ، وقد استجاد فرشه وأفرغ العناية فى تجميله بأفخر أنواع الزينة ، وأقام فيه

---

(١) المسعودى ١ : ١٠١

(٢) الكشكول والأغانى ١١ : ٩٩ والعقد ٣ : ٢٣٥

(٣) الأغانى ٢٠ : ٤٢

(٤) الأغانى ٥ : ٣٣

(٥) قصر من قصور الخلافة ذكره الأغانى ٦ : ١٣٣

الأساطين التى يصطف بجوانبها الغلمان [١] ، وقد بنـاه على دجلة بحيث يسمع صوت الذين يعبُرون فى الزوارق [٢] ، وكثيرا ما كنت إذا زرته بعد ذلك أصبته جالسا إلى الشُباك يستمع غناء الملاحين فى الزّلالات [٣] ، فلما دنوت منه بادرت إلى يده فقبلتها فضمنى إليه بالتحية والسلام . وأقبل يلاطفنى برقيق الكلام .

وكان الرشيد طويلا عَبْل الجسم أشقر اللحية عليه مهابة الملوك وجلالتهم [٤] ، وعيناه وقّادتان كأنهما لسانان ناطقان ، فاذا أصغى لمتحدث بين يديه حوّطه ببصره حتى لا يجد سبيلا إلى أن ينطق فى حضرته بغير صدق . فلما وقفت بين يديه أمر الفرّاش [٥] أن يأتى بما أتكئ عليه [٦] ، وهـذا تعطف من الخليفة لا يكون إلا للبرامكة وأبى يوسف وجِلة المشايخ من ولد العباس. ثم إنه استدنانى [٧] إليه وأخذ يحادثنى بما يستعذبه من أحوال صباه ، ويحفظ لى بنفسه من جميل الذكر ، وأنا أجيبه على ذلك بما تقتضيه جلالة الخلافة ، إلى أن ذكر لى حديثه عن خراسان فأخبرته عما كان هنـاك من الاختـلال ، وأن الفضـل رتق الفتق الذى دبره أهلها بالمِحال . وأطلق يده فيهم بالضرب والنكال. وكنت عند ما ذكرت ذلك قد بادرت إلى سيفى كما جرت العادة بألا يكلم الخليفة أحد بما فيه الوهن إلا بادر إلى سيفه [٨] تعظيما للأمر وقياما بواجب الإجلال. فقال سبحان الله لقد أوصينا الفضل بهم خيرا لأنهم محبون لنا [٩] ، وهم سيوف دعوتنا وأنصار دولتنا ، ومن لهم حق الدالّة علينا

(١) الأغانى ٦ : ٧٦ و ٥ : ٣٣
(٢) الأغانى ٩ : ٦٧
(٣) الأغانى ٣ : ١٧٧
(٤) العقد والخميس والسيوطى وابن الأثير .
(٥) ذكره الأغانى ٩ : ٦١
(٦) ابن الأثير ٦ : ٣٨ والأغانى ٥ : ٢٣ و ٩ : ٦١
(٧) الأغانى ٥ : ١٠٦
(٨) الأغانى ٥ : ٥٩
(٩) العقد الفريد وابن الأثير ٦ : ٧

وحرمة الوسيلة عنـدنا، فقلت يا أمير المؤمنين إنّ الفضـل أخاك لم يمكن السيف فى رقابهم إلا بموافقة القوّاد الذين إذا ما شاورهم فى الأمر وقع بالموافقة من نفوسهم مقاتلةُ خوارجَ قد تراخت بهم الحال. وصارت فتنتهم إلى سوء المآل. فلما ذكرت له ذلك أعرض عن الإفاضة فى هذا الحديث، وأخذ ينكُت الأرض بشىء فى يده، ثم قال وهذه مصلحة التجارة فما الذى يكتب إلينا الفضل عن لزوم حِراستها بالجند؟ فقلت له إنّ فى خراسان تجارة تباع بأبخس الأثمان فاذا أمِنَ السابلةُ الأعرابَ جلبوا خيراتها إلى العراق واتجروا بها مع أمم البحر، فقال حسنٌ ولكن لنا أعداء ينبغى أن نكون منهم على حذر ولا نرفع عنهم سيف الإسلام، ونحن ساهرون عليهم ومرتقبون لهم بالجند إذ لابدّ للراعى من حِراسة الرعية[1] ، ولقـد يكفى التجارَ ما أمنّا لهم من السبل فى غير الديار العران، وما احتفرنا لركبهم من الركايا، وأوجدنا لهم من المناهل فى البلدان العامرة التى نحب أن تكون سوق التجارة فيها دائرة ، وأما تجار خراسان وما إليها من البلدان النائية فانا لا نحسب زكاة أموالهم كافيـة لمصلحة الجند ووافية بأرزاقهـــم .

وكان الرشـيد على مهمة هذه المفاوضة عنده يقطع حديثه مرة بعد مرة ، ثم يقبل على نفســه بالتأمل والفكرة . فأوهمت أنه يرى فيها مسألة تنقبض نفسه دون بسطها إلىّ . فاذا الأمر على خلاف ذلك، وإنما كان مشغول الخاطر بما أقلق أباه قبله من أمر الولد وإيثار بعضهم على بعض بالخلافة[2] فاتفق وأنا بالخلوة معه أن دخل عليه خادمه العبد فتفرّسه الرشيد وقال له ما وراءك يا مسرور ؟ فقال ما تحب يا أمير المؤمنين . ثم قام مقامه الذى كان إذا قامه علِم الرشـيد أنه يريد أن يسـارّه بشىء[3]، فأومأ إليه بالدنو فألقى فى أذنه كلاما ثم تنحّى، فقال لى الرشيد هذا خادمنا الأمين نرتاح إليــه فى الأسرار والمهمات، لم يحـدّثنا جهرا بحضورك ولكنه سارّنا

(١) قالها الرشيد وذكرها الوطواط ١٠١

(٢) ابن الأثير ٦ : ٥٨

(٣) الأغانى ٥ : ٣٢

فى أمر مما أخذنا من تقديم المأمون على الأمين بالولاية ، لأننا نرضى سيرته ونأمن ضعفه[١] ، ونعرف فيــه حزم المنصور[٢] ونُسْك المهدى وعزة نفس الهادى ، مع أن بنى هاشم يميلون إلى الأمين وأنشد :[٣]

أخاف التــواء الأمر بعد استــوائه   وأن يُنقض الحبلُ الذى كان أبرما

فلما رأيت بلوغ القلق فى نفسه من هذا الأمر تقدمت إليه فيما تقدّم به يحيى إلى أبيه [٤] ، والفضلُ إليه [٥] من مبايعة الولد بعــد الآخر ، مع علمى بأن ذلك أمر لا يجرى فيه الوفاق ولا يتم على الوجه الذى يريده الرشيد بعد ما رأينا من العباســيين تطاولهم فى أمر الخلافة ونقضهم العهود التى كانوا يكتبونها على أنفسهم فى حدود الله والآدميين . فهذا أبو جعفر [٦] لمــا رسخت دولته ، ومضت فى الناس كلمته ، لم يجــد من نفسه رادعا فخلع ابن عمه من الولاية وصيرها إلى المهدى من بعده ، فلما وَلِى المهدى بحيلة الربيع ، وأخذ فى استمالة الناس بمــا فرق فيهم من المــال لم يجد منهم عند إظهاره أغراضه فيهم إلا المتابع له والموافق على خلع ابن عمه كما علمت ثم لمــا صارت الخلافة إلى الهــادى وفى أعناق المسلمين المبايعة للرشيد بعده أراد أن يخلعه [٧] عنها ويصيرها إلى جعفر من أولاده لولا ما أجراه يحيى رعاه الله من الدراية والحيلة المباركة كما علمتُ بعد الأوبة من خراسان .

وإنما كان المأمون أحق بالولاية من الأمين لأنه أكبر منه بأيام وإن لم تكن أمه هاشمية مثله ، فلو صارت الخلافة إلى من هو أصغر منــه وهو حاضر لم يصبر

---

(١) المسعودى ٢ : ١٥ والمستطرف ١ : ٩٣

(٢) الأغانى ١٧ : ٨٠

(٣) الحصرى ٢ : ٤٩ والمستطرف ١ : ٩٣

(٤) المسعودى ٢ : ٢١٥

(٥) الأغانى ١٧ : ٧٨ وابن الأثير ٦ : ٤٣

(٦) ابن الأثير ٦ : ٥٨ وأبو الفداء ٢ : ١١

(٧) ابن الأثير ٦ : ٥٨

على ذلك ، فكان يخشى الرشيد من تقـديم الأمين عليه بالولاية وقوع الفتنة بينهما وزوال الخلافة عنهما جميعا إلى الواقفين لها من أهل البيت، أو إلى من كان أقرب الهاشميين إلى استخلاف أبى العباس، فان عم عم عم الرشيد إلى ثلاثة أعمام حاضرون فعبـد الصمد بن علىّ عم العباس بن محمد والعباس عم سليمان بن المنصور وسليمان عم هرون [١] فهؤلاء هم المرتقبون للخلافة والواقفون لهـا بالمرصاد ، فلا تسع الرشيد مخالفتُهم فى تقديم المأمون على الأمين ، وإنما يرجع إلى الرأى الذى تقدمت به إليه فتطمئن نفسه من بقاء الخلافة فى بيته ، ومصيرها إلى من يحب [٢] من أولاده .

الموازنة بين الرشيد وأبى جعفر

هذا فصل أفرده لذكر سياسة الرشيد وبيان الموازنة بينه وبين أبى جعفر [٣] إن صحت المقابلة بينهما ، فانى لم أجد فى الملوك من جمـع فنون السياسة إلى عقل الملوك وفضلهم [٤] وحكمتهم ودهائهم مثله ، تجتمع محامده فى قربه من الخير وبعده عن البغى الذى كان طبيعة فى أبى جعفر وبعض العباسيين ، حتى إذا صار إليـه الأمر كان أول ما أصدر من الأمر أن تعاد إلى الناس الضياع التى اغتصبها آباؤه وترد الأموال المغصوبة إلى أهلها فى جميـع النواحى والأمصار[٥] ، فلو لم يكن له من المآثر غير هذا لكفى الناس فرجا ورحمة واسـعة ، بعد ما شمِلهم من المكروه فى خلافة أبى جعفر وما استمر عليه المهدى من حفظ الضياع المقبوضة عنهم ، إما لطمع فى استغلالها ، وإما استصوابا لسياسة أبيه حتى لا يقال عنـه إنه ظلم العباد فى أموالهم .

---

(١) العقد الفريد ٣ : ٥٤

(٢) وهو المأمون عبد الله .

(٣) أجمع المؤرخون على أن الرشيد كان يقتفى سيرة جده فى السياسة ويطلب العمل بآثاره .

(٤) الفخرى ٢٣٣

(٥) الماوردى ١٥٦

ثم يصح تفضيل الرشيد على أبى جعفر بما هو آخذ فى سياسته من الصدق وحفظ المودة ومكافأة المحسنين على إحسانهم ، حتى إنه ليزيد عماله تجلّة كلما عظُم قدرهم واستفحل فى الإسلام ملكهم ، فهذا رَوْح من أمراء آل المهلب ، لما عظم فى الدولة أمره ، ودانت الرقاب المتطاولة له ، أفرغ النعمة الواسعة عليه ، وجعل الولاية من بعده إرثا فى ولده ، وكذلك إبراهيم من أمراء الأغالبة ، لما تمكن سلطانه من أهل المغرب أمّره على إفريقية إلى أطراف الثغور ، وجعل له الولاية فى بيته ليكون ممتنعا على العدو وكفيلا برد الفَرَنْجة إلى ما وراء البحر . وهذا أمر يدل على الحكمة التى فيها مصلحة الملة و إن كان وراءه من استقواء الأغالبة خوفٌ ما كان ليصبِر على مثله أبو جعفر مع ما عرفت له من التيقظ وسوء الظن بالعمال ، فان كان المنصور يحتال للأمر حتى لا يقع فيه ، فان الرشيد يحتال لما يقع فى يومه من الأمور على وجه يكون فيه توطيد الدولة وتعزيز الإسلام .

ولقد سمعت من يقول إن الرشيد يقتفى سيرة جده فى السياسة ، وذلك مردود عندى من حيث امتناع المماثلة بين الحلم والظلم ، و إلا فان كان الرشيد يمضِى بالعدل أحكامه ليستميل الناس بالإحسان إليهم حتى لا ينصرفوا عن طاعته ، كما كان أبو جعفر يأخذهم بالعسف حتى لا يستطيعوا مغالبته ، فما الغاية المقصودة من سياستهما إلا واحدة غير أن سياسة الحلم خير من سياسة القتل والظلم ، إذ يكون لصاحبها من دالّة الرعية غِبطة يحرمها البغاة الذين فى نفوسهم مرض من الظلم ، إذ يحجبهم عن رعيتهم سِتر الخوف ، ثم يقتلهم استنكار من حولهم من الناس والأشياء ، كما تقدم فى الكلام على أبى جعفر .

أما سياسة الرشيد مع أهل البيت فيظن فيها خروج عن العدل لاستمراره على هضم حقوق الذرية ، وإن لم تكن مُجْراة على ما رسم أبو جعفر من تتبعهم فى كل الوجوه فإنما كانت تختلف عنها بما تختلف فيه السياستان بين اللين والعنف . ولقد كنت أساير الرشيد فى بعض الأيام فقال لى بلغنى أن العامة يظنون بى بغض علىّ ابن أبى طالب فوالله وتربة أمير المؤمنين أبى إنى ما أحب أحدا حبى له ، ولكن

هؤلاء (يريد آله) أشد الناس بغضا لنا ، وسعيا فى فساد دولتنا ، بعد أخذنا بثأرهم من بنى أمية ومشاركتنا إياهم فيما حوينا ، حتى إنهم أميل إلى بنى أمية اليوم منهم إلينا فكنت فى ذلك الوقت بعيدا عن الوثوق بصحة هذا الإيهام ، ولكن ظهر لى بعد ذلك أنه لا يروم إقصاءهم إلا على غير مكروه يصيبهم ، وأنه لو قـدر أن يرفع عنهم الضيم الذى يلحقهم من جور العباسيين ، وهو موقن ببقاء الخلافة فى يده من غير منازع له فيها ، لفعل وطاب بذلك نفسا ، فلقد علمت أن المكروه الذى ألمّ بيحيى بنِ عبد الله بنِ الحسن إنما كان بسعاية أقاربه من العباسيين الذين لم يسعه مخالفتهم ، وهو بموقف يخاف منه الفتنة ، وكذلك مقتل موسى بن جعفر الإمامِ لم يقـع من نفسه برضاه ، لأنه لم يكن متهما فى بدعة ولا ظنينا على دِخْلة مكروهة ، ولمـا قتلوه فى حبسه أظهروا أنه مات حتف أنفه ، ومشى الرشيد فى جنازته إلى باب التبن حيث مقابر قريش فويق نهر عيسى الهاشمى ، فكنت أحيط به فى ذلك اليوم مع البرامكة فسمعته يترحم عليـه ، ويظهر براءته من دمه ، غير أن تغاضيه عن هذه المؤامرة ، وإن هو لم يدخل فيها غَرَرٌ يسأل عنه يوم الحساب ، لأنه يجب على خلفاء النبى صلى الله عليه وسلم أن يتبعوا سنته التى هى العدل ، ولا يتسامحوا فى قتل الأبرار الذين هم ذريته الصالحة وسلالته الشريفة ، رضى الله عنهم أجمعين .

هذا ما صحت فيه الموازنة بين سياسة الرشيد وأبى جعفر إلى الغاية التى يرجوانها جميعا من تأييد الدولة بها ، وإن لم تتوافق إليها السبل ، وقد وجدت للرشيد أعزه الله فضلا فى تدبير المملكة أحق بالثناء الجزيل ، وأبقى للذكر الجميل مما رأيناه لأبى جعفر (غفر الله له) بما ينال الرشيدَ من المشقة فى ركوبه إلى أطراف المملكة لتفقد ثغورها ، والنظرِ فى تظلم النـاس من ثِقَل يقع عليهـم فى الخراج ، أو ضيم يلحقهم من جور

العمال . فاذا صار إلى البلدان العالية مما وراء خراسان حيث لا يعرف اللسان العربى أخذ التراجمة[1] معه حتى لايفوته شىء من أمر الرعية، فهو يحج سنة ويغزو سنة، كذلك عادته من يوم ولى الخلافة[2] قال الشاعر يمدحه على بعد هذه الهمة منه[3] :

فمن يطلبْ لقاءك أو يُرده ... فقى الحرمين أو أقصى الثغـــور

وقال الآخر[4] :

ألف الحج والجهاد فما ينـ ... ـفك عن غزوتين فى كل عام

وربمـا رام فى أسفاره أو بالزوراء أن يعرف مايدور بين الناس من الأحاديث والأخبار فيتخفى فى زى التجار[5]، ويطوف الأسواق مع جعفر وزيره ومسرور خادمه لاستطلاع مالا يصل إليـه خبره من أمر السوقة والعوام، فنجم عن عنايته بهـذا الأمر كثير من الفوائد التى صلحت بها دولته ورعيته جميعا، فقد قال جعفر (أعزه الله) إنا ما ضبطنا بغداد بالشرطة ولا عنينا بتقدير الأوزان وتميز المغشوش من السكة إلا بما وجدنا من الاختلال فى تطوافنا بين الناس .

البرامكة نُكْتة محاسن الملة وعنوان دولتها

وهذه السياسة التى يباشرها الرشيد إنما هى باشارة البرامكة الذين رفعوا منـار الإسـلام[6] بصلاح مشورتهم إليـه فى أمور الخلافة، ولذلك صيّر إليهم النيـابة

---

(١) المقريزى ١ : ٨

(٢) هو أمر معروف تجده فى كتب المؤرخين وزاد فى العقد الفريد على ذكر حجه ماشيا أنه لمـا مشى إلى مكة ومشت معه زبيدة كانت تبسط الدرانك أمامهما وتطوى خلفهما .

(٣) أبو الفرج والخميس ٢ : ٣٣١

(٤) فوات الوفيات ٢ : ٣٩١

(٥) الأغانى ٦ : ١٣٧ والاتليدى ١٢٦ والإسحاقى ٩١

(٦) العقد الفريد ٣ : ٢٧

فى الدولة[١] والنظر فى ديوان الحسبان والترسيل لصون أسرار الدولة، وحفظ اللسان فى بلاغتهم بعد أن فسد عند الجمهور من أهل الأمصار بعض الفساد[٢] فصار جعفر يسمى بالسلطان إشارة إلى عموم نظره فى عموم الخلافة، لأن الخطط كلها بيده إلا الحجابة لم تكن له لاستنكافه عنها لأن صاحبها يقف بالوفود عند الحدود فى تحياتهم وخطبهم والاداب التى تلزم بين يدى أمير المؤمنين[٣]، وذلك مما يتره نفسه عنه، وهو بالموضع الذى علمت من جلالة القدر والقيام بسياسة الدولة .

ولقد كان يحيى أعزه الله قائماً بأوَدِ الوزارة من قبل، وهو الذى قلد الرشيد الخلافة بحكمته ودرايته[٤] حتى إذا استوثق له الأمر قال له أنت أجلستنى فى هذا المجلس بيمنك وبركتك، وقد قلدتنى الأمر يا أبت، ثم دفع إليه خاتمه وقلده أمر الرعية بأن يحكم بما يرى، ويعزل من يرى، ويستعمل على الولاية من يرى، وفى ذلك يقول إبراهيم الموصلى النديم[٥] :

ألم تر أن الشمس كانت مريضة ... فلما أتى هرون أشرق نورُها

تلبست الدنيا جمالا بملكه ... فهرون واليها ويحيى وزيرها

فكانت سياسة هذا الشيخ المبارك منصرفة إلى تقويم الدولة فى المشرق حبا فى الرشيد أن تعظم فى الإسلام صولته، على حين لا يحرِم أهل البيت قيام ملكهم فيما وراء البحر، مع ما يكون فى ذلك من حقن الدماء الطاهرة، وسلوك السنن الشريفة، فأنتج له حسن نظره أن يطوِّق أمر الجند إلى غير العرب الذين لا يقدرون

---

(١) المقدمة ٢٠٧

(٢) المقدمة ويتضح ذلك من كتب الذين دونوا اللغة فى أيام الرشيد .

(٣) المقدمة ٢٠٧

(٤) ابن الأثير والفخرى والطبرى .

(٥) المسعودى ٢ : ٢٠٧ وابن الأثير ٦ : ٣٩ والأغانى ٥ : ٤١ والمستطرف ٢ : ٩٧ والاتليدى ٩١ والمحاضرة ٢ : ١١٤ والسيوطى وابن خلدون .

بنفوسهم على كبح عنان الثائرين من إخوانهم بما يكون بينهم من القرابة والدالّة ، فلقِى دون بلوغ غرضه من هذا الأمر صعوبة كادت تفضى إلى الفتنة، بما وقع من الضغائن بينه وبين يزيد بن مزيد[١] وغيره من أمراء الجيش، إلا أن الرشيد كان على موافقته[٢] فيما يرى فيه مصلحته، فاذا فتح الناس عليه باب الفرقةِ أرسل إليهم الفضل أو هَرْثَمة بن أعْيَن[٣] لجبرا الوهى فى أقل من طرفة عين .

ثم استقال يحيى من الوزارة بعد أن أدركه الشيب، ففوّضها الرشيد إلى الفضل ثم إلى جعفر[٤] بعده ، وعهد بالمراتب إلى إخوانه وأقاربهم[٥]، وهم بمكان من الفطانة[٦] التى توارثوها مع المجد طِرافا وتلادا ، فقاموا بأودِ الوزارة وجمعوا إليهم مراتب السيف والقلم، يقول سَلْم الخاسر[٧] فى شرف الدولة بمحاسن عقولهم :

إذا ما البرمكىّ غدا ابن عشر　　فهمّتُه أمير أو وزير

إلا أنه كان منتهى نظرهم فى السياسة[٨] إلى جعفر، هذا السلطان، وهو حاضر الرّوية، مؤيد البديهة، جامع لخصال الخير، مؤتمن على الأسرار بارع فى مهمات الأمور ، وليس فى أهل الأدب من هو أذكى[٩] ولا أفطن ولا أعلم بكل شىء ولا أفصح لسانا ولا أبلغ فى مكاتبةٍ منه، خلق جميل، وأصل نبيل، وعلم جزيل،

---

(١) ابن الاثير ٦ : ١٥ يذكر انحراف بنى شيبان عن البرامكة كما مر .

(٢) المقدمة ١٥٩

(٣) راجع كتب المؤرخين .

(٤) و (٥) المقدمة والعقد الفريد .

(٥) ابن خلكان ٢ : ٣٦١

(٦) المحاضرة ٢ : ١١٤

(٧) العقد ٣ : ٢٧

(٨) الوطواط ٢٤٩ وابن خلكان .

(٩) الأغانى ٤ : ٨٥ والحصرى ١ : ٣٧٥ والعقد ١ : ٣٧٢

وكان الرشيد يقدمه على الفضل بما يُسرع فى استنباط الحيلة لتدبير ما يطرأ على المملكة من المهمات الصعاب، كما يقول فيه الشاعر :

وزير إذا ناب الخلافةَ حادثٌ   أشار بما عنه الخلافةُ تصدر

ووجدت فى نفس الرشيد من الميل إليه بحيث إنه لم يكن له صبر على مفارقته فى ساعة من نهار أو ليل[١]، وإذا دخل أجلسه على سرير الخلافة بجانبه وأجلس بنى هاشم على الكراسىّ والوسائد[٢] دونه، وربما قدّمه فى المشورة على أحب أهل بيته إليه، حتى إنه لا يعهد إليهم بولاية ولا يصلهم بمال إلا برأيه ورضاه، وقد وقع لعبد الملك بن صالح من كبراء بنى هاشم[٣] أن الرشيد غضب عليه فقصد باب البرامكة، فقال له جعفر أنت تقصِدنى فهل من حاجة تبلُغها مقدُرتى وتحيط بها نعمتى فأقضيها لك؟ فقال عبد الملك نعم . إن فى قلب أمير المؤمنين على موجِدة أحب أن تخرجها من قلبه وتعيد إليه جميل رأيه فى ، فقال له جعفر قد رضِى عنك أمير المؤمنين ، وزال ما عنده منك ، قال عبد الملك وعلىّ أربعون ألف دينار دينا ، قال هى لك حاضرة من مال أمير المؤمنين لأنى أجل قدرك عن أن يصلك بالمال غيره ، قال وابنى إبراهيم تخاطبه فيه حتى يرفع الألوية على رأسه ، قال لتطب نفسك ، إن الرشيد قد ولاه مصر أو قال ما شئت من البُلدان . فانصرف عبد الملك وهو يتردد بين العجب من جعفر والإعجاب به ، حتى إذا كان الغد دعاه الرشيد وأمر له بأربعين ألف دينار ، وكتب سجل ابنه على مصر[٤] . فهذا أمر يدلك على مكانة جعفر عند الرشيد وما له من المانّة المرعية والشفاعة المقبولة عنده ، بحيث إنه

---

(١) الاتليدى .

(٢) ذكر الوسائد يجلس عليها بنو هاشم بمجلس الخليفة الأغانى ٤ : ٩٢

(٣) هو من القوّاد الذين غزوا الروم وقد عقد الفداء مع نقفور فى اللامس على جانب البحر على اثنى عشر فرسخا من طرسوس واسترجع من أسرى المسلمين ثلاثة آلاف وسبعمائة . ابن الأثير ٦ : ٥٧

(٤) الأغانى ٥ : ١١٩ والفخرى والأبشيهى ٢ : ١٩٢ والعقد الفريد ٣ : ٣٤ والاتليدى ١٦١ وابن خلكان ١ : ١٥٢

يضمن عنه ضمانات لا يجد بدا من وفائها، كما يدلك أن مشاركته فى الملك لا تقف على حدّ السياسة فيما يبديه له من رأى جميل أو تدبير حسن ، وإنما يتناولها فى أكثر الأحيان بما بينهما من الدالّة التى ليس مثلها بين الاخوان[١]، فما أذكر أنى رأيت الرشيد فى مجلس يطيب له نفسا بغير محضره[٢] ، بل كثيرا ما رأيتهما يتبادلان لباس الحلة الواحدة[٣] ، ويجلسان معا . على محبة ومصافاة خُلّان .

وإن كان ليحيى فضل فى تقويم هذه الدولة فان لجعفر فضلا فى تدبير مملكتها أتمّ وأجمل فى عين الرشيد ، وقد أغناه بنفاذ سلطانه فى المشرق عن أن يطمع فى الاستيلاء على بلاد المغرب ، ثم يبيت على خطر الفتنة التى لا يأمن إن حدثت أن تبقى الخلافة فى يده ، فلم يكن بد لصلاح أمره من سلوك السبيل الذى مهده له جعفر لتتم له الفائدة التى رامها أبوه فى تقويم الدولة وبلوغ غرضه منها فى المشرق. فوقفت مصلحة الدولة والاسلام جميعا على أن يتبع الرشيد هذه الخطة التى كان ليحيى فيها الفضل السابق والمقدّم ، ولجعفر من بعده الفضل اللاحق والمتمم .

ولقد شملت عناية جعفر خطط الدولة كلها بين مراتب سيف وقلم . إلا أنه كان إلى تدبير المملكة وتنظيم الدواوين[٤] أشدَّ منه عناية وأقرب ميلا إلى النظر فى مصلحة الجند وهم الفُرسان الذين لم يرلهم مع ما هو مطبوع فيهم من نخوة الجهاد ، التى لا يطيق الأعاجم مناجزتها فيهم ، إلا أن يصرف إليهم أرزاقهم فى إبانها ويرضيهم بسعة العطاء من غير مال الخليفة[٥] بما يقتصد فيه من نفقات الدولة . وأما مآثره فى تدبير المملكة فانها تتناول ضبط الأموال وترتيب

---

(١) الحصرى ٢ : ١٠٢

(٢) الاتليدى ١٦٩

(٣) الأغانى والاتليدى وابن خلكان وابن خلدون .

(٤) إنما دون العرب الدواوين عملا بطريقة الفرس من قبلهم ولفظة الديوان فارسية كما هو معروف .

(٥) د ر المسعودى ١ : ٨٢ أن الخليفة يعطى الجند من بيت ماله .

ديوان الأعمال والجبايات(١) على غير ما رسم ابو عبد الله فى كتابه(٢) على الخراج ، وإنما اقتصد من النفقة قدرا أبقاه للزيادة فى أرزاق الجند . وأقام على السجلات قوما مهرة فى الحساب(٣) ، ليجد الموازنة بين ما يدخل بيت المال وما يخرج منه ، وجعل لهذا الديوان شُعبا ترجع مصالحها إليه ، كديوان الخراج وديوان الضِياع والنفقات(٤) وغير ذلك ، وأحب أن تحفظ دفاتر الخليفة للراجعة (٥) لينظر فيما يُتَصَرَّف فيه بموازنته للدخل الذى دُوِّن فى سجلات الديوان .

ثم توسعت عنايته من الاهتمام بمصالح الدولة إلى النظر فى أمر الرعية والرفق بهم و إدخال الراحة عليهم ، وصح عنده مساواة الناس بالأحكام التى لا تفرق بين المسلم وغير المسلم(٦) إلا فيما هو مأخوذ على أهل الذمة من العهود المحفوظة، وأقام رجالَ العدالة فى جميع البلدان لكتابة العقود على روابط الشرع(٧) ليكون فى ذلك حفظ حقوق الأمة وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم من الكفالة ونحوها(٨) ، وأمرهم بأن يجلسوا فى الدكاكين والمصاطب ليسهل وصول الناس إليهم ، فتجرى معاملاتهم على سَنَن العدل الذى يروم أن يشملوا به نفوسهم كما تشملهم به الدولة فكان (أعزه الله) يقول(٩) الخراج عمود الملك ما استُغْزِر بمثل العدل وما استنزر بمثل الظلم .

---

(١) المقدمة ٢١٢

(٢) ذكر الفخرى هذا الكتاب ٦١٦

(٣) المقدمة .

(٤) الأغانى ٩ : ٢١ و ٢٦

(٥) ذكر الأغانى هذه الدفاتر ١٤ : ١١٤

(٦) الماوردى ٣٩٣

(٧) العقد الفريد ٢ : ٢١١

(٨) المقدمة ١٩٦

(٩) العقد الفريد ١ : ١٣

ثم إنه نظر فى صلاح الزوراء ودس فيها العيون بإمْرة عبد الله بن مالك صاحب الشرطة[١] لملافاة الخلل الذى يطرأ عليها من وفود الأعراب واختلاطهم[٢] ، وأقام العسس[٣] بالليل لحراسة الدروب[٤] إلى أن وقع الأمن فى أحيائها ، وخيم السلام على أرباضها ، وذلك يندر أن يكون فى مدن الأعاجم ومحاشد مللهم ؛ فلقد نمى إلينا عن قاعدة الروم أن المكروه نازل بها كل يوم لامحالة ، مع أنها محتشَد النصرانية ومباءة الملوك الذين حازوا معظم الدنيا فيما سبق لهم من زمن العز والصولة . ونحن لا نريد بذلك أن الروم قوم جهلة لا نظام لملكهم ، مع أنهم حملة العلم المتقلبون فى مهاد العمران على سعة واستقامة من الملك ، غير أن الترف قد غلب على عامتهم حتى لاسبيل إلى ردعهم عن معاقرة الخمر وكبح عنانهم عن ركوب الأهواء[٥] .

ولما وضح للرشيد فضل هذا السلطان فيما أصلح به الملة والدولة جميعا بلغت منه الثقة به إلى أن يطوقه الساطةَ التى تقارن سلطته ويشترك فيها معه ، ففوض إليه القضاء بمجلس المظالم ، وهو القضاء الذى كان يباشره الخلفاء[٦] من الأمويين بنفوسهم ، ثم المهدىّ من بعدهم كما رأيت فى موضعه من الكتاب ، فصار جعفر يجلس[٧] بجانب الرشيد على سريره ويشاركه فى توقيعه على القصص التى يرفعها

---

(١) ذكره الأغانى ١٧ : ٤٦ والمسعودى ٢ : ٢١٢

(٢) ابن خرداذبة ١١٦

(٢) الأغانى ٢ : ١٥٧

(٣) الأغانى ٧ : ١٩ والمستطرف ٢ : ١٨٦

(٤) المقدمة ٤١٩

(٥) وكان هذا من أسباب التوانى فى دولتهم .

(٦) أبو الفداء ٢ : ١١ وابن الأثير ٦ : ٢٩ وأبو الفرج والسيوطى والفخرى ٢١ والماوردى .

(٧) الأغانى ٤ : ١٦٢

الناس إليه ولكن بالعبارة التى يتنافس (١) فى بلاغتها العلماء (٢) . فمن بعض ما حفظت له من هذه التوقيعات التى جرت مجرى الأمثال توقيعُه فى قصة رجل شكاه بعض عماله إليه « قد كثر شاكوك . وقل شاكروك . فإما عدلت وإما اعتزلت » (٣) . وتوقيعه فى قصة قوم قطعوا الطريق « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله » الآية (٤) . ووقع إلى بعض عماله « اجعل وسيلتك إلينا ما يزيدك عندنا » . ووقع فى قصة محبوس « العدل أوقعه والتوبة تُطْلِقه » (٥). ووقع فى قصة متظلم « طب نفسا فكفى بالله للمظلوم ناصرا » ووقع لرجل اعتذر عنده من ذنب « قد قدمت طاعتك وظهرت نصيحتك ولا تغلب سيئة حسنتين » ووقع وقد قرأ كتابا فاستحسن خطه « الخط خيط الحكمة ينظم فيه منثورها . ويُفصّل فيها شذورها » ووقع فى قصة متنصح « بعض الصدق قبيح » ووقع فى قصة رجل تظلم من بعض عماله « أنا لمثله حتى ينصفك » (٦) ووقع فى قصة قوم شكوا سوء جِوار بعض قرابتهم « يرحل عنكم » ووقع إلى بعض عماله « أنصف من وليت أمره وإلا أنصفه منك من ولِى أمرك » (٧) ووقع فى قصة رجل استأذنه فى الحج « من سافر إلى الله نجح » إلى غير ذلك من التوقيعات التى يتداولها الأدباء (٨) إلى أن تبلغ القصة الموقع عليها عشرين درهما ثمنا (٩) فى أيدى

---

(١) الكنز ٩٤

(٢) ابن خلكان ١ : ١٤٧ والمقدمة ٢٠٧

(٣) ابن خلكان ١ : ١٤٧

(٤) العقد الفريد ٢ : ٢٣٣

(٥) العقد الفريد ٢ : ٢٣٢

(٦) العقد الفريد ٢٣٣

(٧) الوطواط ٣٥

(٨) السيوطى ٠

(٩) المقدمة ٢٥

الناس . وهذا ما أكتفى بذكره من مآثر هذا السلطان الذى ليس له ند فى الرجال ، وقد فضَل الملوك قاطبة بالعلم والعقل والسياسة [١] ، وزاد الرشيد عزة ومنعة على نحو لم نره قدما فى دول الخلفاء فتولى الله مكافأته عن المسلمين والإسلام بما هو واسع له من الجميل ، وجعل المجد لائذا بجنابه والسعادة حافّة ببابه . آمين.

صلاح التجارة والمعاملة

أخرج بك قليلا عن موضوع السياسة إلى بيان المعاملة الرائجة بين الناس بقدر ما يسمح لى المقام ، فإنه لما توفرت فى أيديهم الأموال بما كسبوا من الفتوح العظام ، وقد نزلوا الأمصار التى كانت مستودَع الدَعة عندنا ومستقر ملاذِّ الروم فيما مضى لنا ولهم من ذلك الملك الغابر ، فتحولت طباعهم من الخشونة إلى نعومة العيش ، وأخذوا يتأثّلون الكسبَ ويطلبون حاجاتِ الترف من جميع البلدان بما تيسّر لهم من أسباب الاتصال فى زمن الخلفاء ، فما أتم الرشيد العناية بتأمين السبل لقوافلهم وتمهيدها لسفر تجارهم ، حتى حملوا تجارة الدنيا إلى العراق ، فحملوا من الهند آنيتها ومن أصبَهان وشيراز ويَزْد شرابها [٢] ومن خُراسان حديدها ومن كَرْمان رَصاصها ومن قشمير النسيج الملون ، ومن الصين الكَمْكام والعود والمسك والسنور والسروج والغضائر والدارصيني والخَوْلَنْجان ، ومن اليمن العطر [٣] وأنواع الطيب ، ومن فارس السلاح والمصوغات ، ومن عَيْذاب اللآلئ [٤] ، ومن الوقواق الذهب والآبنوس ، ومن الهند والسند القُسْط والقنا والخيزُران والكافور والعود والجوزبوَى والقَرَنْفُل والفاغره والكَبَابة والنارجيل [٥] والثياب القطنية

---

(١) إعلام الناس وابن خلكان ٢ : ٢٦١

(٢) العقد الفريد ٢ : ٣٤٤

(٣) القزوينى ٢٠٩

(٤) المسعودى ١ : ٣٩

(٥) ابن خرداذبة ٦٨

والمُخمَلة والفيلة، ومن سرنديب ألوان اليواقيت وأشباهها والماس والدر والسُنْباذَج الذى يعالج به الجوهر[١]، ومن ناحية الجنوب البقَّم الدارى، ومن البحر الغرب المَرجان ويكون بأرض الفَرَنجة ، ومن الروم المُصْطَكا والغلمان والرقيق [٢] ، ومن الشام الفاكهة والسلاح والحديد الذى يقلع من جبل لبنان . ومن الروسيا جلود الخُزَر والثعالب يأتى بها الروس إلى بغداد عن طريق سورية أو عن طريق جرجان [٣] ثم تحمل إلى أصبهان والجزيرة وآمد ونصيبين [٤] ويتجر بها .

هذه هى تجارة الشرق [٥] قد حملت إلى العراق، وأما تجارة الغرب فقد تعذر نقلها لبعد المسافة وترامى الشقة، ولذلك كان يرى الرشيد فتح البحر عند السويس[٦] حتى يقترب المجال من المغرب إلى عمان فسيراف ففارس فأطراف العراق، ولا سيما أن على البحر الرومى سواحل إفريقية وتونس ومصر وطرابلس والأندلس إلى الغرب والجنوب وسواحل صقلية والفرنجة إلى الشمال، وسواحل الروم والشام إلى الشرق، وإنها لبلدان كثيرة الخيرات ، وافرة الغلات . فكان الرشيد يروم أن يحمل تجارتها إلى بغداد على مراكب البحر من طريق السويس ، ولكن جعفرا (أعزه الله) قد ثناه عن هذا الأمر وخوّفه أن تصل سرايا الروم وسائر الفرنجة إلى جدة ، فيخربون المواطن المشرَّفة [٧] ، على حين لا يتوقع لقدومهم أثر ، فقال جعفر « يا أمير المؤمنين إن خرق السويس خرق فى الإسلام ولو أنك وجدته مخروقا بأيدى

---

(١) الأغانى ٥ : ٢٤

(٢) ابن خرداذبة ٨١

(٣) ابن خرداذبة ١١٦

(٤) ابن الأثير ٥ : ١٠١

(٥) الأغانى ٥ : ٢٤ وابن الأثير ٥ : ٢٢٥ والقزوينى ٩ - ٢

(٦) المسعودى ١ : ٢٩٩ والمقريزى فى الخطط والسيوطى والمقدمه ٢١

(٧) السيوطى والمسعودى .

الملوك الذين سبقوا الخلفاء لوجب عليك اليوم سده لأن مصالح التجارة لا تقضى على الإسلام بتضييع الفتوح التى دانت له ببذل الدماء » وهذا رأى لا يبدو إلا لمن رُكب فيه إسجاح الخليقة ومعدَلة النظر ، فإن العلماء كلهم قد ضلوا عن إدراك ذلك ، وإنما خوفوا الرشيد علوّ البحر الرومى على بحر القُلْزم ، وأنه إذا ريم خرق ما بينهما طمى البحر على أرض مصر وأغرق عَيْذاب والنوبة وسواحل اليمن والحجاز ، ولكن قولهم بعيد عن الصحة ، لما يعلم عن بحر الظلمات إلى ما وراء الأندلس أنه لم يطم ماؤه على سواحل البحر الرومى مع كونه يعلوه من حيث الإقليم ، فما يثبت عند العاقل إلا أن سطح البحور متساو فى الشمال والجنوب ، ولم يسمع ببحر أخفض من غيره إلا بحر اوط فى أرض الأردُن من إقليم فِلَسْطين ، ولكنه ليس بالبحر الواسع ولا بالأوقْيانوس المحيط ، وإنما هو مياه تصب فى متحدَّر من الأرض .

ولما اتسع نطاق التجارة فى بغداد أصبحت مورِدا لأهل الإعواز من البلاد كافة يتناولون فيها حاجتهم من المال ، فوقع غش فاحش فى التجارة وصارت الصيارف من اليهود[١] وغيرهم[٢] يعطون مالهم بالربا على أن يعاد عليهم المثل فى آخر العام مثلين[٣] وأكثر منهما ، فأقام الرشيد محتِسبا يطوف بالأسواق ويفحص عن الأوزان والمكاييل وينظر فى معاملات التجار[٤] أن تكون جارية على سَنَن العدل ، حتى لا يتحامل الشرفاء على الوضعاء ولا الأغنياء على الفقراء ، إذ الواجب على الملوك أن يمهدوا سبيل الارتزاق لأهل الحاجة أكثر منه للتمولين المنسلخين للتجارة الذين نراهم يتعرضون لشراء السلع والتجارات بما يفرضون لها من الثمن البخس ثم يبيعونها بما يشاءون من الغلاء ، فإن ذلك احتكار يفضى إلى فساد العمران كما مر

---

(١) الأغانى ٣ : ٨٥

(٢) الأغانى ٣ : ٨٣ و ٥ : ١٦١

(٣) كليات ٩٩ والأغانى ٢ : ١٥٤

(٤) الأغانى ١٧ : ١٠٨

فى موضعه من الكتاب . وقد أخبرنى الرشيد فى بعض مجالسى إليه أنه يروم أن يصلح معاملة التجار ويغير تقدير الدنانير والدراهم على وزن واحد صحيح [1] ، ولكنه لم يباشر ذلك إلى هذا اليوم ، مع أنه أصلح ما يكون للعمران ، وإن كان ضرب السكة فى الإسلام قد حدث عن نكاية وقعت ضغائنها بين عبد الملك ابن مروان وقيصر الروم كما هو معروف[2] فقد أصبح اليوم من الضرورة أن تقدّر أوزانها بعد ما ساءت المعاملة فى تأدية الخراج والبيع والشراء . وقد كان العرب يتعاملون قدما بالذهب والفضة وزنا[3] ، وبين أيديهم دنانير الفرس والروم التى يقال لها الكسروية والقيصرية ، فلما ذهبت سذاجة الإسلام وصارت الخلافة إلى ملوك أمية ، وقد أغفلوا أمر المعاملة بما تشاغلوا به من أمور نفوسهم ، تفاحش الغش فى التجارة وصارت تنسب إلى الروم سكة ليست من ضربهم ولا من ضرب الفرس فيما ابتدع الناس من دنانير كسرى وقيصر ، فعنى عبد الملك بتمييز المغشوش من الدنانير والدراهم ، فضرب السكة فى دِمَشْق [4] وصرفها فى جميع النواحى والأمصار ، ولكن من غير أن يقدِّر أوزانها ، فبقى منها الخفيف [5] والثقيل وما هو بين بين ، ولذلك لم تسهل المعاملة بها بين التجار ، حتى إذا تنبه لما فاته من تقديرها على وزن واحد وأحب أن يميز القديم منها عمد إلى تعيين السنة على السكة المقدرة بعد أن كان يضربها خِلوا من التوقيت إلا «بركة الله» فى أحد الوجهين واسمه فى الوجه الآخر . وهذا كان منشأ الخلاف فى أول من ضرب السكة التى ليس فيها توقيت ، فيقول بعض الناس إنها من ضرب عمر بن الخطاب [6]

---

(1) المحاضرة ٢ : ١٧٤

(2) الاتليدى ٢٧٤

(3) المقدمة ٢٢٧

(4) ابن الأثير ٤ : ١٧٤

(5) ذكر الدراهم الخفيفة الأغانى ٤ ١٠٤

(6) المقريزى .

ويقول غيرهم إنها لمُصْعب بن الزبير[١] ، ويقول بعض إنها لمعاوية بن أبي سفيان ، ويزعمون أنه صوّر نفسه عليها متقلدا سيفا[٢] كأنه فاتهم علم موضِعه من الخلافة وحرصه على متابعة الملة والشرع ، إلا أن ما يذهبون إليه من هذه الأقاويل ليس يجمع على رأى منه . ولم يقع إلىّ من الدنانير الموقوتة إلا ما ضرب هذا الخليفة المقدم ذكره فى السنة السابعة والسبعين من الهجرة النبوية المشرفة ، وعليه جرى الخلفاء بعده فى ضرب السكة ، بأن يرسموا فيها « بركة الله » من وجه[٣] ، وعلى دائره « محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » واسمهم من الوجه الآخر يحوّطونه بتعيين السنة وذكرِ البلد الذى يضربون فيه السكة .

وأما الأوزان المقدرة فإن المسلمين كانوا يتعاملون بالدرهم الطَبَرى وهو أربعة دوانق ، والدرهم المغربى وهو ثمانية ، والدرهم اليمنى وهو ستة والدرهم البغلى «وهو الذى يقال إنه ضرب فى خلافة عمر رضى الله عنه على وزن الدراهم الكسروية» وهو ثمانية دوانق ، فأمر الحجاج أن ينظر الأغلب فى المعاملة فكان البغلى والطبرى وهما اثنا عشر دانقا ، فاتخذ ما بينهما لضرب السكة وقدر الدرهم ستة دوانق . واما وزن مثقال الذهب فهو درهم وثلاثة أسباع درهم ، حتى إذا جمع عشرة دراهم كان وزنها سبعة مثاقيل[٤] والناس يتعاملون بالسكة لزماننا هذا على تقدير الحجاج إلا أن ما فى أيديهم منها مختلف الأشكال ، فلا تتناول الدولة منهم فى الخراج إلا الدنانير العباسية والدنانير المسماة بالخالدية[٥] واليوسفية والهُبَيرية ، وهى أجود النقود التى ضربها بنو أمية[٦] على يد عمالهم فى العراق مثل أبى هبيرة ويوسف بن عمر وغيرهما ، ولذلك رأى الرشيد أن يقدرها على وزن واحد صحيح حتى لا يبق للغش فى التجارة مجال ، ولا يحصل عنف فى جباية المال .

(١) ابن خلدون ٣ : ٤٥ والماوردى ٢٦٩
(٢) الاتليدى نقلا عن الدميرى .
(٣) الأنس الجليل ١ : ٢٤٠ والمحاضرة ٢ : ١٧٤ والاتليدى ٢٧٤
(٤) المقدمة ٢٢٧
(٥) الماوردى ٢٦٩
(٦) ابن خلدون ٣ : ٤٥

زينة الدولة بالعلم والأدب

هذا إلماعٌ بذكر محاسن دولة الرشيد وإنها لدولةُ خيرٍ وصلاح كما علمت ، فما حدّث أهل الأخبار أن الإسلام كان فى أية دولة أعزّ جانبا ولا أوسعَ رُقعة مملكة[١] منه فى خلافة الرشيد . ولعمرى إنّ الملوكَ الذين يتعهدُهم النصر مثله فى جميع ما يباشرون من الأعمال قليل فى العالم ، فما رأيته والبرامكةُ أعوان له قد نُكِب فى حرب قط ، ولا توجهت عليه هزيمة ، وإنما أعزّ الإسلامَ باجتماعه فى المشرق كله إليه ، ورمى ملوكَ الأعاجم بسهامِ بأسه حتى عصفت ريحُهُ بهم من الرومِ وسائرِ الفرنجة ، وهذا شرفٌ للسيف لم ينله المسلمونَ فيما تقدمَ لهم من الدول السالفة مقرونا بفضائل العلم وجمالِ الحضارة ، وكفى بشرفِ دولته أنه اجتمعَ ببابه من الوزراء[٢] والأمراء والقواد والعلماء والفقهاء والأدباء والخطباء والمحدثين والقراء والرواة والشعراء والندماء والمغنين ما لم يجتمع على باب خليفةٍ غيره مثلُه ، فإن البرامكةَ أعوان دولته ، وأبا يوسف قاضيه ، وهَرْثَمة بن أعين أمير جنده ، والعباس بن محمد عم أبيه جليسه[٣] ، ومروان بن أبى حفصة شاعره ، والأصمعِى محدثه ، وأبا نواسٍ نديمه ، والفضل من آل الربيع حاجبه ، وإبراهيم الموصلى وإسحاق ابنه مغنياه ، وابن بختيشوع جبريل[٤] وبنى ماسويهِ أطباؤه[٥] ، والعلماءَ والأدباء كلُّهم قيامٌ على بابه لا يفارقونه فى حضر ولا فى سفر ، حتى إنه ليطلب شاعره فى أطراف الليل[٦] فيجده ببابه مع غيره من محدث أو نديم .

---

(١) الفخرى ٢٣٣

(٢) ابن الأثير والفخرى ٢٣٣ والخميس ٢ : ٢٣٢ والماوردى ٣٣

(٣) الخميس ٢ : ٢٣٢

(٤) الفخرى والمسعودى ٢ : ٢١١ وابن الأثير ٦ : ٧٥ والمقدمة ١٦

(٥) أبو الفرج .

(٦) الأغانى والاتليدى .

وإنما قرّبَ العلماءَ إلى الرشيد ما بنفسه من الميل إلى الأدب [١] والحرص على إحراز العلوم [٢] ، حتى كانوا إذا اجتمعوا بداره سمـا إلى مناظرتهم [٣] من حيث العلمِ والتواضع له ، لا من حيث السيادة عليهم ، وهو بموضعه الجليل من الخلافة ، وأنا لا أريد بذلك أن التواضع طبيعة فى نفسه ، لأنه لو لم يأته الكبرُ من ناحية العلم لأتاهَ من ناحية السلطان ، وكلاهمـا داع إلى الإعجاب بالنفس ، فكثيرا ما كنت أراه إذا انتصب فى عرشه يحتمل أن يمدح بما يمدح به الأنبياء ، وهو لا ينكر ذلك ولا يردّه [٤] ، غير أنه ربمـا كان يبتغى بتواضعه للعلم مع ما هو مطبوع فى نفسه من الإجلال له أن تحصل له الغاية التى يرومها من صلاح أمره باستمالة الأئمة من أهل العلم ، حتى يستقيم ملكه من ناحية القلم كاستقامته له من ناحية السيف .

أما أدبَه وفضله وصحة ما عنده من النظر فى تخير ما يروق لديه من العلوم فهو الأمر الذى تقدّم الإلمـاع إليه فيما مضى من الكتّاب ، ورأيته يتوسع فى أدب اللغة إلى أن يقول الشعر فيما يعرض له من تصورات أهل الغرام ، فإذا دخلتُ عليه عرضه علىّ فى سبيل الفكاهة فمن ذلك قوله فى جارية [٥] تركية له :

يـا ربّةَ المـنزل بالفـرْك ... وربّةَ السلطان والمـلك
ترفّـقى بـالله فى قتلنـا ... لسنـا من الديلم والـترك

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٨ والفخرى ٢٣٠ والإسحاق ٩٠ والدميرى ١ : ٩٥

(٢) الشرقاوى ٢٢٢

(٣) القزوينى ١٠٦

(٤) السيوطى والأغانى ٩ : ٨٦

(٥) الأغانى ١٢ : ١٨

وقولِه فى قَيْنة له (١) :

تبدى صـدودا وتخفى تحتـه مِقَةً فالنفس راضية والطَرفُ غضبان

يا من وضعتُ له خدّى فذلّلـه وليس فوق سوى الرحمٰن سلطان

وقوله (٢) فى رثاء جارية رومية يقال لهـا هيلانة وقد عراه على فقدها من الحزن ما ضاق له الصدر ، وفرغ دونه الصبر :

قاسـيت أوجاعا وأحزانـا لمـا استخص الموت هيـلانا

فارقت عيشى حين فارقتها فمـا أبالى كـيفما كانا

قـد كثر النـاس ولكننى لست أرى بعـدك إنسـانا

والله لا أنسـاك ما حركـت ريحٌ بأعلى نجـد أغصـانـا

إلى غير ذلك ، وكان من الفضل بحيث إنّ مآدبه لم تخل قط من عالم أو أديب أو شاعر. وكان يستدعى إليه العمرى والفضل بن عِياض (٣) وابن السماك الكوفى (٤) وإسحق الفزارى وغيرهم من الأوليـاء فيحاورهم فى مسائل الدين (٥) ويبكى (٦) من مواعظهم ، ويقوم بواجب الاحترام لعلمهم ، حتى إذا جلس معاوية المحدّث الضرير إلى طعامه قام من موضعه وصب المـاء على يده تعظيما لقدر العلماء ، فقال له معاوية يا أمير المؤمنين إن تواضعك فى شرفك لأشرف من شرفك (٧) .

---

(١) العقد الفريد ٣ : ٢٥٧

(٢) السيوطى .

(٣) المقدمة ١٥ والمستطرف ١ : ١٠١ والخميس ٢ : ٢٣١ والإسحاق ٩٠ والسيوطى .

(٤) العقد الفريد .

(٥) سراج الملوك ٣٠

(٦) ابن الأثير ٦ : ٧٨ والطرطوشى ٣٨

(٧) الفخرى ٢٣١ والسيوطى .

أما زينــة الدولة من الأدباء فثلاثة إسحق بن إبراهيم النديم وعبد الله الأصمعي والحسن بن هانىء المعروف بأبي نواس ، وكلهم إمام فى العـلم ، إلا أنه غلب على إسحق الغناء ، وعلى أبي نواس الشعر ، وعلى الأصمعي الأخبار والنوادر والملح .

فأما إسحق فإنه بالمكان الرفيع من الأدب (١) ، وقد اتخذ خزانة كتب جمع فيها من مدونات العلم ما ليس عند الذين يُعْنون بجمع صنف واحد من صنوفه مثلُه ، ولقد رأيت عنــده من كتب اللغة مثلا ما ليس مثله فى خزانة ابن الأعرابي (٢) ، وله مقام سام بين العلماء حتى إنهم ليهدون إليه كثيرا من تآليفهم ودواوينهم كأبي نواس وابن أبي عيينــة (٣) وابن الأعرابي (٤) وغيرهم تنشيطا لعلمه وأدبه ، لأن انصبابه على الغناء لم يكن حرفة للتعيش ، وإنما هو ميل بنفسه إلى محاسن الأدب والصناعة ، فكان يترفع عن أن يغنى إلا فى دور الرشيد والبرامكة وكانوا إذا حضر مجالسهم يؤثرون محاورته فى العلم على جلوسه إليهم فى صفوف المغنين (٥) .

ولقد كنت أسمع الرشيـد يقول لو لم يشتهر إسحق بلقب المغنى لوليته القضاء بين المسلمين (٦) ، ووجدت فى نفسه من جميل الميل إليــه ما كان يحمله على أن يقصد داره (٧) على سبيل التحبب ، ولقد كنت يوما بداره وهى بباب الشماسيَّة (٨) من الجانب الشرقى تلقاء قُطْرُبُلُ (٩) ، فجاء الخليفة على حمار صغير أسود وهو الحمار

(١) الأغانى والحصرى ٢ : ٢٠٦

(٢) ذكر ابن خلكان ١ : ٩٣ أنه كان عند ابن الأعرابي خزانة جمع فيها كتب اللغة .

(٣) الأغانى ١٨ : ١٢

(٤) الأغانى ٥ : ٥٥

(٥) الأغانى ٥ : ٦٠

(٦) ابن خلكان ٩ : ٩١ وكتاب الأغانى .

(٧) الاتليدى ٢٨٦ والأغانى .

(٨) الأغانى ٥ : ٧

(٩) ذكره المسعودى ٢ : ٣٨٥ و ٣٩٧

الذى يركبه (١) فى ساحات القصر وجنــاته للنزهة ، ومعه خمسمائة نفر من خدمه وغلمانه وندمائه (٢) ، فقــام إسحق بالواجب من إكرام وفادته (٣) ، وأخرج الحلوى إلى خدمه بمــا كفى الجمع كله ، ثم أشار إلى جواريه أن يجلسن للغناء ، فقال الرشيد لست أريد هذا وإنما شوق فى النفس دعانى إلى الأنس بقربك .

وأما الأصمعى فإنه قدم بغداد (٤) فى خلافة الرشيد فى جملة من وفد عليه من العلماء . وهو إمام فى النوادر (٥) والأخبار وأيام النــاس مشهود له بصــدق الرواية ، ولقد حدّث الرشيد يوما عن ملوك بنى أمية فقــال إن سليمان كان نهما إذ قدّم إليــه السماط لا يصبر حتى يبرد بل يتناول اللحم بكمه ، وإن يزيد كان إذا جلس للشراب يسقط الخمر فى ثيابه فصاح به الرشيد قاتلك الله ما أصدقك فى نقل الأخبار ! واللهِ إن ثيابهما عندى وإن الدهن لفى أكمام سليمان والخمر فى ثياب يزيد (٦) ، على أنه لم يكن بينى وبينه مع طول المدّة التى أقمتها فى بغداد قرب ولا ائتلاف لانقطاعه عن مجالس البرامكة ، وإنمــا كنت ألقاه بدار الرشيد وأسمع ما يحكيه عن طرائف بغداد ، فأراه لا يغفُــل عن نادرة مليحة إلا يذكرها له ، ولكن بالألفاظ التى تأخذ بمجامع القلوب ، وكنت يوما بين يديه وقد بدر من رجل ظريفة فالتفت إليه الرشيد وقال له حررها يا أصمعى (٧) . وقـــد أخبرنى بعض أصحابه أنه أقام فى صباه بالبــادية أياما طِوالا يستطلع فيهــا عادات العــرب ويستكشف أخبارهم ويستنطق آثارهم ، وقد شاهد ما يقيمونـــ من المجالس

(١) الأغانى ٥ : ٣٠ و ٤٦

(٢) ذكر ياقوت ٤ : ١١٨ أن الخليفة كان يركب فى كذا وكذا رجالا وخدما .

(٣) واتخذ الفرش من الخز المظهر بالسنجاب كذا فى العقد الفريد ٣ : ٢٤٠ وهذا نص كلامه "فدخلنا دار إبراهيم الموصلى فاذا هى لا أشرف منها ولا أوسع واذا بفرشها خز مظهر بالسنجاب" .

(٤) ابن خلكان ١ : ٤٠٨

(٥) الشريشى ٢ : ٢٧٩

(٦) المسعودى ٢ : ٦٢٨ وابن خلكان ١ : ٤١٠ وتزيين الأسواق ١ : ١٤٣

(٧) المسعودى ٢ : ٢١١ والأتليدى ٩٦ والعقد الفريد .

والأسواق ، وما ركب الله فيهم من السجايا والأخلاق ، وما وقع لبنـاتهم مع الشعراء ، فلما أقام ببغداد أخذ يحدث بكثير من أخبارهم ثم اشتهر اسمه بين الناس بما هو آخذ بكلامه من الرشاقة والبلاغة حتى صار عَلَمًا فى المدينـة ، وصار يتفق له فيها من النوادر ما لم يسمع أحد بأعجب منه .

وأما أبو نواس فإن الشعر هو الذى يقدّمه اليوم عند الرشيد ، وقد [١] كان أبو نواس يحـدّثه من قبل بنوادر النـاس ولكن من غير أن يفـكهَ بأعراضهم ، ثم أعرض عن ذلك ، فقال له ذات يوم حدثنا يا أبا نواس فقال لا يحضُرنى شىء ، فقال بحياتى[٢] إلا ما قلت شيئا، قال كان الكذب عملى واليوم هجرته يا أمير المؤمنين [٣] ، فضحك وقال هذا أحب إلى من الحديث ، وله كلام ظريف فى المجون والخلاعة[٤] وحوادث تدل على خفة روحه. وكان إسحق يتعصب له[٥] ويُشيد بذكره ويجهَر بتفضيله ويجلِب له الرفد من الرشيد ويحط من قـدر الأصمعى لتنافس بينهما[٦] حتى أخذ المقام الأول بين الندماء وبنى لنفسه الدور[٧]

---

(١) وربما حفظ له شيئا من أبياته يتمثل بها فى مجالسته الأدباء فلقد سمعته مرة يقول لو قيل للدنيا صفى لنا نفسك وكانت ممن ينطق ما وصفت نفسها بأكثر من قول أبى نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيت تكشفت له عن عدو فى ثياب صـديق
وما النـاس إلا هالك وابن هالك وذو نسب فى الهـالكين عريق

العقد الفريد ١ : ٣٦٩

(٢) كلمة يقولها الخليفة عند التحبب الأغانى ٦ : ٧٥

(٣) المستطرف ٢ : ١٠

(٤) الكنز ٩٤

(٥) الأغانى ٥ : ١٠٧

(٦) الشريشى ٢ : ٢٧٤

(٧) ابن خلكان ١ : ٢٩٥ والأغانى ٣ : ١٦١

التى لم يبنِ مثلها عظماء الناس ، بينما الأصمعى يستقرض من أصحابه [١] حاجته من المـال .

ومن خِلال أبى نواس المـأثورة أنه يميل مع أهـل البيت سرا لا يجسر على المجاهرة بهِ ، وقد قيل له فى إعراضه عن مدحهم لقد ذكرت كل معنى فى شعرك وهـذا على بن موسى الرضا فى عصرك لم تقل فيه شيئا ، فقال والله ما تركت ذلك إلا إعظاما له وليس فى قدرة مثلى أن يقول فى مثله وأنشد[٢] :

أنا لا أستطيع مدح إمام كان جبريل خادما لأبيه

وقد وقع تدوين هذه الرسالة فى السنة الحـادية والثمانين بعد المـائة من هجرة النبى صلى الله عليه وسلم لثلاث خلون من شوّال والناس يتجهزون للخروج إلى الحج الشريف أرانا الله بركته بمنه وكرمه .

---

(١) المستطرف ١ : ١٢٣ وذكر المسعودى ٢ : ٢٢٣ أنه رؤى فى دار الأصمعى خباء مكسور وعليه دراعة خلقة ومقعد وسخ وكل شىء عنده رث .

(٢) ابن خلكان ١ : ٤٥٧

الرسالة السادسة

بيت الرشيد

لقد مضى علىّ فى بغداد بعد العودة من خراسان نحو ست سنين ما زلت منقطعا فيها إلى البرامكة حافظا لمقامى فى الدولة تحت ظلهم وعنايتهم ، وكنت أتردد فى خدمتهم إلى دور الرشيد وهو يأنس بى فى خلواته إلى أن صرت منه بالمنزلة التى لا يطمح إليها غيرى من المقربين إليه، وكنت أقف على أمور بيته وأولاده، فرأيته (أكرمه الله) صالح السريرة شديد الإغراق فى الدين محافظا على أداء الصلاة فى أوقاتها وشهود الصبح لأول وقتها ، يصلى فى كل يوم وليلة مائة ركعة لا يتركها إلا لعلة [١] ، وأذكر أنه لما حصل فى أحد الأعوام لَزْنة وغلاء سعر للناس واشتد عليهم الكرب اشتدادا عظيما أمرهم بكسر الملاهى وكثرة الدعاء والتوبة [٢] ، وذلك دليل على موقع العبادة عنده ، ومظهر يروم منه تأييد الدولة بإجلال الدين حتى يكون الإسلام مغتبطا بمناحيه .

وإن كنت رأيت له فى تدبير المملكة ذلك التصرف الجميل فإنى ما وجدته له فى تدبير أهل بيته ومواليه ، وإنما يرجع الرأى فى ذلك إلى زوجه أم جعفر ، وهى أنفذ نساء العباسيين كلمة فى الدولة ، وقد ربيت فى مِهاد الدَّعة والدلال كما يشير إليه اسمها ، فإنما سماها أبو جعفر جدها بزبيدة لغضاضة بدنها ، وقد كان يرقصها تهللا بها وإعجابا بملاحتها ، فسماها بزبيدة لذلك [٣] فلما بنى بها الرشيد ووجدها طرفة حديث ومصدر رأى جميل لم ير بدا من الانقياد إليها فى قضاء ما ترومه من

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٧ والفخرى ٢٣٠ والمقدمة ١٥

(٢) المستطرف ١ : ٨٢

(٣) الاغانى ٩ : ١٠٢ والشريشى ٢ : ٢٤٥ والحصرى ٣ : ٢٣٦

الحاجات [١] ومن ذلك أنه مكنها من بيوت المـال فأنفقت من سـعة ما يُنَيِّف على ثلاثين ألف ألف دينار، فبنت مسجدا مباركا على ضفة دِجلة بقُربة من دور الخلافة يسمى بمسجد زبيدة ، ومسجدا سامِي الحسن فى قطيعتها المعروفة بقطيعة أم جعفر [٢] بين باب خراسان وشارع دار الرقيق [٣] ، وحفرت بالحجاز العين المعروفة بعين المُشاش [٤] ، ومهدت الطريق لمـائها فى كل خفض ورفع وسهل ووعر حتى أخرجتها من مسـافة اثنى عشر ميلا إلى مكة ، فبلغ ما أنفقته عليهـا ألف ألف دِينار، وهذا من الأعمال التى لم تباشرها امرأة فى الإسلام إلا الخيزُران أم الرشيد فإنها عَمَرت كثيرا من المسـاجد [٥] أيضا وبنت بمكة دار ابن يوسف التى ولد فيها النبى صلى الله عليه وسـلم مسجدا [٦] جزيل البركة ، وتوافرت عندها الأموال حتى بلغ الذى خلفته مع ما توسعت فيه من النفقة مائة ألف ألف درهم [٧] فان لم يكن عند زبيدة من المـال ما يبلغ هـذا القدر الجسيم فإن لها فى السياسة رأيا تسمو به إلى التدخل فى أمور الدولة كأفطن من يكون من الرجال .

وقد صير الرشيد أمر بيته بعد زبيدة إلى مسرور خادمه العبد ، وهو حاجبه وسيد مواليه [٨] . وله فى قصور الخلافة دواوين تقيم فيها حوزته من خدم وحرس وغلمان ، والكاتب له زياد بن أبى الخطاب [٩] يقيم بقُربة من مجلس يوسـف

---

(١) فى المسعودى أنها كانت من الرشيد بالمنزلة التى لا يتقدمها أحد من نظرائها ٢ : ٢٢٧

(٢) ياقوت ٤ : ٤٢١

(٣) ابن خلكان ١ : ١٨٩ والمستطرف ١ : ٢٨٩

(٤) المسعودى ٢ : ٤٠٢ وابن جبير ١٧٣ والشريشى ٢ : ٢٤٥

(٥) ابن جبير ٢٧٦

(٦) المسعودى ١ : ٣٠٦

(٧) المسعودى ٢ : ٢٠٧

(٨) ابن خلدون ٣ : ٢٢٣

(٩) الأغانى ٤ : ٩٩

ابن القاسم صاحب ديوان الإنشاء[١] ومن قام بين يدى الرشيد حين أخذت له البيعة ، وفى ذلك دليل على مكان كُتّابه من الشرف وعلو المرتبة . ولا غرو فإن له من نفوذ الكلمة ما ليس للأمراء والحكام مثلُه ، إذ كان سيد دور الخلافة والحارس لها لا يدخلها شيء ولا يخرج منها إلا بإذنه ورضاه ، وكثيرا ما رأيت الملوك يتزلفون بالهدايا إليه ليخاطب الرشيد فى حاجاتهم ، إذ ليس فى أهل بيته من يتجرأ عليه سواه [٢] حتى كان إذا ركب الخليفة لا يجسر أحد على سؤاله إلى أين يذهب غيرُه [٣] .

وإلى مسرور الأمر فيما يختص بالسرارى والقيان وإنهن لكثير فى دار الرشيد يبلغن زهاء ألفى جارية [٤] يرفلن فى أحسن زى من كل نوع من أنواع الجواهر والوشى المذهب ، غير أن المقدم عليهن جميعا ثلاث أهداهن إليه الفضل بن الربيع : سِحر . وضياء . وخَنَث ذات الخال .

أما حريم الخلافة فإنه دوائر كبيرة لا اتصال لبعضها ببعض ولكل هاشمية من بنات الخلفاء دائرة منفردة عما سواها من الدوائر ، وأعظمها دائرة أم جعفر ، لها قصر السلام كله ، وهو أظرف القصور وأبهجها زينة وأجملها فى العيون والقلوب موقعا يقول فيه إبراهيم النديم [٥] :

سُقِيت الغيثَ يا قصر السلام ... فنعم مَحَلّةَ الملك الهمام

لقد نشر الإله عليك نورا ... وخصك بالسلامة والسلام

---

(١) المحاضرة ٢ : ١٣٢

(٢) الاتليدى ٢٨٦

(٣) الأغانى ٩ : ٩١

(٤) الأغانى ٩ : ٨٨

(٥) الأغانى ٥ : ٨١

ثم دائرة أولاد المهدى ، ثم دائرة أولاد الهادى ، ثم دائرة أولاد الرشيد من غير زبيدة زوجه . ولهن جميعا من الخدم والغلمان ما ينتهى إليه إسراف الملوك فى السعة ويتجلى به جمال السلطان بالبهاء والإشراق . ولقد رأيت الجوارى من خدم الهاشميات يتقلبن فى أطيب العيش والنعيم ويتخذن العصائب مكاللة بالجوهر اقتداء بعُلّية أخت الرشيد إذ كانت أول من اتخذ العصابة لعيب فى جبينها فسترته بها فكان ذلك أحسن ما ابتدعه النساء [1] .

أما لباس الرشيد فهو لباس غيره من العباسيين السواد لا يتأنق فيه إلا بما تقتضيه الرسوم المحفوظة ، وإنما ينصرف همه إلى لذة المطعم بالتأنق فى صنوف الألوان ، وقد جلست إلى طعامه [2] أكثر من مرة فى مجلس كامل الزينة قد فرشه بالرخام الأخضر ولبس حيطانه بالوشى المنسوج بالذهب [3] فرأيته يفتنّ فى طعامه ولكن على غير شره فى الأكل ، يبدأ بالمرق من السكباج وغيره تنشيطا لجسمه ، ثم يأكل الفاتر [4] من الطعام من البقول وأشباهها ، ثم الدجاج وأنواع الطير ، ثم الشواء ثم أنواع السمك ثم ما يطبخ بالتوابل من اللحم والبقول وغيرها حتى تكاد مائدته لا تخلو من السنبوسق [5] ، وهى رقاق تحشى باللحم والدهن عليه التوابل من الفلفل والزنجبيل ثم تقلى بالزيت وتطرف بالخردل [6] ، وهو يتخلل طعامه بتناول اليسير من التوابل التى تشهيه إليه [7] ، فإذا اكتفى منه تناول الحلوى من الأسوقة والربيكة واللوزينج والفالوذج أو غيرها ، ثم الفاكهة بعدها ،

---

(١) الأغانى ٩ : ٨٣

(٢) ذكر الأغانى ٥ : ٢٤ أنه ما كان يجلس إلى طعام الخليفة غير أمير وعالم .

(٣) ذكر الوشى المنسوج بالذهب الأغانى ٣ : ١٨٤

(٤) المسعودى ٢ : ٢٢٠

(٥) المسعودى ٢ : ٤٢٦

(٦) الأغانى ١ : ٣٩

(٧) يبتدئ بالطعام الحار وينتهى بأكل البوارد المسعودى ٢ : ٢٢٠

ثم النُّقل [١] وهو الذى يتناوله بعد طعامه للتعلل ، ولكن فى الصحاف التى لم أر أظرف منهـا فى آنيـة الصين ولا أغلى ثمنا وقيمة ، فكنت أحسب لشدة تأنقه فى فنون المطعم أنه لو لم ينه النبى صلى الله عليه وسلم عن الأكل فى صحاف الذهب والفضة [٢] لاتخذها كذلك وتزل فيها اليواقيت والجواهر . فإذا اكتفى من التعلل جاءه الغلمان بماء الورد المسك [٣] فى قماقم الذهب مع شىء من الريحان فيغسل يديه ويتبخر ، فإذا انتهى من الغداء دخل مخدعه للقيلولة [٤] ، وإذا فرغ من العشاء جلس للمغنين والندماء . كذلك عادته من يوم ولى الخلافة .

أما أولاد الرشيد فكلهم مترف يتقلب فى النعمة والإسراف إلا أحمد [٥] فإنه يحاول العزلة ويقعد مقعد ضَنْأَة ويتكسب بيده فيما يقولون شيئا ينفقه على نفســه مع مقدرة أبيه كلها [٦] ، أما القاسم فإنه ذو كبر شديد ونعمة طائلة وبَذْخ زائد ، وإليه ينتهى جمال ولد الخلافة [٧] ، وكان أبوه قـد طوّقه أمر الفداء الذى وقع بين المسلمين والروم بعيد عودتى من خراسان لجرى ذلك على يده [٨] وعمره يومئذ اثنتا عشرة سـنة ، فتزاحم ركب الملوك على بابه ، ومكنه أبوه من بيوت المـال فهو اليوم يتخذ القصور المزخرفة ويشترى الجوارى [٩] والغلمان ، ويقيم المجـالس للشعراء والمغنين والندماء ويُقطعهم الضياع ويصلهم بما يشاء من الهبات [١٠] إلى أن يصيب بعضُهم فى ناحية ما لا يصيبه من جوائز الخليفة من المـال .

---

(١) المسعودى ٢ : ٢٢٠ والأبشيهى ١ : ٨٤

(٢) الاتليدى ٩

(٣) الاتليدى ١١٣

(٤) الأغانى ٥ : ١١ والمستطرف ١ : ١٣٢

(٥) ولد له من سرية لبعض نسائه العقد الفريد ٣ : ٥٦

(٦) ابن خلكان ١ : ٥٧

(٧) الأغانى ٣ : ١٥٩ و ٩ : ٩٦

(٨) ابن الأثير ٦ : ٥٧

(٩) الأغانى ٣ : ٥٧

(١٠) ذكر الأغانى ٣ : ١٦٨ و ٤ : ١١٦ عطاء أولاد الخلفاء .

أما الأمين والمأمون وليا العهد فإنهما دونه فى الإسراف ولا سيما الأمين فإنه يوهم أنه كثير العقل وإن كان ضعيفه [١] ، ويتخذ الوقار برقعا لوجهه لما يحدث به نفسه من أمر الخلافة . ولأنه ابن هاشمى وهاشمية وذلك لم يتفق لغيره من خلفائهم ، فإن أبا العباس وأبا جعفر والمهدى والهادى والرشيد كلهم أولاد سرارى [٢]

وأما عبد الله المأمون فإنه زينة أولاد الرشيد ، وسَمْتُه سِمَةُ خير وفضل وعفاف ، لم أر فى أبيه خَلّة من الخلال المحمودة ولا خُلُقا من الأخلاق الرضيّة إلا وجدتها فى نفسه طبيعة تسمو به إلى أرفع مقام فى أدب الدنيا والدين ، ولم أر فى أولاد الملوك غير البرامكة (أعزهم الله) من يتعشق العلوم الحكمية [٣] على حداثة سنه ويقيم بين العلماء لمناظرتهم [٤] فى جميع أنواع العلوم مثله ، فما أذكر أنى دخلت عليه مرة إلا وقد لقيته فى مجلس من العلماء والأدباء وهو متوسط فيهم كالشمس من حولها الضياء .

ولقد قصدت بابه من عهد قريب مع أمير من البرامكة فألفيت بحضرته [٥] جماعة من أئمة العلم ومنهم الخزيمى والعباس بن زفر ومنصور النمرى ، وهو السليم شعره من العيب لولا أن له طعنا فى الشيعة يبتغى به مرضاة العباسيين ، ومحمد الراوية المسمى بالبيدق لقصره وهو المنشد للرشيد أشعار المحدَثين [٦] ، وفتى من أمراء آل نوبخت يقال له الفضل بن سهل وهو خليل المأمون [٧] وصديقه لا يصبر على فراقه فى نهار ولا ليل ، وإذا ركب فى موكبه أركبه معه على النجائب المخضوبة

---

(١) ابن الأثير والمسعودى والفخرى .

(٢) السيوطى .

(٣) المقدمة ١٨

(٤) الدميرى ١ : ٩٨ والمسعودى ٢ : ٤٠٢ والعقد الفريد ٣ : ٤٣

(٥) الأغانى ٢ : ٢٢

(٦) الأغانى ١٢ : ٢٠

(٧) ابن الأثير وذكره الوطواط ١٤٢

بالحناء وعليها القطوع والديباج [١] ، وكان بجانب المأمون جماعة من النحاة قد أحدقوا به إحداق الهالة بالقمر، منهم الكسائى وابو محمد مؤدباه [٢] وهم يتباحثون معه فى مسائل نحوية وكنت أسمعه يقول لهم (زيد) على الرفع والكسائى يقول بل (زيدا) منصوبة بإنّ فتطارح العلماء الجملة الإعرابية التى دار عليها كلامهم وهى « إن من خير القوم أو خيرهم نية زيد » [٣] فأجمع رأيهم على موافقة المأمون فتحققت فضله فى ذلك اليوم وعرفت أنه يدخل العلوم من أبوابها وليس تطفلا منه كما يتبادر إلى العقل عن آداب المترفين من أولاد الملوك .

وكان هذا الأمير إذا جلس للاستراحة يثني انصبابه إلى ما يجد فيه من التسلية أدبا وفائدة ، ولم يكن شيء من الملاهى أحبَّ إليه من لعب الشِّطْرَنج [٤] يمارسه كأبيه [٥] لاستنباط الحيل فيه ، حتى لم يكن فى الناس من يفضُله فيه وهو القائل فى الشطرنج [٦] :

أرض مربعة حمراء من أدَم	ما بين إلفين موصوفين بالكرم
تذاكرا الحرب فاحتالا لها شبها	من غير أن يسعيا فيها بسفك دم
هـذا يُغير على هـذا وذاك على	هــذا يُغير وعينُ الحرب لم تنم
فانظر إلى الخيل قد جاشت بمعركة	فى عسكرين بلا طبـل ولا عـلم

---

(١) ذكر زينة المراكب هذه الأغانى ١ : ٨٨

(٢) الأغانى ١٧ : ٧٢ والمستطرف ٢ : ١٣ والمسعودى ٢ : ٢١٣

(٣) الأغانى ١٨ : ٧٧

(٤) العقد الفريد ٣ : ٢٥٤

(٥) لعب الرشيد بالشطرنج أمر معروف .

(٦) المستطرف ٢ : ٣٠٦ والمسعودى ٢ : ٤٠٦

وأما لعبه بالأكرة والطَبْطابة ورميه فى البِرْجاس النُشّاب . وكرته بالصوالجة فى الميدان واقتناؤه طرائف الطير والخيل[١] والحيوان . واتخاذه الديكة ليقاتل بعضها بعضا والأكباش لِيُناطح بها بين يديه إلى غير ذلك من ملاذ الملوك الذين يبلغون من الترف إلى أن يُعدّوا أمثال هذه الملاهى على سبيل المفاخرة والمباهاة ، فإنه كان يتخذها لما يدعو إليه موضعه من الملك المترف وهو غير غافل عن اتخاذ الأشياء التى تعود عليه من وراء الزينة والمكاثرة بفوائد من الأدب والصناعة . فقد عنِى بجمع آثار الملوك من ثياب وسلاح وآنية ومتاع وغير ذلك حتى جمع من طرائفها القدر العظيم الثمين ، رأيت فى بعض مجموعاته صندوقا أودعه خواتم الخلفاء جميعا من العباسيين والأمويين والخلفاء الراشدين ومن كان يقوم بدعوة الخوارج بعدهم وفى صدر الدولتين ، فكان جامعا لجميع خواتمهم[٢] إلا خاتم النبى صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يكن ضاع من عثمان فى بئر أريس كما تواتر فى الأنباء[٣] ما كف عن طلبه حتى يجده ، وفى هذا المجموع وأمثاله من المجموعات أدبٌ مع الفكاهة والزينة . وهذا ما أذكره من فضائل هذا الأمير وليس هو إلا النزر اليسير فى جانب الكثير الواسع من فضله وأدبه .

---

(١) من المعلوم أنه كان لأمراء العرب العناية التامة بتربية الخيل ووجدت فى العقد الفريد أن المأمون كان يتخذ خيلا يسابق بها خيل أبيه وأقاربه فى الحلبة قال فى الجزء الأول ٦١ : ركب الرشيد فى سنة ١٨٥ إلى الميدان لشهود الحلبة قال الأصمعى فدخلت الميدان لشهودها فيمن شهد من خواص الخليفة والحلبة يومئذ أفراس للرشيد ولولديه الأمين والمأمون وسليمان بن جعفر ولعيسى بن جعفر فجاء فرس أدهم يقال له الربيذ لهرون الرشيد سابقا فابتهج لذلك ابتهاجا علم فى وجهه وقال على بالأصمعى فنوديت من كل جانب فأقبلت سريعا حتى مثلت بين يديه فقال يا أصمعى خذ بناصية الربيذ ثم صفه من قونسه الى سنبكه فانه يقال إن فيه عشرين اسما من أسماء الطير قلت نعم يا أمير المؤمنين وأنشدته شعرا جامعا ما فيه . . . فأمر لى بألف درهم . وذكر المسعودى ٢ : ٢٢٠ أن الرشيد أجرى الخيل يوما بالرقة وكان فى أوائلها سوابق من خيله يتقدمها فرسان فى عنان واحد لا يتقدم أحدهما صاحبه فتأملهما فقال فرسى والله وفرس ابنى المأمون .

(٢) فى العقد الفريد والمسعودى والمقريزى والخميس وابن الاثير ذكر كثير من خواتم الخلفاء وما كانوا ينقشون عليها .

(٣) أبو الفداء ١ : ٧٧ وابن جبير ١٩٩ وتقويم البلدان ٨٧ وغيرهم .

جمال البرامكة وانفجارهم بالكرم

أما دور ملوكنا البرامكة (أعزهم الله) فإنها في الجانب الشرقي بإزاء دور الخلافة ليس بينهما إلا عرض دجلة [١] ، وهي من الجمال والإشراق بمكان تسامي [٢] به قصور الرشيد ، لأنهم بنوها على السعة التي لم يبلغها أحد من الملوك فقد أنفق جعفر بن يحيي على دار بناها عشرين ألف ألف [٣] درهم ، فهي مظهر الأنس والصفاء ، ومشرق الأنوار والسناء . مغشاة بالرسوم والزخرفة من الداخل والخارج ، وعليها صور من الجص المجسم [٤] ، وقد فرشت مجالسها بالوشي والإبريسم وزينت بالمتاع الثمين والقماقم الذهبية [٥] والجامات المنقوشة [٦] والقوارير الفرعونية [٧] ولطائف الصين وغيرها من التحف التي تأتيهم من الملوك في سبيل المراضاة والاستمالة [٨] ، ولبست طيقانها بأستار من الديباج عليها أبيات مرسومة [٩] مما قالته الشعراء في مدحهم ، وهي تأتيهم من مصنوعات الفرس ، لأن العرب لا يعملون الطراز منذ نهاهم عنه عبد الملك بن مروان [١٠] ، ولا يكتبون على البسط والستور إلا كلاما يتبرك به ، بخلاف الفرس فإنهم يزينون نسيجهم بالرسوم ويكتبون فيها ما يطيب لهم من الشعر أو يتبركون به من الآيات .

---

(١) الفخري والاتليدي ١٦٧ والقزويني ٢١٠

(٢) الدميري ٢ : ١٥٤

(٣) ابن الأثير ٦ : ٦٢

(٤) كانت العرب تعرفه كما في المقدمة ٣٥٧

(٥) الكنز ٣٦

(٦) الأغاني ٣ : ٢٧

(٧) الأغاني ٦ : ١٣٠ و ١٠٣

(٨) الفخري ١٨٦ والمقدمة ١٤ وفي ابن الأثير ٦ : ٥٨ أنهم كانوا من المنزلة الكبرى في عيون الملوك بحيث إن خاقان ملك الخزر حمل ابنته إلى الفضل بن يحيي تقربا إليهم في المصاهرة .

(٩) رسم الأبيات على الأستار مذكور في الأغاني ٥ : ٨٦ و ١٠٠

(١٠) الاتليدي ٢٧٢

وقد اتصلت عمـارة البرامكة فى حى لا يخالطهم فيه أحد ، وهى من السعة بحيث تنتهى من الجنوب إلى شارع المدينة [١] ، ومن الشرق إلى درب دينـار الصغير[٢] ، ومن الشمال إلى باب الشمّاسية[٣] ، وهو الموضع الذى فيه قصر يحيى المعروف بقصر الطين[٤] ، المسمى بذلك معارضة لمـا أنفق عليه من الذهب واتخذ فيه من الزينة والزخرفة ، وفى جوارهم موضع يقال له البَرَدان[٥] . يشترون فيه الدور من الناس ويهبونها لمن هو طامع فيهم من أهل العلم والأدب[٦] ، لأنهم قد رفعوا بيوتهم على قواعد الكرم والسماحة[٧] ، وأصبحت أعطياتهم كأعظم ما يكون من أعطيات الملوك ، فإن يحيى إذا ركب يُعِدّ صُررا فى كل صرة مائتا درهم ، ويدفعها للمتعرضين له فى الأسواق والشوارع[٨] . وقد قالت الشعراء فى ذلك :

ياسمىّ الحصور يحيى أتيحت لك من فضل ربنـا جنتان
كل من مرّ فى الطريق عليكم فـله من نوالكم مائتان

أما وقوف الملوك والأمراء على أبوابهم فما لا تحضرنى عبـارة تفى بالإفصاح عنـه ، وإنما للعين أن ترى ازدحام الخيل فى ساحات قصرهم واقفة بالخدم والحَفَد والغلمان مما ليس على باب الرشيد مثلهُ ، وإن إقبال المؤملين عليهم من جميع الوجوه وأبعـد الآفاق يمتطون إليهم رحال الرجاء ويستقون من موارد إحسانهم ،

(١) ذكره الأغانى ٦ : ٧٨

(٢) ابن خلكان ٢ : ٣١١

(٣) الأغانى ٥ : ٨ وذكره المسعودى ٢ : ٣٨٥ وقال إنه فى الجهة الشرقية تلقاء قطربل وذكر ابن الاثير ٦ : ٩٨ أنه نزل به جند المأمون يحاصر بغداد .

(٤) الأغانى ٥ : ٨ وياقوت ٤ : ١١٤

(٥) الأغانى ٥ : ٨ وذكر المسعودى هذا الوضع ٢ : ٢٦٧

(٦) الأغانى ٥ : ٧٢

(٧) الأغانى ٥ : ٧٢ والاتليدى والابشيهى والوطواط وأبو الفداء وابن خلدون والفخرى وابن نباتة وابن خلكان وغيرهم .

(٨) ابن خلكان ٢ : ٣٦٣ والفخرى ٢٠٠

نهلًا وعَلَلا لأشهر من أن أحاول نعتـه بالوصف الذى لا يعبر عنـه القلم ، فكأنما يتهم محط الركائب يضعن فيه المدائح ويحملن منه المـال .

ولقـد رأيت من الأعراب من قصد الفضـل من قُضاعة فسأله عن حاجته فاستجداه عشرة آلاف درهم فاستقل ذلك له وقال له قد ازدريت بنـا وبنفسك يا أخا العرب، وإنما تعطى عشرة آلاف درهم فى عشرة، فلما أخذ المـال انصرف وهو يبكى فقال له الفضل مم بكاؤك آستقلالا للـال الذى أعطيناك ؟ قال لا ولكننى أبكى على مثلك تواريه الأرض ويأكله التراب وأنشد[1] :

لعمرك ما الرزية فقـد مال ولا فرس يموت ولا بعـير
ولكنّ الرزية فقـــد حُرٍّ يموت لمـــوته خلق كثير

فنظر إلىّ الفضل بعد انصرافه وقال لى إن مثل هذا يقصدنا من البـلد البعيد ليسـترفدنا مرة واحدة فى زمانه فيقوم بحرمة الصنيعة ، ومن الأمراء من نغمره باحساننا كل يوم[2] ثم يغمط النعمة ويدبّ فيـه مرض الحسد فيكون من أشد الناس بغضا لنا وسعيا فى فساد ملكنا .

وقد انفجر البرامكة بالكرم[3] حى صار يضرب بهم المثل الأكبر فى سـعة العطاء ، فيقال فلان من الملوك يتبرمك ، وقد أخبرنى الخازن القائم على بيت مالهم أنهم يغلّون فى كل سنة عشرين ألف ألف دينار[4] فاذا انقضى الحول لا يبقى منها فى الخزائن دينار واحد ، فهم يتخذون الكرم قاعدة فى الحالين مـن نعيم الدنيا

---

(١) الاتليدى .

(٢) الفخرى ٢٤٠ والوطواط ٢٤٩ والعقد الفريد ٣ : ٣٤ والمستطرف ٣ : ١٩٢ والأغانى ٥ : ١١٩

(٣) الأغانى وابن خلدون وابن الأثير وابوالفداء والمسعودى والعقد الفريد والمستطرف والاسحاق والاتليدى والفخرى والسيوطى وابن خلكان .

(٤) العقد الفريد ٣ : ٢٨

وبؤسها . يقول أبو الفضل[١] (أيد الله ملكه) إذا أقبلت الدنيا فأنفق فإنها لا تفنى وإذا أدبرت فأنفق فإنها لا تبقى . وقال أبو نواس فى مدحهم[٢] :

إن البرامكة الكرام تعلموا ... فعل الجميل وعلموه الناسا

وإذا هم صنعوا الصنائع فى الورى ... جعلوا لها طول البقاء أساسا

وقال فيهم نَصَيب[٣] :

عند الملوك مَضَرَّةٌ ومنافع ... وأرى البرامك لا تَضُرّ وتنفع

إن العروقَ إذا استسر بها الثرى ... أشر النباتُ بها وطاب المزرع

فإذا جَهِلتَ من امرىء أعراقه ... وقديمه فانظر إلى ما يصنع

وقال أبو النضير البصرى :

إذا كنت من بغداد منقطع الثرى ... وجدت نسيم الجود من آل برمك

وقيل فيهم وهو منتهى المديح :

أتانا بنو الآمال من آل برمك ... فيا طيبَ أخبار ويا حسنَ منظَر

لهم رحلة فى كل عام إلى العدا ... وأخرى إلى البيت العتيق المستّر

إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت ... بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر

فتُظْلِم بغداد وتجلو لنا الدجى ... بمكة ما تجلو ثلاثةُ أقمر

فما خُلِقَتْ إلا لجودٍ أكُفُّهم ... وأقدامُهم إلا لأعواد منبر

إذا راض يحيى الأمرَ ذلّت صعابه ... وناهيك من راعٍ له ومدبّر

---

(١) الاتليدى فى آداب أعلام الناس .

(٢) الأغانى ٥ : ١١١ و ٢٠ : ٣٤ والحصرى ١ : ٣٧٥

(٣) الأغانى ١٠ : ١٠٠

وقال سَلْم الخاسر فى يحيى[١] أعزه الله تعالى :

يأيها الملك الذى أضحى وهمته المعالى
انت المنوه باسمه عند الملمات الثقال
لله درك من فتى كم فيك من كرم الخصال

وقال فيه أبو نصر[٢] وأنا أستحسن البيتين وأرى لها وقعا لطيفا فى القلوب :

نام الخِلّيون من همٍّ ومن سَقَم وبتُّ من كثرة الأحزان لم أنم
يا طالب الجود والمعروف مجتهدا اعمِد ليحيي حليف الجود والكرم

وقال فيه آخر[٣] :

سألت الندى هل أنت حر فقال لا ولكننى عبد ليحيى بن خالد
فقلت شراءً قال لا بل وراثة توارثنى من والد بعد والد

وقال غيره[٤] :

لا ترانى مصافحا كفّ يحيي إننى إن فعلت ضَيّعتُ مالى
لو يمسّ البخيل راحة يحيي لسَخَتْ نفسه ببذل النوال

وقال غيره فى كرم الفضل[٥] رعاه الله تعالى :

حكى الفضلُ عن يحيي سماحةَ خالد فقامت به التقوى وقام به العدل
إليه يسير الناس شرقا ومغربا فُرادى وأزواجا كأنهم نحل

---

(١) الوطواط ٢٤٩

(٢) الاغانى ٥ : ١٣ والاتليدى ٢٣٨

(٣) اعلام الناس والعقد الفريد ١ : ١٠٠

(٤) الفخرى ٢٣٦

(٥) اعلام الناس .

واعترضه وقت خروجه إلى خراسان فتى من التجار كان قد شخص إلى الكوفة فقطع عليه الطريق وأخذ جميع ما كان معه ، فأخذ بعنان دابة الفضل وقال[١] :

سأرسل بيتا ليس فى الشعر مثله يقطع أعناق البيوت الشوارد
أقام الندى والبأس فى كل منزل أقام به الفضل بن يحيى بن خالد

وقال آخر من شعراء البادية[٢] :

قد كان آدم حين حان وفاته أوصاك وهو يجود بالحَوْباء
ببنيه أن ترعاهم فرعيتهم وكَفَيْتَ آدم عَيْلةَ الأبناء

وقال فيه أشجع السُلَمى الشاعر[٣] :

وما قدّم الفضلَ بن يحيى مكانُه على غيره بل قدّمته المكارم
لقد أرهب الأعداء حتى كأنما على كل ثغر بالمنية قائم

وقال أبو النضير البصرى[٤] :

ويَفْرح بالمولود من آل برمك بغاةُ الندى والسيفُ والرمحُ والنصلُ
وتنبسط الآمال فيه لفضله ولا سيما إن كان مَنْ ولدَ الفضلُ

وقال غيره[٥] :

ولائمة لامتك يا فضل فى الندى فقلت لها ما يقدح اللوم فى البحر
أردت لِتثْنِى الفضل عن سَنَن الندى ومن ذا الذى يَثْنِى السحاب عن القطر

(١) العقد الفريد ١ : ١١٩

(٢) ذكر فى العقد الفريد ١ : ١١٤ أن البيتين قيلا فى الحكم بن حنطب .

(٣) الأغانى ١٧ : ٣٤

(٤) الأغانى ٥ : ١٤ و ١٠ : ١٠٠

(٥) اعلام الناس والعقد الفريد ١ : ٢٩٨

مواقع جود الفضـل فى كل بلدة   مواقـع ماء المزن فى البـلد القفر
كأن وفود الناس لما تحملوا   إلى الفضل لاقَوا عنده ليلة القدر

وقال آخر[١] :

إذا نزل الفضـل بن يحيي ببـلدة   رأيت بهـا غيث السماحة يُنْبِت

وقال ابن الخياط المكى[٢] :

لمست بكفِّى كفه أبتغى الغنى   ولم أدر أن الجود من كفه يُعدى
فـما أنا منـه ما أفاد ذوو الغنى   أفدت وأعدانى فأتلفت ماعندى

وذلك أن الفضل أمر له ذات يوم بخمسة آلاف درهم فاستأذنه فى تقبيل يده فأذن له فـما انتهى إلى الباب حتى فرّق المـال بأسره ، فعوتب على ذلك فقال البيتين المذكورين ، فبلغ ذلك الفضلَ فأعطاه عشرين ألف درهم . وقال بعضهم [٣] وهو أمدح بيت فى الكرم :

ما لقينا من جود فضل بن يحيي   ترك النـاس كلّهم شعرَاء

وقال مروان بن أبى حفصة فى جعفر وهو صبى [٤] :

بنى لك خالد وأبـوك يحـيى   بنـاء فى المكارم لـن ينـالا
كأنّ الـبرمكى لـكل مـال   تجـود به يداه يفـاد مـالا

---

(١) المستطرف ١ : ١٩٦

(٢) حلبة الكميت والوطواط ٢٥٠ والأغانى ١٨ : ٩٤ وهو يقول إنه أنشدهما فى المهدى .

(٣) ابن خلكان ١ : ٥٦٨

(٤) هما من بحـر القصيدة التى رثى بها معنا ولم ينبه عليها أحد من أولاده وقد قالها فى مدح جعفر البرمكى وألحق بهما بعض أبيات . ومما قاله مروان فى هذه القصيدة فى رثاء معن :

كأنّ الشمس يوم أصيب معن   من الإظـلام ملبسـة جلالا
هو الجبـل الذى كانت معـد   تهـد من العـدو به الجبالا
أقـا بإيمـامـة بعـد معن   مقـامـا لا نريد به زيالا
وقلنا أين نرحل بعـد معن   وقـد ذهب النـوال فـلا نوالا

وهى من جيد الشعر . الأغانى ١٨ : ١١٦ والحصرى ١ : ٣٧٧

وقال فيه أيضا (١) :

أفى كل يوم أنت صبٌّ وليلةٍ إلى أم بكر لا تُفيق فتُقصر
أحب على الهجران أكناف بيتها فيا لك من بيت يحب ويهجر
إلى جعفر سارت بنا كل حرة طواها سُراها نحوه والتهجر
إلى واسع للمجتدين فناؤه تروح عطاياه عليهم وتَبْكُرُ

وقال فيه (٢) :

لدولة جعفر حَمِدَ الزمان لِبابكَ كلَّ يومٍ مهرجان
جعلت هديتى لك فيه وشيا وخير الوشى ما نسج اللسان

وقال العتّابى ، وكان فى نفس الرشيد عليه موجدة واستعطفه جعفر عليه ، فقال فيه (٣) :

ما زلت فى غمرات الموت مطَّرَحا قدضاق عنى فسيح الأرض من حيلى
لم تزل دائما تسعى بلطفلك لى حتى اختلست حياتى من يدَىْ أجَلى

وقال فيه أشجع السُلَمى (٤) :

يريد الملوك مدى جعفر ولا يصنعون كما يصنع
تلوذ الملوك بأبوابه إذا نابها الحَدَث الأفظع

---

(١) الأغانى ٥ : ١٥
(٢) العقد الفريد ٣ : ٣٧٧
(٣) الأغانى ١٢ : ٧
(٤) الأغانى ١٧ : ٢٤

وقال فيه [١] :

ذهبت مكارم جعفر وفِعاله في الناس مثل مذاهب الشمس
ملك تسوس له المعالى نفسُه والعقل خير سياسة النفس
فإذا تراءته الملوك تراجعوا جهرَ الكلام بمنطق همس
ساد البرامك جعفر وهم الألى بعد الخلائف سادة الإنس
ماضر من قصد ابن يحيى راغبا بالسعد حل به أم النحس

إلى غير ذلك من الأشعار التى لو حاولت تقييدها فى هذا الكتاب لبلغت أكثر من عشرة آلاف بيت من الأبيات الجيدة ليس فيها بيت سخيف بارد . وقد وجدت للرَّقاشى [٢] وحده ديوانا يحوى أكثر من ألف بيت فى مديحهم ، وهى من البلاغة بحيث إن البرامكة (أعزهم الله) يروّونها لأولادهم تفضيلا لها على شعر غيره من المحدثين .

الدولة فى خلافة الرشيد

نعود إلى ما نحن آخذون به من ذكر مملكة الرشيد وسياسته ، فقد سبق القول بأن دولته من أوسع دول الإسلام بل دول العالم رُقعة مملكة ، فإنها تنبسط من الهند وفرغانة فى الصين إلى طرف المغرب الأقصى من ناحية الزقاق ، كذلك كان امتدادها فى أيام أبيه فيما عدا البلدان التى غلب عليها الروم فى حروب متواترة قد استمرت بينه و بينهم على غير انقطاع كما كان شأن الخلفاء فى رفع السيوف عليهم منذ صدر الإسلام ، فإن الدولة الأموية قد حمات عليهم المرة بعد المرة وحملتهم

---

(١) الأغانى ١٧ : ٣٢

(٢) الأغانى ١٥ : ٣٥ ويظهر من كلام ابن الأثير ٦ : ٦٤ أن الرقاشى كان شاعر البرامكة .

خسائر عظيمة من الرجال والمال ، وكذلك العباسية بعدهم قد ساقوا إليهم الجيوش ولم يزل أبو جعفر فى مغالبتهم حتى أذاقهم مرّ البلاء ، وكانوا مع ذلك لا يفتُرون عن الثورة ويأبون إلا نكث العهود ونقض العقود المبرمة ، فلما ولى المهدى أخرج إليهم الرشيد[1] وهو فتى بقيادة يحيى وزيرنا ، فركب فى عُدّة وأهبة لم يكن مثلها فى الإسلام ، وتحركت فى نفسه نخوة الجهاد حتى اتسم بسمة المحاربين فى الجيش ، وحمل الرمح فى يده [2] . وكان على القسطنطينية ملكة يقال لها رينى لم تُطق مقاومته ، فهزم جندها وتفرق المسلمون فى البسائط [3] يُعَفُّون الآثار ويُبيحون الدمار ولا يبقون على أحد من الروم ، حتى إذا نزل بجوار القسطنطينية ونصب على أسوارها المنجنيقات خافت عليها من الحريق فصالحته على كِليكية ، وحملت إليه الجزية التى كان يحملها أسلافها إلى الخلفاء ، وتلك أحسبها للروم من حيل السياسة فى إيجاد الهدنة بالجزية فيما بينهم وبين المسلمين ، ففى نفسى أنه لو لم يتهاون الخلفاء فى أمرهم ما بقى لهم ملك تجاه دول الإسلام العظيمة .

ثم إنه بعد أن ولى الرشيد وقع فى نفوس الروم أن يتقاعدوا عن حمل الجزية إليه . فعبأ لهم العساكر وشحنها فى أسطول يسوقه حميد بن معيوب أمير الأساطيل بسواحل الشام[4] وسير الفرسان من ناحية البر يحرقون المدن ويبثون الخراب ، ففتحوا وغنموا [5] وأثخنوا وأوغلوا حتى انتهوا إلى جوار القسطنطينية وأطافوا بمعاقل الروم وأخذوا عليهم مهاربهم ، فلما أدركت الملكة العجز عن دفاعهم ، ورأت الجند بين يديها وهوشتيت ، صالحتهم على الجزية وراحت تحملها إلى بغداد وهى صاغرة إلى انقضاء ملكها بعد أن نال المسلمون غنائمهم أعظم النيل واستشعروا

---

(١) أبو الفداء ٢ : ١٠ والخميس ٢ : ٣٣١ وابن الأثير .

(٢) الأغانى ١٧ : ٤٨

(٣) ابن الأثير ٦ : ٧٠

(٤) أبو الفرج : وذكر إمارة الأساطيل بسواحل الشام ومصر أبو الفداء ٢ : ١٩

(٥) نزل حميد بن معيوب قبرص وسبى من أهلها ستة عشر ألفا ابن الأثير ٦ : ٧٠

من عزة الإسلام فى غزوتهم تلك ما أفاضوا فى التحدث به إلى هذا اليوم. والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وتصدر رايات الإسلام راويات .

ولما هلكت ريني نصّب الروم عليهم نقفور وكان ملكا شديد البأس إلا أنه قليل الخبرة بأمور السياسة غير عارف بمكان الإسلام من الصولة والدولة ، بل كان يظن فى المتمصرين من العرب فتورا فى العزيمة وتشاغلا عن أمر الجهاد بما ركنوا إليه من دعة العمران. فكتب إلى الرشيد فى منتصف هذه السنة كتابا بنقض الهدنة التى كانت بينه وبين ريني يقول فيـه :

«من نقفور ملك الروم إلى هرون ملك العرب . أما بعـد فإن الملكة التى كانت قبلك كانت أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها أحمالا [١] ، وذلك لضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابى فاردد ما حصل قبلَك من أموالهـا وإلا فالسيف بينى و بينك » .

فلما قرأ الرشيد الكتاب استشاط غضبا حتى لم يجسر أحد أن ينظر إليه ، فدعا بدواة وكتب على ظهر كتابه :

«بسم الله الرحمن الرحيم من هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه » [٢] .

ثم حشد الجنود ليومه ، وركب فى صفوف المترجلين والفرسان، وحمل القوّات والأقوات استظهارا على نفوذ العزيمة ، ولم يزل حتى وافى مدينة هِرَقْلة [٣] ونصب عليها القتال ، وهى مدينة للروم لم يطمع أحد من ملوك الإسلام فى الوصول إليها لخشونة مكانها ، فدك أسوارها بالمنجنيق ومنحه الله أ كتاف الروم فنفلهم رقابَهم وأموالَهم و فى ذلك يقول الشاعر المكى [٤] :

هوت هرقلة لمـا أن رأت عجبا ... حوائمـا ترتمى بالنِفط والنـار
كأن نيراننـا فى جنب قلعتهم ... مُصَـبَّغات على أرسان قَصّـار

(١) فى تاريخ أبى الفداء أنه قال حملت إليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أضعافه إليها لكن ذلك من ضعف النساء وحمقهن إلى آخر الكتاب .

(٢) الأغانى ١٧ : ٥٤ والطبرى وابن خلدون والسيوطى والمسعودى ١ : ١٥٨ وأبو الفدا ٢ : ١٨

(٣) أبو الفداء ٢ : ١٩

(٤) الأغانى ١٧ : ٤٧ والمسعودى .

وهـذا كلام ضعيف لين ولكنّ قدره عظيم فى ذلك الموضـع والوقت[١] ، ولم تقف هزيمتهم على هرقلة فقط بل كانوا يسلمون كثيرا من المعاقل والبلدان ، فكان ذلك الفتح فتحا عظيما لا كفاء له . وهنأت الشعراء الرشيد قال أبو العتاهية فى ذلك[٢] :

قضى الله أن صفّى لهرون ملكه   وكان قضاء الله فى الخلق مقضيا

تحيت الدنيـا لهرون بالرضا   وأصبح نقفور لهرون ذميـا

فلما ضاقت بهم الحيل ولم يكن لهم بالمسلمين قِبَل رغبوا فى المسالمة والموادعة، وأوجبوا على نفوسهم إعطاء الجزية وهم صاغرون . ولست أقول إن هـذا الفوز كان سهلا على الرشـيد فإنه قد طوّح من الرجال وأنفق من الأموال ما هو حقيق بأن ينظر فيه، فإن الروم أهل بأس ومراس شديد، وهو يقاسى[٣] معهم الحروب الصعاب ، ولم يكن فى شأنه معهم حيلة ولا سياسة ، وإنما هى حروب تواصلت تباعا وأخذ بعضها برقاب بعض لما يروم من نفوذ السلطان حتى يركب عليهم سيف الإسلام ، و إلا فان الجزية التى يطمع فيها لا تفى بالقليل من الأموال التى تنفقها الدولة، وهى بمكانها من الهجوم ومكان الروم من المدافعة فى ظلال الأسوار، وفى ذلك تفاوت بعيد فى خسائر القتال ، والذى يدلك على قوة الإسلام أنه غزاهم غزوات كثيرة ما أخفق فى واحدة منها كما رأيت .

---

(١) الأغانى ١٧ : ٤٧

(٢) المسعودى ١ : ١٥٨

(٣) ذكر الأغانى ١ : ٣٨ أن الرشيد قال للاصمعى عقب قدومه من بلاد الروم أنشدنى أحسن ما قيل فى رجل لوّحه السفر فأنشده قول عمر بن أبى ربيعة :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت   فيضحى وأما بالعشى فَيَخْصَر

أخا سـفر جواب أرض تقـاذفت   به فـلوات فهـو أشعث أغبر

وفى العقد الفريد ٣ : ١٧٨ تكملة هـذه الأبيات وهى قصيدة مشهورة يستحسن الظرفاء طريقة نظمها لكن ربما وقع فيها تحريف من الناسخين .

هذا كان شأن الرشيد مع صهب السبال ، أما السياسة التى أتعبت خاطره فكانت منصرفة إلى إذلال العلويين فى المغرب قبل أن تسود بهم الحال ، وتسودّ عندهم جموع الرجال . لأنه تعذر عليه محاربتهم مثل الروم لتجافى عظماء دولته من أهل الرأى والتدبير عن قتال المسلمين على غير فائدة إلا ضياع المال وضيعة الرجال، ولذلك جعل الملك فى إفريقيــة لآل ابن الأغلب حتى يقاوموا جندهم فلا يتمكنوا من إقامة مملكة تنهال من المغرب فتطمو على الشرق كله ، فكأنه وقع بين أمرين مخوفين فاختار ما هو أقرب إلى النجاة بأن يملك الأغالبة المغــرب حتى إذا قامت دولتهم رسخت فى مكانها ولم تتجاوز الرمال التى بين إفريقية ومصر .

على أن العلويين مع ذلك كله قد ملكوا البلاد إلى طرف المغرب ، ولم يأل ابن الأغلب فى مناوأتهم جهدا وهــو لا يبلغ الغاية التى يرومها من إذلال ملكهم وتضييع نفوذهم فى المسلمين ، لأن جندهم مطيع لهم فيما استقروا فيه من تلك الأقاليم ، وكلهم صادق الحملة مدرب على القتال ولا سيما قبائل صِنهاجة من بطون حِمــير[1] ، وهم أمنع الناس ذِمارا ، وأبعد الفرسان مُغارا . وذلك أمر طيب منى النفس لا بغضا فى آل العباس لأنى لا أريد بهــم مكروها ، وإنمــا العلويون هم أهل البيت الكريم وفيهم الأنجاب الذين تعرف البطحاء وطأتهم والبيت يعرفهم والحل والحرم[2] كما يقول الفرزدق الشاعر فى مديحهم . فلعمرى إنهم أحق من الأغالبة بهذا الملك الذى أراه اليوم يثبت فى أيديهم إلى ما شاءالله من الزمان لاتجاههم إلى غاية واحدة وسياسة راشــدة ، فقد عرفتَ أن تمزقهم فيما مضى إنمــا حصل بتفرق دعاتهم على أغراض لم تجمع بينهم إلى الوحدة . وفيما تقدّم من الكلام عن أبى جعفر مايبين لك أنهم لو لم يفترقوا لظفِروا . أما اليوم فإنهم مجتمعون إلى إدريس ابن ادريس وله دون غيره من أهل البيت «السلام عليك يا ابن رسول الله»[3] .

---

(١) ذكرهم ابن خلكان ١ : ١٢٢

(٢) الاغانى ١٤ : ٨٧ والاتليدى ٥٤ والشبلنجى ١٧٠

(٣) ابن حرداذبة ٧٩

وإنما سار العلويون إلى المغرب وأقروا فيه مملكتهم بإيعاز البرامكة الأمجاد، وهم الآخذون بناصرهم والمتغرضون معهم [١] والمقلدون الولايات لكثير من أهل الشيعة [٢] إلا أنهم لا يتعمدون فى ذلك ضرر الرشيد وهو المؤتمن لهم على مملكته، لأن المغرب فيما يرون إذا انسلخ عن بغداد لا يُحدث فى الخلافة ضررا لعظم الممالك الإسلامية، وإنما يضر التجزؤ بالدول إذا كانت الدولة منحصرة فى إقليم غير متسع إلى طرف العالم وكان فى جوارها أمة ثانية متغلبة فإنها تسطو عليها شيئا فشيئا إلى أن تلتهمها جملة واحدة، كما رأينا فى سِيَر الأمم الماضية، أما الخلافة الإسلامية فإن الجهاد فى الأعاجم يعمل على استمرار ملكها ووقايته، ويعود عليها من استقلال بعض الملوك فى أطرافها أنهم يمنعون عنها عدوّها من قبل أن يصل إليها فتحفظ خزائنها من إنفاق المال، ورجالها من تغرير القتال. وتبيت فى شؤونها آمنة بحراستهم. اللهم إلا أن يكون فيهم من هو أشد سلطانا، وأكثر جنودا وأعوانا، وهذا بعيد عن أن يكون فى دولة متجزئة من الخلافة، ولو انضمت جميعا إلى قيادة واحدة ما ناوأت الرشيد وانتزعت الخلافة منه وهو بموضعه من عظم الشأن وضخامة الملك، وله الهند والسند وأرمينية وكرمان ومصر والشام ونجد وتهامة واليمن والحجاز وفارس وخراسان، فهذا معظم الدنيا المعمورة وأوفر بلادها ثروة وأطيبها تربة وغلة، حتى لقد يُجبَى إليه من إقليم واحد من هذه الأقاليم كمصر مثلا ما لا يجبى إلى غيره من سائر أقاليم الأطراف.

فكان ملوكنا البرامكة (أعزهم الله) يرون أن قيام الدولة العلوية فى المغرب داع إلى صلاح الرشيد، وأنها تكون مِجَنّا للخلافة بما تجاهد لها فى ردّ الأمم النصرانية.

---

(١) فى تاريخ أبى الفداء ٢ : ١٢ أن الرشيد لما جهز الفضل بن يحى إلى قتال يحى بن عبد الله كتب إليه الفضل وبذل له الأمان وربما جعل الرشيد نفسه يحسن إليه ويكرم وفادته عليه وفى ذلك دليل واضح على محبة البرامكة لأهل البيت . وذكر ابن الاثير أن الفضل بن سهل الملقب بذى الرياستين كان يتشيع وأن البرامكة هم الذين اختاروه لخدمة المأمون ٦ : ٧٠

(٢) المحاضرة ٢ : ٨

وكان جعفر يقول لى إنه لو لم يكن للرشيد فى هذه البلاد النائية إلا قضاة حاكمون كما كان للملوك بنى أمية فى الأندلس ما ظهروا على الفرَنجة والجند بين أيديهم قليل، ولو أنه ائتمنهم لاستنفدوا ماله ، أو استنصحهم لكانوا عليه لا له ، فيثبت بعد ذلك أن حبه وآل بيته للعلويين يعود بالمنفعة على الرشيد والمصلحة على جميع المسلمين ، لأنه إذا قامت دولتهم فى المغرب كان ذلك أثبت لبقاء الأندلس فى يد المسلمين[1] . وربما أعاد الله سبحانه على يدهم ما استعاده الفرنجة من البلدان التى فتحها طارق ابن زياد والله يبيد أمما ويحيي أمما لا إله إلا هو ذو الملك والسلطان .

عمران بيت المال

لم يبق علينا لبيان عظم دولة الرشيد إلا أن نذكر قدر المال الذى يحمل إليه من جميع الممالك والبلدان ، فإنه لم يسمع عن دخل دولة من دول الخلفاء أنه تجاوز القدر الذى يحمل إلى بيت المال فى زمانه ، مع أنه يسلك مع الملوك مسلك الحلم ، ولا يضرب عليهم الخراج إلا على قدر ميسرتهم . وان كان قد زال عنه القليل مما يحمل إليه من المغرب فقد استعاض عنه بالكثير مما فرض على بلدان النصرانية التى غلب عليها الروم من الأموال التى لا يصح أخذها [2] من المسلمين كالخراج والعشور التى تؤخذ على جميع غلاتهم [3] ، فقد بلغ المحمول إليه فى كل سنة نحوا من خمسمائة ألفِ ألفِ درهم من الفضة وعشرةِ آلاف ألفِ دينار من الذهب ، ما عدا الغلال والمصنوعاتِ كما ستراه . لحمل الناس كثرة هـذا المحمول على أن يعدوه بالوزن لا بالعدد ، فيقولوا إنه يبلغ ستة أو سبعة آلاف قنطار من الذهب[4] ،

---

(١) نذكر هنا أنه قامت فى المغرب بعد ذلك الوقت الدول العظيمة التى فتحت الفتوح وأعزت الاسلام .

(٢) ابن جبير ٧٦

(٣) الزرقاوى .

(٤) مقدمة ابن خلدون .

إلا أن ذلك غلو و إفراط فى تعظيم الشيء ، فمن المعروف أن القنطار إنما هو زنة ثلاثين ألف دينار . ويبعد أن يكون فى العالم ألفا الف ألف ألف دينار من الذهب ، ولو جاز وجودها ما صح أن تحمل كلها إلى بيت المال ولا يبقى منها شيء فى أيدى الناس لمعاملاتهم . وتقديرهم هذا و إن كان بعيدا عن الصحة يدل على الكثرة وأن المال يحمل إلى بغداد بالصُبرَ [١] لوفور الخير .

وعندى أن ما يحمل اليوم إلى بيت المال لم يكن يحمل نصفه إلى خزائن الأمويين ولا الخلفاء الأولين من بنى العباس ، ولا يبعد أن عمالهم كانوا يحجُزون من مال الجزية قدرا لا يحملونه إليهم لاختلاف تقدير الجزية على أهل الذمة بين ثمانية وأربعين درهما تؤخذ من ذوى اليسار وأربعة وعشرين من الصناع وأهل الحرف واثنى عشر درهما من ذوى الفاقة والإعسار [٢] : دون أن يكون فى الدواوين عمل لذلك . ولما قام وزيرنا [٣] ، أيده الله بأعباء الدولة فرض على العمال ماهو مفروض على ناحيتهم من جزية وخراج وغير ذلك حتى صار يقرِّر الدخل فى السجل من قبل أن يحصل فى يديه ، فلم يبق سبيل إلى نقص الأموال إلا فيما يؤخذ من المكوس على السلع وما يتصرف به العمال من نفقات [٤] ولاياتهم وليس هو إلا القليل فى جانب الكثير من دخل الدولة .

ولا يطرأ على تقدير هذه الأموال شيء من الزيادة والنقصان بتنقل البلاد من حال إلى حال . وربما غلبت عليها الزيادة لوفور الخير والعدل فقد كان حاصل السواد وهو أرض [٥] مابين الموصل وعبّادان فى الطول وما بين عذيب بالقادسية

---

(١) القزوينى ١٠

(٢) المقريزى والمتطرف ١ : ١٣٨

(٣) هو جعفر بن يحيى البرمكى .

(٤) ذكره المقريزى ٢ : ٢٧

(٥) الماوردى ١٩٩

إلى حُلوان فى العرض عشرين ألف ألف درهم فى زمن الحجاج (١) لكثرة الظلم ، فلما ارتفع عنها الجور ساد فيها العمران (٢) حتى صار يحمل منها اليوم نحو ستين ألف ألف درهم . وكان حاصل فارس وأصبهان وكَرمان فى عهد الأمويين ثلاثين ألف ألف درهم فلما انتظمت فيها الأحكام وانتشر فيها العدل حمل منها البرامكة خمسة وأربعين ألف ألف درهم . وكذلك عهد الخلفاء بخراج مصر « بعد ما جباها عمرو ابن العاص فى زمن الخيراثنى عشر ألف ألف دينار» (٣) تدلّى إلى ألف ألف وتِسعمائة ألف دينار ، وذلك لاختلال أمرها وسوء سياسة العمال فلما تولاها البرامكة جبوا منها للرشيد ثلاثة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار ،(٤) واستمرت على ذلك إلى هذا اليوم .

ويحمل إلى بغداد غير هـذه الأموال المقررة والغلال الكافية لأرزاق الجند وعلف خيلهم قدر من المصنوعات والغلات التى تكون فى البلدان ، فيحمل من السواد مائتا حلة من الحلل النجرانية ومائتان وأربعون رطلا من طين الختم الأحمر الذى يطبع به على طرف الرسائل السلطانية ، ويحمل من الأهواز ثلاثون ألف رطل من السكر ، ومن فارس ثلاثون ألف قارورة من ماء الورد ، ومن أصبهان عشرون ألف رطل من الزبيب الأسـود . ومن مكران خمسمائة ثوب من المتاع ايمانى وعشرون ألف رطل من التمر ومائة رطل من الكمون ، ومن السند مائة وخمسون رطلا من العود الهندى ومن سجِستان عشرون ألف رطل من السكر وثلثمائة ثوب ، ومن خراسان ألفا نُقرة من نِقار الفضة وأربعة آلاف بِرذون وألف رأس من الرقيق يتخذون خدما فى دور الخلافة ، ويكون لأمراء بنى هاشم وغيرهم من عظماء الدولة نصيب وافر منهم ، وعشرون ألف ثوب من المتاع وثلاثون ألف رطل من الإهلَيج وألف وثلثمائة قطعة من صفائح الحديد ، ومن جرجان ألف شقة من الإبريسَم . ومن قُومَس خمسمائة نقرة من نقار الفضة . ومن طبرستان ونهاوند ستمائة

(١) المستطرف وابن خرداذبة ٣٦

(٢) المستطرف ١ : ١٢٥

(٣) المقريزى ١ : ٩٨

قطعة من الفرش الطبرى ومائتا كسوة وخمسمائة ثوب وثلثمائة ألف منديل وثلثمائة جام . ومن الرَى وقزوين عشرون ألف رطل من العسل ، ومن همذان ألف رطل من رُبّ الرمان واثنا عشر ألف رطل من التين ، ومن الموصل وما إليها وأعمال نينوى عشرون ألف رطل من العسل الأبيض . ومن الجزيرة وأعمال الفرات ألف رأس من الرقيق واثنا عشر ألف زِقٍ من العسل وعشرة بزاة مرباة لصيد الملوك وعشرون كسوة من الحرير للبيت الحرام ، ومن أرمينية قدر من البسط ومن قنّسرين والجند ألف حمل من الزيت ، ومن جند فِلَسْطين ودِمَشْق قدر كبير من الفاكهة اليابسة وثلثمائة ألف رطل من الزيت ، ومن إفريقية مائة وعشرون بساطا ، ومن اليمن شيء كثير من المتاع ، وكذلك من نجد وعُمان واليمامة والحجاز وكِنْكَور وحلوان ومِهران وشهرزور وأذربيجان ومصر وجند الأردن يحمل كثير من الحبوب والمصنوعات التى تصرف على الجند وتنفق فى مصالح الدولة [١] .

وهذا المال كله يتصرف فيه الخليفة دون أن يعارضه فيه أحد من أرباب الدولة إلا فيما يعرضه عليه البرامكة من دفاتر الدواوين للموازنة بين دخل الدولة وخرجها . وقد تجمع كثيره فى بيت المال منذ صدرِ هذه الدولة حتى إن أبا جعفر (غفر الله له) لما أدركه الموت قال للمهدى فى وصيته إنه خلّف له من الأموال ما إن كُسِر عليه الخراج عشر سنين كفاه لأرزاق الجند ومصلحة البعوث وغير ذلك [٢] ولقد أخبرنى يحيى (أعزه الله) عن خالد أبيه وكان قائما على بيت ماله أنه بلغ ما خلف من المال أربعة عشر ألف ألف دينار وستمائة ألف ألف درهم ، [٣] فلو لم يكن إلا هذا فى خزائن الرشيد [٤] لكفى دولته فخرا على دول الخلفاء ، وبهاء ليس مثله من بهاء . فأما الفخر فيكون لها من حيث المَنَعة لأنه مادام بيت مالها

---

(١) مأخوذ من مقدمة ابن خلدون ٢١٤ وكتاب قدامة ورسالة ابن حرداذبة .

(٢) ابن الأثير ٦ : ٧

(٣) المسعودى ٢ : ١٩٤

(٤) ذكر ابن الأثير ٦ : ٧٦ أنه كان فى بيت المال لما توفى الرشيد سبعمائة ألف ألف ونيف .

عامرا فلا تزال ممتنعة على العدو ، وأما البهاء فيأتيها من المال و إنفاقه فى الوجوه التى ترفع الدولة وفيما يدعو الملوك المترفين الذين يتوسعون فى نعيم العيش الى تزيين دولهم برواج الأدب كما رأينا من إقبال الرشيد على تقريب العلماء إليه وانتفاعه بعلمهم فى دينه ودنياه .

مجلس الغناء بدار الرشيد

كان الرشيد يتخذ للعلماء والندماء والشعراء مجالس مناظرة وعرض أدب وصناعة كما كان يصنع أبوه (رحمه الله) ثم يجيزهم على موضعهم من العلم بما لا ديكا يحصى من الجوائز ، و إن الذى كنت أرتاح إلى شهوده من المجالس بداره إذا حضر وقته هو مجلس الغِناء ، على أنى لم أره فى السنين الماضية أحفل منه فى هذه السنة ، وكان الرشيد قد نشِط له وقام بِنُبْسته التى يلبَسها فى الصيف ، وهى غِلالة [١] رقيقة يتوشح عليها بازار رشيدى عريض العَلَم مضرج ، وكان بين يديه جامات ذهب فيها دنانير [٢] يجيز بها من يطيب منه المسموع وتصلح عنده الصنيعة ، ومن حوله جماعة من بنى هاشم والفضل وجعفر من البرامكة (أعزهم الله) ، وهما جالسان بجانبه على سرير الخلافة .

ولما اجتمع المغنون جلسوا فى صفوفهم بناحيتين من المجلس للمناظرة [٣] بينهم فى الغِناء . فمنهم المتعصبون للغناء القديم وهم جماعة إسحق النديم ، ومنهم المقصرون عن أدائه والمغيّرون له وهم جماعة إبراهيم بن المهدى . وكان سبب هذا النزاع بين إبراهيم و إسحق أن إبراهيم تغنى بلحن قديم أضاع صناعته فرد عليه إسحق وعاب عليه تغيـيره فقال أنا ملِك وابن ملك أغنى كما أشتهى وعلى ما ألتذ ، فتخالفا فى ذلك فانضم إلى غرض إبراهيم إسماعيل بن جامع وفُلَيْح بن العوراء ويحى المكى وعمرو

---

(١) ذكرها الأغانى ٥ : ٣٣

(٢) الأغانى ٩ : ٥٨

(٣) ذكر هذه المناظرة الأغانى ٥ : ٢٦ بين الموصلى وابن جامع .

ابن بانة وشارية وزيق وبنو حمدون وحسين بن مُحرز والهـذلى وغيرهم ، وبقِى مع الموصلى المترفعون عن الأغراض والآخذون بمحاسن الغنـاء من حيث طرائق الصناعة مثـل مُخارق وعلُّوية وعَريب وبَذل وسُليم بن سلام وزبير بن دَحْمان وأحمد بن يحيى المكى ومحمد بن حمزة بن الوصيف وغيرهم [١] وكان قوم إبراهيم بن المهدى قبل وزارة جعفر (رفع الله قدره) أكثر عددا من حزب إسحق، لأنهم كانوا يتقربون بكفالته إلى الرشيد فلما أخذ البرامكة بناصر إسحق وجهروا بتفضيله رجع إلى غرضه كثير من المجيدين ، ولم يزل المغنون فى أهل البيوتات مثل البرامكة وآل هاشم وآل الربيع يتمسكون بالغناء القديم ويحملونه كما يسمعونه ، فلم يكن من مفسـد له إلا الذين تقـدمت أسماؤهم وجماعة من أولاد العباسيين مثل إبراهيم وأخيه يعقوب وأختهما عُلَية وعبد الله بن الهـادى وعيسى بن الرشـيد وغيرهم [٢] ممن يترفعون عن أن يقيد غناؤهم بالمحفوظ من أصوات المتقدمين وإن كانوا بموضع جليل من هذه الصناعة . فهذا إبراهيم ليس فى الناس أعلم منه بالنغم والوتر والايقاعات ولا أطبع على الغناء . ولقـد رأيته إذا غنى بمجلس الرشيد قرُب كل من فى دور الخلافة من أقرب موضع يمكنهم أن يسمعوه فيه لحسن صوته ، وقليلا ما كانوا يسمعونه إذ كان لا يغنى إلا على حال تصونٍ عن الغناء وترفع إلا أن يدعوه إليه الرشيد فى خلوة أو إذا كان عنده جعفر فيقول له أحب أن تشرف جعفرا [٣]

---

(١) من كتاب الأغانى .

(٢) انظر أخبار من غنى من أولاد الخلفاء فى الكتاب التاسع من الأغانى .

(٣) كذا فى كتاب الأغانى وربما قال الخليفة هذه الكلمات تحببا لأخيه وهى «لا تنقص من قدر جعفر شيئا» فقد ذكر صاحب العقد ١ : ١٠٠ أن منزلته كانت عظيمة حتى إذا دعا إبراهيم بن المهدى لجعفر قال له إبراهيم جعلنى الله فداءك إنما أسعد بمساعدتك وآنس بمخالاتك وأعاد القصة نفسها فى الكتاب الثالث صفحة ٣٤ وذكر فى الكتاب الأول صفحة ١٦٧ أنه لما زار جعفر سليمان صاحب بيت الحكومة قبل سليمان يده وقال له بأبى أنت ما دعاك إلى أن تحمل عبدك هـذه المنة التى لا أقوم بشكرها ولا أقدر أن أكافئ عليها . وذكر صاحب مروج الذهب ٢ : ٢٢٧ عن مسارة الرشيد لجعفر أنه كان إذا انصرف من مجلسه خرج الرشيد حتى يركب مشيعا له .

بأن تغنيه صوتا فيغنى . ولقد كنت ذات يوم فى خدمة أميرنا (أعزه الله) فغنى إبراهيم على أبيات لمروان بن أبى حفصة يقول فيها [١] :

طرقتك زائرة فحى خيالها زهراء تخلط بالجمال دلالها
هل تطمسون من السماء نجومها بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تدفعون مقالة من ربكم جبريلُ بلغها النبىَّ فقالها

فلما بلغ قوله « جبريل بلغها النبى فقالها » هز حلقه فيه ورجّعه ترجيعا زُلزلت الأرض منه ، فما أظن أحدا يقدر على أداء الأصوات مثله إلا إسحق المخالف له على هواه والمقر بما له من جميل الصناعة لولا أنه أفسد الغناء القديم وجعل للناس طريقا إلى الجسارة على تغييره .

وأول من غنى فى ذلك اليوم إبراهيم أبو اسحق وكان ذلك باشارة مسرور العبد إذ كان أمر المغنين مفوضا إليه [٢] ، وإذا أحب الرشيد أن يسمع صوتا [٣] أشار إليه فأشار هو إلى المغنين فغنى إبراهيم :

ولى كبد مقروحة من يبيعنى بها كبدا ليست بذات قروح
أباها على الناس لا يشترونها ومن يشترى ذا علة بصحيح

واللحن فيه ماخورى [٤] لا يعرفه أحد مثله . ثم غنى على أبيات قالها فى بعض قرى الرى :

أنا فى الرّىّ مقيم فى قرى الرى أهيم
ربما نبهنى الاخـ ـوان والليل بهيم
حين غارت وتدلت فى مهاويها النجوم
للتى تعصر لما أينعت منها الكروم

(١) الأغانى ٩ : ٧٢ والاتليدى ٢٨٧
(٢) الأغانى ٦ : ٧٤ والمسعودى ٢ : ٢١٩
(٣) العقد الفريد ٣ : ٢٤٢
(٤) الأغانى ٥ : ٣٦

ولحنها من الثقيل الأول باطلاق الوتر فى مجرى البِنصر (١) ثم غنى :

ألا ياسلمى يادار مى على البِلى ولا زال منهلا بجرعائك القطر

الشعر لذى الرُمة والغناء له بلحن خفيف الثقيل الثانى (٢) . ثم غنى :

وقفت على ربع لميـة ناقتى فمازلت أبكى عنده وأخاطبه

وأسـقيه حتى كاد ممـا أبثه تكلمنى أحجاره وملاعـبه

الشعر لذى الرمة أيضا والغناء ثانى ثقيل مطلق فى مجرى البنصر (٣) ، فأجاد إبراهيم حتى كأنَّ كل مافى المجلس يجيبه ويردد الصوت معه لحسن غنائه ، فطرب الرشيد حتى كان يقوم ويقعد ولا سيما من اللحنين اللذين سمعهما فى شـعر ذى الرمة لأنه كان يحفظ أبياته كلها فى صباه ، فكان إذا غُنِّى فيها صوت أعجبه أكثر من جميع الأصوات التى يصنعها المغنون فيما لا يحفظه من الشعر ، ففطَن إبراهيم لذلك وطلب إليه أن يُقطِعه شـعر ذى الرمة ويحظُر على غيره من المغنين أن يداخلوه فيه فأجابه إلى ذلك فأصاب إبراهيم عليه من الجوائز ما يتجاوز التقدير (٤) .

ثم أشار مسرور إلى إسمـاعيل بن جامع القرشى وهو من المتعصبين على إسحق فغنى :

لم تمش مِيلا ولم تركب على قتب ولم ترالشمس إلا دونهـا الكِلل

تمشى الهوينى كأن الريح تَرْجعها مشى اليعافير فى جيئاتهـا الوهل

الشعر للأعشى (٥) والغناء الأول لابن سُرَيج بلحن الرمل بالبِنصر (٦) ثم غنى بلحن خفيف الثقيل الأول بالوسطى (٧) على أبيات عمر بن أبى ربيعة :

---

(١) الأغانى ١ : ٢

(٢) الأغانى ٥ : ٣٩

(٣) الأغانى ١٦ : ١١٦

(٤) الأغانى فى الجزء الخامس .

(٥) العقد الفريد ٣ : ١٧٣

(٦) الأغانى ٦ : ٨٢

(٧) الأغانى ٦ : ٨٢

كان أحور من غِزلان ذى بقر أعارها شَبّهَ العينين والجيدا
أجرِى على موعد منها فتخُلِفنى فما أملّ ولا توفى المواعيدا
كانى حين أمْسِى لا تكلمنى ذو بغية يبتغى ما ليس موجودا

ثم غنى بلحن الهزج بالوسطى[١] على هذين البيتين :

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا فقالوا لنا ما أقصر الليلّ عندنا
وذاك لأن النوم يغشى عيونهم سِراعا وما يغشى لنا النوم أعينا

فأجاد إجادة يرتاح إليها أهل الطرب[٢] ممن يحب الخلاعة فى الأصوات ، فهو يميل إلى ظَرْف الغناء والنغمِ الكثيرِ العملِ[٣] كما يميل إلى ظرف المعاشرة والافتنان فى خلاعة الملبس[٤] .

ثم أشار صاحب السِتارة إلى إسحق بن إبراهيم صاحب هذا الفن فجاء غلام من غلمان الدار بعود هندى[٥] كان مودعا له فى خزانة المجلس[٦] قد أصلِحت أوتاره قبل ذلك الوقت ، لأن العيدان لا تصلح فى مجالس الملوك[٧] ، فضرب عليه نغماتٍ صاح لأجلها القوم جميعا ثم غنى :

قل لمن صد عاتبا ونأى عنك جانبا
قد بلغت الذى أرد ت و إن كنت لاعبا

---

(١) الأغانى ٦ : ٧٧ و ٨٢

(٢) المستطرف ٢ : ١٨٨ والأغانى ٤ : ٩٨ و ٦ : ٦٥

(٣) ذكر ابن جامع هذا صاحب العقد الفريد ٣ : ٢٣٩ وقال إنه أحلى المغنين نغمة .

(٤) الأغانى ٦ : ٩٦

(٥) ذكر العود الهندى الاتليدى ١٣٠

(٦) الأغانى ٥ : ١٠٩

(٧) الأغانى ٥ : ٥٨

الشـعر والغناء له ولحنه من الثقيل الثانى بالسبابة فى مجرى الوسطى[١] ، ثم غنى بلحن وضعه معبد فى أبيات لأبى صخر الهـذلى[٢] . وهى :

عجبت لسعى الدهر بينى و بينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

فياحبهـا زدنى جوى كل ليـلة ويا سـلوة الأيام موعدك الحشر

وإنى لتعـرونى لذكراك هِزة كما انتفض العصفور بلله القطر

هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى وزرتك حتى قيل ليس له صـبر

فطرِب الرشـيد وقال له زدنا يا أبا صفوان من غنائك ، وأبو صفوان كنيـة يلقبه بها عند التحبب[٣] ، فغنى بهذين البيتين :

الطـلول الدوارس فارقتهـا الأوانس

أوحشَت بعد أهلها فهى قفـر بسابس

غناءً لم أجد أحسن منـه موقِعا فى القلوب ، وكنت فى ذلك الوقت جالسا بمقُربة من أبيـه فقال " لو لم يكن من بدائع إسحق غير هـذا لكفى . « الطلول الدوارس » كلمتان و « فارقتها الأوانس » كلمتان أيضـا وقد غنى فيهما استهلالا وصاح و سجع ورجع النغمة واستوفى ذلك كله فى أربع كلمات وأتى بالبـاقى مثلَه . فمن شاء فليفعل مثل هذا أو ليقارِبه ". ثم قال " والله مافى زماننا فوق ابن سريج والغريض ومَعبـد ، ولو عاشوا حتى رأوه لعرفوا فضله واعترفوا له "[٤] والغنـاء

---

(١) الأغانى ٥ : ٧٥ و١٢٦ و٩ : ٥٤ و٥٧ والشريشى ١ : ٢١٢

(٢) الأغانى ٥ : ١٦ والوطواط ٩٠ والاتليدى ١٤٣

(٣) الأغانى ٥ : ٥٢

(٤) الأغانى ٥ : ٨٧ و١٢٨

لاسحق خفيف بالبِنصر . ثم وجد فى نفس الرشيد إقبالا عليه وطربا من صناعته فغنى لحنا صنعه فى شعر للمنخَّل اليشكرِى يقوله فى بعض بنات الملوك المناذرة [١] :

ولقد دخلت على الفتـا ةِ الخدرَ فى اليومِ المطيرِ
فدفعتهـا فتــدا فعت مشى القطاة إلى الغدير
فلثمتهـا فتنفسـت كتنفس الظبى الغـرير

فأجاد فى الغناء إلى ما وراء الغاية ، وقال الرشيد وقد كاد يخرج من ثيابه لشدة الطرب « والله ما الغنـاء الذى يلين العريكة ويُفسح فى الرأى والصـدر ويُحدث فى النفس طربا إلا غناء هذا الرجل » :

ثم أشير إلى فُلَيح بن أبى العوراء فغنى على لحن صنعه فى بيتين لعدىّ بن الرقاع العاملى [٢] :

وكأنهـا بين النساء أعارها عينيـه أحورُ من جآذرِ جاسِم
وسنانُ أقعـده النعاس فرنقت فى عينه سِــنة وليس بنـائم

ثم أتبعه بلحن من الثقيل الأول باطلاق الوتر فى مجرى البِنصر صنعه [٣] فى بيتين للمؤمل من شعراء الدولة الأموية :

ألا يا ظبيـــة البـــلد برانى طــول ذا الكمد
فـــردّى يا معـــذبتى فؤادى أوخذى جسدى[٤]

---

(١) الأغانى ٩ : ١٦٦ و١٨ : ١٥٢

(٢) المستطرف والشريشى ٢ : ٢٨٠

(٣) الأغانى ١٩ : ١٤٧

(٤) فى قول الشيخ ابن الفارض :

أخذتم فؤادى وهو بعضى فما الذى يضركم لو كان عنـدكم الكل

التفات إلى هذا البيت .

وهو يعارض فيــه اللحن الذى صنعه أبو اسحق فأجاد ولكنه قصر عن أن ينحو نحو صناعة الموصِلى ، وإن كان قد مضى فى بعض كتبى السالفة ما يشهد لموضعه الجليل من هذه الصناعة[١] ، إلا أنه قد وجد اليوم من برعه و برع الناس كلهم[٢] فى طيب المسموع ومحاسن الصنعة .

ثم أشير إلى مخارق[٣] من حزب إسحق ، وهو طيب الصوت يعد هو و إبراهيم ابن المهــدى وابن جامع وعمر بن أبى الكَنَّات من أحسن النــاس صوتا [٤] فغنى بصوت رخيم :

يا ربع سلمى لقد هيجت لى طربا زدت الفــؤاد على علاته وصــبا

فكنت أحسب أن الدنيا قد صارت أحزانا[٥] لمــا ألم فى غنائه من إبراز معنى البيت وما وراءه من توجع العاشقين ، ثم غنى :

إنى استحيتك أن أفوه بحاجتى فاذا قرأت صحيفتى فتفهمى [٦]
وعليــك عهــد الله إن أخبرتُه أحدا وإن أظهرته بتكلم

الشعر لابن هَرْمة والغناء لعبادل من مُغَنِّى الحجاز ، ثم غنى :

فبت فيما شئت من نعمة يمنحنيهــا نحــرها والفــم
حتى إذا الصبح بدا ضوءه وغارت الجوزاء والمُــرْزم
خرجت والوط خفىٌّ كما ينساب من مكمنــه الأرقم

الشعر لاسماعيل بن يسار والغناء له بلحن الرمل [٧] .

---

(١) ذكر مثل هذا الأغانى ٤ : ٩٨ ، ٩٩

(٢) الأغانى : وابن خلكان والاتليدى وحلبة الكميت .

(٣) ضبطه ابن خلكان ١ : ١١ بضم الميم .

(٤) الأغانى ٩ : ٣٥

(٥) الأغانى ٢ : ١٨٩

(٦) الشعر مذكور فى الحصرى ٢ : ١٨٣

(٧) الأغانى ٤ : ١٢٣

ثم غنى يحيى المكى بلحن صنعه فى بيتين لمحمد بن أمية من كتاب إبراهيم ابن المهدى[١] :

أحبك حبا لو يفيض يسيره على الناس مات الناس من شدة الحب
وأعلم أنى بعد ذلك مقصر لأنك فى أعلى المراتب من قلبى

ثم غنى بلحن خفيف الرمل[٢] :

طرقتك زينب والمزار بعيد بمنًى ونحن معرِّسون هجود
فكأنما طرقت بريا روضة أنُفٍ تسحسِحُ مزنُها وتجود

فكان لحنه كثير العمل حلو النغم صحيح القسمة محكم الصنعة ولولا ذلك ما أطرب الناس غناؤه وهو شيخ مسن :

ثم غنى سليم بن سلام من جماعة إسحق[٣] :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى
اغرك منى أن حبك قاتلى وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

ثم غنى[٤] :

أتيتك عائذا بك منك لما ضاقت الحيل
وصيرنى هواك وبى لحينى يضرب المثل
فان سلمت لكم نفسى فما لا قيته جلل
وإن قتل الهوى رجلا فانى ذلك الرجل

---

(١) الأغانى ١١ : ٢٤
(٢) الأغانى ٦ : ٢١
(٣) ذكر المسعودى ٢ : ٢٩٦ غناء بهذين البيتين .
(٤) الأغانى ١٨ : ٨٣

الشعر لمحمد بن أبى محمد اليزيدى ويكنى أبا عبد الله ، والغناء له ثقيل أول بالبنصر إلى أن قال :

وقفت على ربع لسلمى وعبرتى ... تَرَقْرَقُ فى العينين ثم تسيل
أسائل ربعا قد تعفت رسومه ... عليه لأصناف الرياح ذيول

واللحن له هزج خفيف بالسبابة[١] ، فطرب الرشيد وقال لو كنتَ حَمَماً الوادىَ ما زدتَ على هذا الاحسان فى هزجك [٢] .

ثم غنى حسين بن محرز بلحن صنعه يحيى [٣] المقدم ذكره فى هذين البيتين :

هل هيجتك مغانى الحى والدور ... فاشتقت إن الغريب الدار معذور
وهل يحُل بنا إذ عيشنا أَنِقٌ ... بيض أوانس أمثال الدُمَى حور

ثم غنى :

خمس دسسن إلىّ فى لطف ... حُورُ العيون نواعم زُهْر
فطرقتهن مع الجرى وقد ... نام الرقيب وحلّق النَسر

الشعر للأحوص والغناء لمعبد رمل بالسبابة فى مجرى البنصر[٤] ، فأجاد لكنه لم تظهر له صناعة يسمو بها إلى مقامات المتقدمين فى الغناء ، وكذلك جميع من غنى بعده فى ذلك اليوم إلا الزبير بن دَحْمان فانى وجدت لغنائه موقعا حسنا فى النفوس وكنت أرى الرشيد يتمايل طربا من غنائه إذ غناه :

رضيت الهوى إذ حل بى متخيرا ... نديما وما غيرى له من ينادمه
أعاطيه كاس الصبر بينى وبينه ... يقاسمنيها مرة وأقاسمه

(١) الأغانى ٦ : ١٢
(٢) الأغانى ٦ : ١٣
(٣) الأغانى ٦ : ١٩
(٤) الاغانى ١٦ : ٩٢

الشعر لبشار بن برد والغناء له هزج بالوسطى [١] ثم غنى :

أسرى بطارقة الخيـال وما أرى   شيئا ألذ من الخيال الطارق [٢]

أهواك فوق هوى النفوس ولم يزل   مذ بنتِ قلبي كالجناح الخافق [٣]

الشعر لجرير والغناء لابن عائشة رمل بالوسطى ثم غنى :

حييـا خَـوْلة مني بالسـلام   درة البحر ومصبـاح الظلام

لا يكنْ وعدُكِ برقا خُلّبـا   كاذبا يلمع فى عُرْض الغمام

واذكرى الوعد الذى واعدتنا   ليلة النصف من الشهر الحرام

الشعر لأعشى همذان والغناء لأحمد النصيبي ولحنه من القدر الأوسط من الثقيل الأول باطلاق الوتر فى مجرى البنصر وعروضه من الرمل [٤] فأجاد فى هذا الصوت الإجادة التامة حتى ليس فى المغنين من يقاربه بلحن الثقيل .

ثم تعاقب المغنون على طرح الأصوات فى نوباتهم فلم أستحسن منها إلا صوتا لعَبَيْثَر صنعه فى بيتين لابن الدُمَيْنة [٥] :

وأذكـر أيام الحمى ثم أنثنى   على كبدى من خشية ان تصدعا

وليست عشيات الحمى برواجـع   عليك ولكن خل عينيك تدمعا [٦]

---

(١) الأغانى ١٧ : ٧٣

(٢) العقد الفريد ٣ : ٢٣٦

(٣) الأغانى ٩ : ٥٠

(٤) الأغانى ٥ : ١٤٦

(٥) الأغانى .

(٦) العقد الفريد ٣ : ٢٤٠

و لحنا واحدا صنعه فى شعر وضاح اليمن :

إن الوشاة إذا اتو ك تنصحوا ونهوك عن

إنى يهيجنى اليك حمامتان على فنن

فاسق خليلك من شرا ب لم يكدره الدرن

الريح ريح سفرجل والطعم طعم سلاف دن

حتى إذا ظن فى نفسه اقتدارا على الصناعة وأراد أن يعارض إسحق باللحن الذى صنعه فى شعر العباس بن الأحنف وهو :

لا جزى الله دمع عينى خيرا وجزى الله كل خير لسانى

كنتُ مثل الكتاب أخفاه طىٌّ فاستدلوا عليه بالعنوان

سقط فى يده وقصر دون بلوغ المرام . وكان فى جملة المغنين رجل أعمى يقال له أبو زكار وهو شديد التعصب للغناء القديم وكان آخر من غنى فى ذلك اليوم بدأ بلحن صنعه فى هذا البيت :

يا راكب العيس التى وفدت إلى البلد الحرام

وثنّى بآخر لابراهيم الموصلى صنعه فى بيتين لعمر بن أبى ربيعة [١] وهما قوله :

ليت هندا أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما نجد

واستبدّت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبدّ

فلم تظهر له بهما صناعة إلى أن تغنى بهذه الأبيات :

يا أيها القلب المطيع الهوى أنّى اعتراك الطرب النازح

تذكر جُملا فاذا ما نأت طار شعاعا قلبك الطامح

(١) الأغانى ٦ : ١٥٠ وذكر ابن خلدون فى المقدمة أنه غنى الرشيد بهذين البيتين ليوغر صدره على البرامكة . وقد أنكر ذلك ١٥

هــلّا تناهيت وكنت امرأً يزجرك المــرشــد والنــاصح
ما لك لا تترك جهــل الصبا وقــد علاك الشَّمَط الــواضح

ولحنها ثانى ثقيل بالسبابة فى مجرى الوسطى (١) فأحسن كل الإحسان فى تأدية النغم كأنه لا تظهر صناعتــه إلا بغناء ما فى معناه زجر وتذكير من الأبيات (٢) .

ولمـا تولى النهار اومأ الرشيد إلى المغنين بأن يحلوا صفوفهم ، ثم فرق فيهم الجوائز بقدر أهليتهم من الصناعة ، فمن مصيب ألف دينار ومن مصيب خمسمائة ، ومن مصيب دون ذلك . ثم فرق فيمن يتخلل الغناء بضرب المعـازف دون ما فرقه على المغنين من المـال ، فأصاب الجوائز السنية أربعـة منهم وهم منصور زَلْزل (٣) وكان يضرب على عود من العيدان التى صنعها معارضة لعيدان الفرس وهى عجب من العجب (٤) ، وكانما تزلزل المجالس بحسن نغمها (٥) ، وبرصوم الزامر (٦) وهو أحسن الناس زمرا بناي ، كان إذا زمر فيــه يحدث النغم الذى يريده مـع صحة المقاطيع والتقسيمات حتى كأنه ينطق بين يديه بلسان آدمى . وجعفر الطبال وهو

(١) الأغانى ولكن لم يذكر لأبى زكار صناعة بها .

(٢) انما نسبت لأبى زكار صناعة النغم المحزن لأنى طالمـا ذكرت البيتين اللذين غنى بهما جعفرا قبل أن ينكبه الرشيد وهما قوله :

ولا تبعـد فــكل فتى سيأتى عليه الموت يطرق أو يغادى
وكــل ذخيرة لا بد يــوما وإنــ كرمت تصير إلى نفاد

فلم تمثل لى صناعته إلا بمثل ماذكرته لك بلسان الرواية .

(٣) ذكر صاحب العقد ٣ : ٢٣٩ انه مغن من الطبقة الثانية ولكنه قال بعد ذلك إنه كان أضرب الناس للوتر .

(٤) الأغانى ٥ : ٢٤

(٥) ابن خلكان ١ : ١١

(٦) ذكره الأغانى ٦ : ١٢ فى غير موضع والعقد الفريد ٣ : ٢٥٩ وقال إنه كان مغنيا .

يحسن التوقيع على الطبل [١] وكان يضرب بالكوبة [٢] فى ذلك اليوم ، ورابعهم الغريض وهو مشهور بضرب العود والتوقيع بالقضيب والنقر على الدف[٣] . ولما انصرف المغنون لم يبق فى مجلس الخليفة إلا إسحق النديم وجعفر والفضل من البرامكة وقد طلع علينا من هواء دجلة فى ذلك الوقت نسيم طابت النفوس به انتعاشا بعد هاجرة أصابنا بالنهار حرها ، حتى إذا رفعت أستار الطيقان التى تطل على حدائق القصر وقعت فى موضعنا شمس الغروب وهى ترسل علينا شعاعا متناثرا كالذهب يهتز فى نواحى المجلس كاهتزاز الغصن الرطيب تحت خطرات النسيم حتى كأن القصر يرقص بنا سرورا بأهله وعزة مقامهم الرفيع .

هذا ما أذكره لك عن المغنين وليس هو إلا المحفوظ فى ذهنى من غنائهم مجردا عن بيان طرائقهم فى الأصوات وصناعتهم فى وضع النغمات ، لأنى لو أخذت فى ذلك ما وعته الصحف الكثيرة الواسعة [٤] . وقد وقع تدوين هذه الرسالة فى غرة المحرم من السنة الخامسة والثمانين بعد المائة من الهجرة النبوية المشرفة على صاحبها أشرف الصلاة وأزكى التحية .

---

(١) الأغانى ١٤ : ٥٤

(٢) ذكرها القناوى ٢١

(٣) الأغانى ٢ : ١٢٩

(٤) راجع كتاب الأغانى إن شئت فيها مطولا

الرسالة السابعة

فى ذكر آداب العرب

هذه رسالة إليك أفردها لذكر آداب العرب وعلومهم ، فقد طالما شهدت مجالسهم بدار الرشيد فى محاورة فقهاء ، وحلق علماء ، ومنادمة أدباء . ومناظرة جدليين، ومراواة رواة ، ونوب مغنين[١]. وذلك من الحظوظ التى لا يتفق مثلها لغيرى من المتصلين بالملوك ، لأنى كنت أقرب الناس مكانا إلى الرشيد تحت ظل البرامكة ، وكنت من الحظوة لديه بحيث إذا جلست إلى منادمته عدل عن جلال موضعه من الخلافة ورجع إلى محاسن المنادمة من إطلاق النفس على صفاء الإخوان ، فكان يعمد إلى مخدة [٢] يجعلها تحت فخذه ويمكّن منها جلوسه ثم يقول هلم بحديثك [٣] ، وهـذا غاية ما يكون من الملوك إذا طابت نفوسهم بمنادمة الجلساء . وكنت إذا انفردت بمجلسه دون أحد من المقربين إليـه أخرج جواريه على غير ستارة فيجلسن مكللاتٍ بالأزهار [٤] مزينات باللؤلؤ والزبرجد [٥] وأنواع الجوهر فيغنين ويضربن بالملاهى إلى هُدْءٍ من الليل ، فإذا أتاه من الحرم [٦]

(١) واحدها نوبة وقد ذكرها الأغانى ٢٠ : ٦٤ بمعنى الاسم من المناوبة والناس اليوم يطلقون اسم النوبة على ضرب المعازف وآلات الطرب .

(٢) الأغانى ٥ : ١٢٢

(٣) الاتليدى ١١١

(٤) الأغانى ٧ : ٣٦

(٥) الأغانى ٤ : ٦٢

(٦) المسعودى ٢ : ٥٦

التفاح [١] المنقوش المطيب [٢] وغيره من الفاكهة وأنواع الحلوى عزم على أن أجلس الى طعامه [٣] ، وكان يحب أن أحدثه عن علوم الفرس وصنائعهم لِما طبع الله فيــه من الميل إلى الأدب والتشوق إلى الوقوف على أخبار المــاضين من الأمم ، ولذلك كانت دولته تزداد خيرا وصلاحا ، وينعم فيها العلم روحا واستر واحا. حتى اذا أقبل إليــه العلماء من جميع الوجوه يستمطرون غيث نداه حقق لهم جميل أملهم فيه ، و بسط يده لإقطاعهم الضياع العامرة ، وصلتهم بالهبات الوافرة .

وكانت همة الرشيد مصروفة إلى ترجمة كتب الفلاسفة من يونان وغيرهم ، بعد أن راى جعفرا وزيره يبتاع من صحفهم ما يأمر التراجمة بتعريبيه[٤] ثم يعطيهم زنة الكتاب المعرب ذهبا ، لأن سوق العلم نافقة عند البرامكة [٥] (أعزهم الله) وهم الذين استنهضوا همم العلمــاء إلى تعريب صحف الأعاجم ، وأشاروا بعمل الكاغد لنسخ أسفارهم ، وقــد رأوا الرُّقوق التي تستعمل فى الصكوك ورسائل السلطان لا تكفيهم فى تدوين مصنفاتهم ومعرباتهم فرأوا من عمل الكاغد [٦] ذريعة إلى نشر العلم الذى عنوا برفع مناره بحيث لم يدعوا سبيلا إلى انتفاع الأمة به الا سلكوه ، وقد أعقبهم هذا المسلك فخرا تتناقله الألسنة عنهم بطيب الأحدوثة فحسدهم الرشيد على ذلك ، وفى نفسه من الميل إلى الأدب والتشوق إلى الاطلاع على كنوز الحكمة ما قــد رأيت فى كتبى السالفــة إليك ، فأنفذ رسله فى إحراز الأسفار القديمة ، وكتب بأشخاص التراجمة الذين يحسنون العربية من الروم وغيرهم

---

(١) وجدت فى بعض الكتب أن الرشيد كان يحب التفاح و يقول هو أحسن الفاكهة لأنه اجتمع فيه بياض الفضة ولون التبر و يلذ به من الحواس العين ببهجته والأنف بريحه والفم بطعمه . العقد الفريد ٣ : ٣٧٥

(٢) الأغانى ١١ : ٣٥

(٣) العقد الفريد ٣ : ٣٠٠ والقناوى ٣٦

(٤) ابن خلكان ١ : ٢٣٦

(٥) الفخرى ٢٣٥ وابن عبد ربه .

(٦) المقدمة ٣٦٨

من أمم النصرانيـة ، وتقدم إليهم بتعريبها إلى اللغـة السهلة التى تفهمهما العـامة وترضى بها الخاصة .

فلما تناول العرب هـذه الأسفار مهروا فى استخراجها ووقفوا على أغراض الحكماء منهـا [١] ، فرقوا من الأدب المقـام الذى لم ترقه أمة قبلهم فى المشرق . وهـذا من الأمور التى تدل على ذكاء العرب [٢] ونبـل الهمة عندهم وأنهم يبلغون الغاية التى يرومونها من جميع المطالب فى برهـة يسيرة من الزمان ، فإنا لانجـد فى أخبار الأمم السالفة من حاز من أطراف الدنيا مثل ماحازه المسلمون فى مثل المدة التى وقعت فيها الفتوح ، فقد كان من شأنهم عند ما صار الأمر إلى بنى أمية أن حازوا أكثر الأقاليم وابتزوا الأعاجم سلطانهم ، ووصلوا من الشرق إلى السند والهند وتجاوزوا المغرب إلى أبعد من الأندلس شمالا . وما مثلهم فى سرعة هذه الفتوح إلا مثلهم فى سرعة تحصيل العلوم وبلوغهم من المدنية ، على قرب عهدهم بها ، ما لم تبلغه أمم العلم من قبلهم . فمن الغريب الذى ينطق بما عندهم من الهمة والفطانة أنهم لم يقتصروا من الحكمة على نقل فلسفة اليونان بل وجدناهم يرمون إلى اغراض من الفلسفة بعيدة ، ويضعون على قواعد اليونان شرحا [٣] أصابوا الرأى بالزيادة فيه بعـد البحث والتمحيص [٤] ، وذلك غير ما فتحوا من الأبواب الواسـعة للنظر فى العلوم الرياضية وتحريرها وإصلاحها وغير ذلك .

وكان أول عهد العرب بالعـلم فى خلافة أبى جعفر [٥] لأنه كان يعزز جانب الحكمة ويبحث عن مكامن العلم للوقوف على آداب الأولين ويعزم على أهل الكتّابة

---

(١) راجع المقدمة وكتاب حاجى خليفة .

(٢) المسعودى ١ : ٢٣٦

(٣) حاجى خليفة ٣ : ٩٢

(٤) ابن خلكان ١ : ٢٦٣

(٥) السيوطى وأبو الفرج ٢٤٦

أن يدونوا الأسفار الكثيرة لإذاعة العلوم بين الناس ، إذ لم يكن معروفا عندهم من قبله إلا علم الرواية وأخبار العرب وعلم الأحكام الشرعيــة واستنباطها من القرآن والحديث وعلم العروض الذى وضعه الله تعالى فى صدورهم وبضــاعة مزجاة من النجامة وعلم الأفلاك مما اقتبسوه من الفرس والهنود ، فلمــا جاءت هــذه الأيام تسحب عليهم أذيال الدعة والنعيم بعــد أن فرغوا من أعمال الحروب التى وقعت فى صدر هذه الدولة وجهوا هممهم إلى النظر فى فنون الأدب لتجديد ما طمس من معالم العلم ، فكتبوا فى جميع فروعه وفنونه بحيث إنه لو جمعت كتب أمة قديمة عهدٍ بالعمران ما وجد ما تحويه من العلم أعظم ممــا تحويه كتب العرب . وإنى أذكر أن الرشيد لمــا ركب إلى الرَقة فى بعض أسفاره حمل معه ثمانية عشر صندوقا من أسفارهم[١] ليقطع بمطالعتها زمانه مع أنه لم يأخذ منها إلا نخبة ممــا فى خزائنه وقد وجدت فى قصر بناه بالقاطول ليخرج إليــه للتنزه[٢] خزانة كتب تحتوى على أكثر من ألف كتاب . وحسبنا ذلك شاهدا على ما نروم ذكره من كثرة الصحف التى دونها العرب بين تعريب وتصنيف .

الطب والأطباء

كان أبو جعفر (غفر الله له) يوجه عنايته إلى علم الطب من بين العلوم فبنى لتعليمه حلقة كبيرة فوض أمرها إلى طبيب أعجمى يقــال له « فرات بن شحتانا » وهو من تلاميذ تياذوق[٣] الذى كان طبيبا بدار الحجاج أمير العراق ، فتخرج عليه طائفة من النصارى[٤] دون المسلمين ولست أحسب السبب فى إعراضهم عن هــذا العلم إلا ظنهم كفاية ما لديهم من المجرَّبات التى توارثوها من مشيخة الحى

(١) الأغانى ٥ : ٦٧

(٢) ابن الأثير ٦ : ١٦٦

(٣) أبو الفرج ٢٠٠

(٤) فى الأغانى ومقدمة ابن خلدون ذكر كثير من أطباء النصارى دون المسلمين .

وعدم حاجتهم إلى مثل هذه الصناعة فى كسب الرزق وترفعهم عنها كبرها أنفة .
وذلك خطأ عليهم شَيْنه وخسرانه ، إذ قد خلت منهم فى دور الخلافة مراتب
اسندت إلى أطباء النصرانية فبرعوا عليهم فى هذا العلم وعرّبوا كتب جالَيْنوس
وأبقراط من حكماء اليونان وأضافوا إليها كثيرا مما عرفوه من علم الحيوان بعد وقوفهم
على مقالات ارسيخاس[1] وديمقراطيس[2] وغيرهما من العلماء الذين يُرْجع إلى
كلامهم فى طبائع الحيوان وخواصه ومنافع النبات ومضاره .

ولقد كان مُظْهِر الطب فى النصرانية رجل يقال له ماسويه أبو حنا وكان أميا
لا يعرف القراءة إلا أنه تلقى الطب من أفواه اليونان وطالت به المرانة والتجربة
فيه إلى أن بلغ منه المكان الذى لا يدفع ، وكان له ولدان يقال لهما يحيى ويوحنا
فتخرجا عليه فى علمه ومعهما ثالث يقال له جبريل بن بختيشوع فبرعوه فى شفاء
الأمراض .

فأما يوحنا فإنه صار طبيبا بدار الخلافة ودوّن رسالة طويلة أودعها ما عرض
له من التجربة فى معالجة أهل السَقام ، واتخذ مجلسا أفرده للنظر فى استنباط طرق
العلاج باجتماع الرأى مع غيره من الأطباء، وكان الرشيد قد ولاه ترجمة الكتب[3]
التى وصلت إليه من مدوّنات الأطباء والحكماء مثل أبقراط وجالينوس وغيرهما
فأحسن تعريبها كل الإحسان مع ما وجد فيها من الصعوبة التى نال منها مشقة
عظيمة . وذلك بخلاف الكتب التى عرّبت فى خلافة المهدى وأبى جعفر فإنها
لم تكن جديرة بالثقة بها ولا الالتفات إليها ، إذ كانت عارية من القواعد التى
وضعها الحكماء وليست تحوى سوى طرق من العلاج أشار بها ضعفاء العقول من
الأطباء، وكانت إلى الجهل والخرافة اقرب منها إلى العلم والحقيقة، فلم يجد التراجمة

---

(١) المسعودى ١ : ٩٢

(٢) حاجى خليفة ٣ : ١٢١

(٣) أبوالفرج ١٣٧

فى تعريبها عناء يجهد النفس . أما الكتب التى عربها ابن ماسويه فإنها من أصح ما صدرت به أقلام اليونان وأنفسه .

وأما جبريل بن بختيشوع فإنه تبحر فى جميع العلوم الداخلة فى علم الطب ، وكتب فى حياة الحيوان رسائل[١] تدل على سعة اطلاعه، وكان جعفر[٢] (أعزه الله) شديد الحب له والاحتفاظ به حرصا على ما وسع صدره من العلوم ، فقربه الرشيد إليه برأى البرامكة واتخذه فى دور الخلافة بدل صالح الهندى الذى كان مقدما[٣] من قبله على أطباء بغداد ، فلما صار إلى هذا المقام الجليل ورأى الناس يرجعون إلى رأيه فيما يشير به من هذا العلم حملهم على الإعراض عن الدجالين ، وهم الشيوخ الذين بعدت المهابة عنهم ودل ما بلغوه من الشيخوخة على بلوغ الخَرَف منهم فيزعمون أنهم يَطُبُّون الناس بالمواعظ[٤] يملكوا أفئدة العوام بما لا فائدة فيه من الخرافة ، فوفق بعلمه إلى بلوغ الغاية التى رامها من قطع السبيل عنهم دون الارتزاق بهذه الجهالة التى تميت الأذهان الضعيفة .

ويأتى بعد جبريل بن بختيشوع ويوحنا بن ماسويه طبقة ثانية من الأطباء كلهم من أمة النصرانية إلا عيسى أبا قريش الصيدلانى، وليس هو بطبيب ماهر ولكنه رزق الشهرة بين الناس عن اتفاق وقع له بأن بشَّر الخيزُران فى خلافة أبى جعفر بأنها تحمل مولودا ذكرا يصير إليه أمر الأمة، فلما ولدت وكان ما ولدته غلاما أفرغت النعمة عليه واتخذته طبيبا فى دار الخلافة[٥] ، وقد سمعت من يقول إن الخيزران إنما قربته لمهارته فى الحجامة لا فى الطب ، فإن صحت الرواية كان

---

(١) حاجى خليفة ٤ : ١٢٥
(٢) أبو الفرج ٢٣٥
(٣) أبو الفرج ٢٣٨
(٤) المسعودى ٢ : ٥٨
(٥) أبو الفرج ٢٩

عندى أحق بالثقة به حجاما منه بالثقة به طبيبا ، إذ لست أثق من الطب إلا بما يحفظ الصحة للصحيح ، اما وسائل العلاج التى يزعمون أنها تبعد العلة عن العليل بعد تمكنها منه فما أنا من الثقة بها على شىء ، لأنى أحسبها من باب الغوص على أسرار الطبيعة ، وطالما وجدت للاطباء فى العلة الواحدة آراء متباينة ، ومن المعروف عند العقل أن الخلاف فى الامر الواحد لا يطابق الحق فيه الا وجه واحد أما الحجامة فإنها على خلاف ذلك ، والرأى فيها واحد يقضى بحذف الجزء الفاسد وفصله ، وإنى وإن كنت على بعد من الطب لا أجد بدا من الإقرار بفضل العرب فيما استنبطوه من العلاج وما عرفوه من مركبات العقاقير التى لم يسبق إليها احد من المتقدمين ولا المتأخرين ، ولا غرو فإن للطب صناعة لا تبلغ غاية منها الا على طول التجربة والاختبار فى المرانة والممارسة ، ولذلك كان المتأخرون يفضلون فيها المتقدمين فى كل عصر وأمة ، وقد قال على عليه السلام [1] :

ألا لن تنال العلم إلا بستة ... سأنبيك عن مجموعها ببيان
ذكاء وحرص واصطبار وبُلْغة ... وإرشاد أستاذ وطول زمان

النجامة وعلم الأفلاك

لقد سبق الإلماع إلى ذكر النجامة وأنها من العلوم التى كانت معروفة قدما عند العرب ، غير أن الاجتهاد فيها كان محصورا فى نفر قليل من أتباع الأقيال الذين تداولوا ملكهم قبل الإسلام ، فلما جاء أبو جعفر قرب إليه المنجمين وقدم عليهم نوبخت [2] المنجم المشهور عندنا بين أعاظم المجوس وفضلائهم ومن له كبير علم وجزيل فضل ، فاتخذ فى الزوراء حلقة شهدها كثير من الناس ، إلا أنه لم

---

(١) الكنز ١٣٩ والشبلنجى ١٠٢

(٢) ذكره القزوينى وابن الأثير وغيرهما فى استشارة أبى جعفر إياه فى بناء الزوراء .

يخلفه فى علمه كالموصِلى المنجم ، فانه كتب فى الاصطرلاب سِفرا أودعه من علم الكواكب وسيرها وحركاتها أصولا يُعيرها العلماء جانب الثقة والاعتبار ويرجعون إليها فى علم النجامة والأفلاك .

ثم نجم بعده فى المسلمين على بن عيسى الأصطرلابى[1] وإبراهيم الفزارى المنجم ومهرا فى استخراج النجامة من كتب الفرس ، وقد عثرت فى خزائن البرامكة (أيد الله دولتهم) على أرجوزة فى علم الأفلاك وهيئتها نظمها إبراهيم هذا المنجم[2] فجاءت ناطقة بحسن نظره ولطيف مأخذه وجليل موضعه من هذا العلم . وله كتاب مشهور فى الزيج ذكر فيه من غير حركات الكواكب جوامع من مساحات الممالك والبلدان أذكر مما قيده فى أقاليم الاسلام أن عمل أمير المؤمنين من فرغانة وأقصى خراسان إلى طنجة بالمغرب ٣٨٠٠ فرسخ والعرض من باب الأبواب إلى جُدّة ٦٠٠ فرسخ ، ومن الباب إلى بغداد ٣٠٠ ، ومن مكة إلى جدة ٣٢ ميلا[3] ، وعمل الأندلس لعبد الرحمن بن معاوية ٣٠٠ فرسخ ، وعمل إدريس ١٢٠٠ فى ١٢٠ فرسخا ، وعمل فاس لأبى المنتصر ٤٠٠ فرسخ فى ٨٠ فرسخا[4] . ثم نبغ بعدهما تيوفيل بن توما الرهاوى[5] وكان المقدم على جميع المنجمين فى خلافة المهدى (رحمه الله) ، وكانت له معرفة تامة باليونانية حتى سما إلى ترجمة كتاب شاعر يقال له أميروس عن فتح مدينة إيليون فى العُصُر الخالية إلى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة[6] ، وأميروس هذا شاعر مجيد كان يغترف المعانى من بحار

---

(١) المسعودى ٢ : ٤٠٠

(٢) المسعودى ٢ : ٤٠٠

(٣) المسعودى .

(٤) ذكر ابن خلدون فى المقدمة منجما من الروم يقال له تيوفيل الرومى وأنه كان فى أيام بنى أمية .

(٥) أبو الفرج ٢٢٨

(٦) المقدمة ٥٣١

التصور و يبرزها فى الصورة التى يعجز عن مثلها الشعراء فوقف نظمه بين الحكمة والإجادة موقفا لا يسمو إلى متناوله إلا العقول النيرة والأذهان الثاقبة ، وقد أثنى عليه أرسطو[١] فى كتاب بمديح يرفعه إلى أسمى مقامات العقول .

أما المنجمون فى هذه الأيام فهم اثنان مشهوران ما شاء الله اليهودى ، وأحمد ابن محمد النهاوندى ، ودونهما فى الشهرة ثالث يقال له محمد بن موسى[٢] المنجم . فأما ما شاء الله فيقال إن له حظا فى علم الغيب[٢] ، وكان فى جملة المنجمين الذين اتصلوا بأبى جعفر بعد نوبخت وكسبوا الإنعامات منه ، وهو اليوم بدار الترجمة آخذ عن أمر الرشيد بتعريب الكتب التى تبحث فى علم الأفلاك . واما أحمد النهاوندى فانه فى الموضع الأجل من علم الرصد ألف فيه كتابا سماه المستمال وأودعه من تحقيق النظر وتعميق الفكر فيما عرض له من أمور الفلك بما رصد فى مدينة جنديسابور ما لم يسبق إليه أحد من المنجمين ، ودوّن فى الموازنة بين علوم الفرس والهند واليونان فيما عرفوه من النجامة وسلكوا طريقته إلى آخر زمانهم كتابا آخر صوّر فيه الدنيا كلها للرشيد بحورها وجبالها وأوديتها وأقاليمها و بلدانها وسائر أماكنها ، وجعل الدرجة خمسة وعشرين فرسخا والفرسخ اثنى عشر ألف ذراع والذراع اثنتين وأربعين إصبعا ، والأصبع ست حبات وتسعين مصفوفات بعضها إلى بعض[٣] ، وهذا مما يحتاج إلى دقة النظر فى معرفة عرض الأرض وطولها ومناسبة الأقاليم فيما بينها وغير ذلك .

وقد أهدى إلى هذا المنجم نسخة مصورة من كتاب المستمال فى السنة الرابعة والثمانين بعد المائة من الهجرة ، ولكنه أخبرنى أنه لم يرسله بين الناس لما يحتاج

---

(١) الأغانى ١٥ : ٨١

(٢) أبو الفرج ٢٤٨

(٣) ذكرها المسعودى ١ : ٢٧٨

إليه من المراجعة والاصلاح بسبب ما يعرض له من أمور الفلك الذى يباشر رصده فى هذا الوقت .

ولقد مضى فى كلامنا عن الطب أن النصارى برعوا فيه على المسلمين وكذلك نقول فى هـذا الباب إن الفرس برعوا فى النجامة على العرب ، لأنى رأيت هؤلاء يتجافون عنها و يعدونها هى والسحر[١] الذى ينهى الشرع عنه علما واحدا، بخلاف جماعتنا من الفرس فإنهم يوجهون عنايتهم إلى العلا فى مباحثهم ومناظراتهم، ولذلك تجد انصبابهم إلى الرصد وما ينبئ عنه من إشارات النجوم والكواكب أعظم من انصبابهم إلى ما سواه من العلوم، وكان المقرِّب لهم فى الإسلام أبو جعفر المنصور[٢] كما ذكرت ذلك فى مواضع من الكتاب لأجل أن يطلعوه على طوارئ الجو وحدوث الأنواء وانتقال الشمس والقمر والكواكب فى بروجها و ينبئوه عن جدب الأرض وخصبها لمـا يكون من معرفة ذلك قبل أوانه من المنفعة العظيمة للملوك، ثم قربهم البرامكة (أكرمهم الله بأكرم الكرامات) لاستشارة الأصطرلاب [٣] فى جلوسهم وركوبهم وما يباشرون من جميع الأعمـال ولينظروا فى النجوم و يدركوا علم الأبعاد و يوقعوا زمن الكسوف [٤] وعقدوا لهم مجالسا يتناظرون فيه لتحقيق ما يستنبطونه من حركات الكواكب المتحركة والمتحيزة وأسبابها بطرق هندسية ، وما يرون من الأفلاك التى تختص بالكواكب الثابتة وغير ذلك . وتقدموا إلى من له علم بالنجامة

---

(١) القناوى ٥١

(٢) السيوطى .

(٣) ذكر صاحب الأغانى والاتليدى أن جعفرا استشار الاصطرلاب يوم نكبه الرشيد .

(٤) العقد الفريد ٢ : ٧٨٥ و ٢٤ المقدمة .

أن يعرب كتاب المجسطى لبطليموس من حكماء يونان واتخذوا آلة للرصد تعرف بذات الحلق [١] فكان يجتمع عليها المنجمون وفيهم جماعة من أدباء العرب الذين لم يشاركونا فى هذا العلم إلا بما يلتمسون من معرفة الأيام والشهور والسنين من طريق حركة كل كوكب وهو الفرع الذى يسمونه بعلم الأزياج [٢] .

الحديث وعلوم الشرع

الحديث هو العلم الذى هوت إليه أفئدة المسلمين ، وكان شأن العرب فيه فى صدر الإسلام أن رحلوا من بلد إلى بلد ليسمعوه من الصحابة ثم من التابعين ثم ممن سمع من التابعين من غير أن يدونوه فى الصحف ، فلما أسرع الموت فى العلماء وكانوا كلهم شيوخا فزع أهل العلم إلى الطروس وأخذوا يدونون [٣] الحديث مثل ما وجدوه فى الناس محفوظا بطريق الإسناد ، ولكن من غير أن ينظروا فى الرواية النظر الجلى ولا أن يعتمدوا فى النقد الأصل المرعى . فكتب ابن جريج بمكة ، [٤] ومالك بن أنس بالمدينة ، ومَعْمَر باليمن ، وسفيان الثورى بالكوفة ، وهشيم بن بشير [٥] بالعراق ، والأوزاعى ببيروت [٦] من ساحل الشام ، وحماد بن سلمة وشعبة بن الحجاج وابن أبى عروبة بالبصرة ، وذلك كله فى خلافة أبى جعفر [٧] رحمه الله . وكان

---

(١) وقال إن المأمون أول من اتخذها فى الإسلام وإنها كانت معروفة عند اليونان كما تستدل على ذلك من العقد الفريد .

(٢) المقدمة ٤٢٧ وحاجى خليفة ٣ : ٥٦

(٣) الزرقانى ١ ٥ : ١٠

(٤) الزرقانى ١ : ١٠

(٥) ابن خلكان ١ : ٥٢ والاغانى ٥ : ٥٤

(٦) حاجى خليفة ٣ : ٢٨ وذكر ابن الأثير وأبو الفداء وفاته سنة ١٥٧

(٧) السيوطى

أصحهم حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مالكُ بن أنس وهو رأس المحدثين(١)، رأيته إذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته وتمكن فى جلوسه بوقار وهيبة ثم حدث ، فقلت له فى ذلك ، فقال أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحدث به إلا متمكنا على طهارة ، وكان يكره أن يحدث على الطريق أو قائما أو مستعجلا، ويقول أحب أن أتفهم ما أحدث به عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم إنه لما جاء هذا العصر والناس مطلعون على حكمة الفرس واليونان وما فى أنواعها من الخروج عن الملة ، أخذ الأئمة فى وضع علم الكلام صيانة للدين أن تخالطه البدع ويقع فيه التخالف ، ثم أخذوا فى تمييز المحفوظ من الحديث كله لمعرفة الصحيح من الفاسد الموضوع ، وكان أول من أخذ فى ذلك فقيه الإسلام أبو يوسف، وكان من علية أهل الحديث وهو الذى آخذ الناقلين بأغلاطهم (٢) ونبذ الموضوع من أحاديثهم ، وكان يقول اثنان لا يسلمان من اثنين من طلب النجوم لم يسلم من الفقر ، ومن طلب غرائب الحديث لم يسلم من الكذب (٣) ، ثم أخذ أخذه العلماء المجتهدون من بعده ، ومنهم أبو سحق الفزارى وعبد الله ابن المبارك وهما أشهر الأئمة لأيامنا هذه ، والرشيد لا يسمع الحديث إلا عنهما . ولا يلتمس الرد على الزنادقة إلا منهما فكان إذا آخذ على الزندقة جماعة يقولون له وهو يضربهم الحدود أين أنت يا أمير المؤمنين من ألف حديث وضعناها عن النبى صلى الله عليه وسلم ما فيها حرف نطق به ؟ فيقول لهم وأين أنتم يا أعداء الله من أبى إسحق وابن المبارك يتخللانها فيخرجانها حرفا حرفا(٤) .

(١) ابن خلكان ١ : ٦٢٦

(٢) ابن خلكان ٧٦٠

(٣) العقد الفريد ١ . ١٩٩ و ٢٠٣

(٤) السيوطى .

ولقد أخبرنى هـذان الإمامان أنهما يؤلفان فى فقه الدين وعلم الكلام رسائل يذكران فيها مذاهب الأئمة ثم يتطرقان منها إلى الرد على الذين يقولون بخلق القرآن ويزعمون أنه يحوى غير العربى الفصيح من الكلام ، وهذان المذهبان [١] فاشيان اليوم بين النـاس ، والأول منهما أشد خطرا على الإسلام لأن زعم الخروج عن اللغة ضعيف الحجة واهى الدعامة بما يعلم عن العرب أنهم خالطوا الأمم فى تجـاراتهم وأسفارهم وعلقوا من لغاتهم ألفاظا استعملوها فى أشعارهم ومحاوراتهم حتى جرت مجرى العربى الفصيح ، فمـا ورد فى القرآن من الألفاظ الأعجمية إنمـا دخل فى العربية الفصحى بطريق الاستعمال والتعليق[٢] بحيث إنه لا يكاد يرى فيه من هذه الألفاظ ما لم يرد فى شعر البلغاء من الجاهليين ، وفى هذا القدر كفاية للرد على هؤلاء المفترين فيما يزعمون . أما الذين يذهبون إلى أن القرآن مخلوق فللعلماء من أهل الاجتهاد حجج قامعة لافترائهم على الله مخمدة لنـار الفتنه التى كمنت طى مذهبهم ، وهـذا من الأمور التى ينبغى أن ينظر فيها الأولياء بعين الحذر ، لأن الفتنة لا تؤمن غائلتها بعد فساد الدين ، ويكون آخر أمرها بوارا على الدولة ومدعاة لسقوط العرب الذين مافتحوا البلدان وحازوا سلطان الأعاجم إلا بنخوة الدين وفتوة الإسلام .

ولقـد عثرت فى مدونات الفقه على كتب جليلة أجلهـا كتاب لأبى حنيفة فى الكلام[٣] اسمه الفقه الأكبر ، وله فى هذا العلم الشأو الذى لايدرك ، وكتاب لمـالك بن أنس سماه الموطأ ، وذهب فى استنباط الأحكام الشرعيـة من القرآن والحديث إلى مذهب ينفرد به عن مذهب أبى حنيفة ، وهو الكتاب الذى يقرؤه الرشيد ويحفظه فى صدره[٤] تفضيلا له على غيره من كتب الفقه . وعثرت أيضا

(١) الدميرى ١ : ٩٨ والكشكول والاتقان ١ : ٦٨ وابن الأثير والاتليدى ١ ٢٤١ وغيرهم .

(٢) الإتقان فى تفسير القرآن ١ : ١٤٩

(٣) حاجى خليفة ٤ : ٤٥٧

(٤) الزرقاوى ١ : ٩

على كثير مما دوّنه العلماء فيما يُشْتَق عن الفقه من علوم الأحكام ، منها لأبى حنيفة وأبى يوسف رحمهما الله ، ومنها لابن شُبْرُمة وابن أبى ليلى[١] ، وقد أفردا نظرهما فى علم الفرائض . ومنها كتاب لفتى يقال له يحيى بن أكثم جمع فيه ما استحسن من آراء أصحاب المذاهب ، وهو الكتاب الذى أصبو إلى مطالعته من بين هذه الصحف الشرعية ، لأنى وجدت قِبَلَ صاحبه من قوة الفطنة[٢] وصدق الحَدْس ما يؤكد لى أنه إن مدّ له فى العمر سيبهر الفقهاء .

أما الكتب التى وقفت عليها فى علوم الحديث فإنها أكثر من أن يأخذها الإحصاء[٣] ، غير أن الإفادة منها كانت محصورة فيما جمعه كبار العلماء وبقى أن جملة ما فى غير كتبهم مراجعة وإعادة لما سبقوا إلى تدوينه ، فكان أنفع للعلم لو صرف الباقون عنايتهم إلى النظر فى غير ذلك من العلوم ولم يضيعوا العمر فى نقل ما سبقهم إليه العلماء .

فى تدوين اللغة

أما اللغة فان العلماء قد وضعوا قواعدها على اصول وقفت عندها الغاية فى الإصلاح وتدقيق النظر ، لأنه قد سبق اهتمامهم بها اهتمامهم بما سواها من العلم اضطرارا إلى تفسير القرآن ، إذ كانت الكتابة مجهولة عندهم فى صدر الإسلام ولم يكن يكتب بالعربية غير بضعة عشر إنسانا[٤] وكانت ألفاظ العرب بعضها محفوظ فى صدور الرجال ، وكثيرها ضائع بين الرمال ، فبادروا إلى التقاطها من البادية يطرقون منازل أهلها ويشهدون محاوراتهم ويتتبعون آثارهم ويستنطقون أطلال ديارهم حتى وقفوا على ما كان متفرقا من لغاتهم ، وقيدوها فى الصحف بطريق الرواية والإسناد ،

---

(١) حاجى خليفة ٤ : ٣٩٦

(٢) ابن خلكان ١ : ٩٢

(٣) كتاب حاجى خليفة .

(٤) العقد الفريد ٢ : ٢٠٦

وكانت حروف الكتابة فى أول الأمر موضوعة بغير علامات [١] وظل الناس يقرءون فى مصحف عثمان وهو بتلك الكتابة نحوا من أربعين سنة حتى كثر التصحيف لوجود الحروف المتشابهة . [٢] وما أستغرب أن يقرأ بعض الناس وما يجحد بآياتنا إلا كل جبار والأصل ختار، وعذابى أصيب به من أساء والأصل اشاء، وهم أحسن أثاثا وزيا والأصل ورئيا، والذين كفروا فى غرة وشقاق والأصل فى عزة إلى غير ذلك ، فوكل عبد الملك بن مروان إلى النضر بن عاصم أن يضع علامات لهذه الحروف المتشابهة فوضعها لها أفرادا وأزواجا فتميز بعضها عن بعض ومُحِي التصحيف فى القراءة .

وضبط اللغة كان لما يحتاج إليه العلماء من حفظ الحديث وتفسير القرآن الكريم بما دوّنوه من لسان قريش وغيرهم .

وأول من دوّن اللغة مجموعة فى كتاب واحد الخليل بن أحمد الذى قدّمت لك فى الكلام على البصرة ذكره ، وقد ضمن كتابه [٣] أصول اللسان العربى وقيد ألفاظه فى مواضعها فى الاشتقاق إلا ما كان دخيلا عليه من كلام الأعاجم فانه اكتفى من ذكره بالإشارة إلى عجميته ، وأسند روايته فى ذلك كله إلى أكابر الحفاظ ولذلك صار قوله حجة يرجع إليها ، ثم دونها بعده كثير من العلماء منهم ابو الحسن على بن حمزة الكسائى مؤدب الأمين والمأمون [٤] من أولاد الرشيد ، ومنهم سيبويه [٥] والفرّاء والأخفش وعلمهم النحو فقط إلا الفراء فإنه كثير الفضل على

---

(١) حاجى خليفة ٣ : ١٥٤

(٢) ابن خلكان ١ : ١٥٧

(٣) هو أول معجم كتب فى اللغة العربية .

(٤) المسعودى ٢ : ٢١٣ والأبشيهى ٢ : ١٣

(٥) وقت أبو الفداء ٢ : ١٦ ؛ وفاة سيبويه بسنة ١٨٠ للهجرة وقال إنه كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو . وجرى له مع الكسائى البحث المشهور فى قولهم « كنت أظن لسعة العقرب أشد من لسعة الزنبور» قال سيبويه فإذا هو هى وقال الكسائى فإذا هو إياها فانتصر الخليفة للكسائى فحمل سيبويه من ذلك هما وترك العراق وسافر إلى شيراز وتوفى هناك

العربيـة بضبطها وتخليصها[١] ، وقد بلغتنى جلالته فى العلم ولكن لم يجمعنى و إياه مجلس إلى هـذا اليوم [٢] ومنهم أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى البصرى وقـد وقع إلىّ كتاب له فى فقه اللغة لتعليم الرشيد [٣] قبل تشرفى بتأديبه، وقد أودعه كلام العرب وقيود لغتهم وذكر المترادفات التى وردت لهم فى جميع الأسماء والأفعال والأوصاف مشيرا إلى صحة استعمالها فى مواضعها من الكتابة ، وأتى على متابعة الألفاظ التى تصف الأشياء على ازدياد فى معناها أو نقص يبعدها عن الكتابة .

وهـذا الكتاب يفتقر إليه كل كاتب من أبنـاء العرب الذين ينزلون الأمصار وينقطعون عن أهـل البادية الذين يحافظون على قوام اللسان العربى[٤]، لأنى قد وجدت مباينـة بين كلام العرب واصطلاحات المتمصرين حتى تكون اللغـة عند هؤلاء غير اللغة عنـد أولئك ، فأما إذ انقسمت قسمين فيكون القسم البدوى هو الحافظ لمحاسن اللغة التى كان ينطق بهـا البلغاء والشعراء ، ويكون القسم الحضرى قطعـة من كلام العرب يخالطها كلام السوقة [٥] وألفاظ المعربين فيما ينقلونه من كلام الفرس واليونان ممـا لا نجد له مسمى فى لسان العرب ، لأن لغتهم إنما وضعت للبادية حيث لا تكون هذه الأشياء التى نجد أسماءها فى كتب الأعاجم، كما أن فى لغات الأمصار إضرابا عن تسمية الأشياء التى لاتوجد إلا فى بادية العرب .

ثم إنى وجدت عند أهل اللغة قصورا تسامحوا فيه وتغاضوا عنه ، وذلك أنهم عند ما يصرفون الكلام يسردون لغـة القبائل فيه من غير أن يشيروا إلى ما كانت

---

(١) ابن خلكان ٢ : ٣٣٨

(٢) ذكر أبو الفداء أنه ولد فى أيام يزيد بن عبد الملك وتوفى سنة ١٨٧ بعد البرامكة .

(٣) ابن خلكان ١ : ١٥٢

(٤) يظهر هذا مما نقله الأصمعى وغيره من كلام العرب .

(٥) ذكر الأغانى كلام السوقة فى زمن الرشيد ٣ : ١٧٣ فى غير موضع أما ابن خلدون فيقول فى المقـدمة ١٥ أما ملكة اللسان فكانت محفوظة فى الأمصار إلى عهد الزمخشرى وأمثاله من فرسان الكلام .

تختلف فيه لغة قوم عن آخرين ، ولقد ذكروا للأسد نحو ألف اسم ولكن من غير أن يذكروا الاسم أو الأسماء التى كانت تسميه بها عرب كذا وكذا ، وذكروا للبعير والحية وسائر الحيوانات والأشياء والأوصاف مثل ذلك مع إغفالهم مانحن نؤاخذهم به ، حتى لقد نجد فى تصريف الأسماء إلى ما يشتق منها من المعانى مضادة أغفلوا ذكر استعمالها بين العشائر كاستعمالهم وثب بمعنى جلس وطفر وذلك من الأضداد التى لا أظن أنها تجتمع فى كلمة واحدة عند قوم من العرب، فان الوثوب بمعنى الجلوس فى لغة حمير ، وبمعنى الطفر فى لغة قريش[١] . إلى غير ذلك[٢] .

الشعر فى البداوة

العروض علم وضعه الله سبحانه فى صدور العرب حتى لا يوجد أحد منهم إلا وهو يقدر على قول الشعر طبعا ركب فيهم قل القول أو كثر[٣] ،وكان أهل الجاهلية ينطقون به عن بلاغة لا يقصدون بها إلا المفاخرة بين الأقران كما سمعت الأصمعى يقول « الشعر جزل من كلام العرب تقام به المجالس وتستنجح به الحوائج وتشفى به السخائم » بخلاف ما نجده فى شعراء هذا الزمان فإنهم يغصبون أنفسهم على الإنشاد بما يستميحون الملوك من الأرفاد . وعندى أنه كلما تباعدت أجيال

---

(١) فى القاموس الوثب الطفر والقعود بلغة حمير .

(٢) قيد العلماء فى كتب اللغة كثيرا من الأفعال التى تشترك فى معنى الشىء الذى له نقيض من نفسه مثل الهزال والسمن والصعود والانحدار والحضور والغياب وغير ذلك فربما عبروا عن الشىء ونقيضه من هذه الأسماء والأفعال والأوصاف بلفظة واحدة مشتركة بين المعنيين باعتبار أن الجبل مثلا لا يحدر منه الرجل إلا أن يكون قد صعد إليه ثم لا يعقب الصعود إلا الانحدار وكما أن الرجل لا يغيب إلا بعد أن يكون حاضرا كما أنه لا يحضر إلا بعد أن يغيب وهذه هى الألفاظ التى يصح أن تسمى بألفاظ المشاركة وإنها لكثيرة فى كلام العرب .

(٣) الأغانى ٢٠ : ٥١

الاعراب . وامتزجت بهم الأغراب وتجافوا عن سكنى البادية إلى حيث لا يكون لهم مجالس للمناشدة كدأبهم فى سوق مَجَنَّة وسوق عُكاظ وسوق ذى المجاز [١] فقدوا كثيرا من بلاغة الشعر وضاق مذهبهم به على اتساع الحضارة فيهم إلى أن يكلِّفوا طبيعتهم شيئا لا يقدرون عليه فيقولون البيت ويحككونه أياما [٢] .

وإنما سهّل على المتقدّمين الإجادةَ فى هـذا الفن أنّ شاعرهم كان ينفرد بمذهب واحد من المـذاهب المعروفة عندهم بين فخر ونسيب ومدح وهجاء من غير أن يكون تابعة فيما سواه ثم إن كلام العرب [٣] كان سائرا فى أيامهم على الألسنة فلم يعـانوا إلى البلاغة تكلفا [٤] فيما قصدوا من المذاهب التى كانوا يسردون فيها القول بطرائق انقطعوا إليها وكانوا بها موصوفين ، كاسترسال امرئ القيس فى ملاذ الشباب بحيث أتى فى نعت محاسن النساء بمـا ليس لقولٍ غيرِه موقعُ مثله من القلوب ، وإن هو إلا أرق المتغزلين حيث يقول :

أفاطم مهـلا بعضَ هـذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

أغرّكِ منى أنّ حُبَّك قاتلى وأنّك مهما تأمرى القلب يفعل ؟

وبجدّ عنترة بن شدّاد فى الفروسية إذ أتى فى الحماسة [٥] بمـا لم يأت به أحد مثله كقوله :

لو سابقتنى المنـايا وهى طالبـة قبض النفوس أتانى قبلها السبق

---

(١) هى الأسواق الثلاث المشهورة عندالعرب وأعظمها سوق عكاظ وكان يقام بين نخلة والطائف فى موضع لا يبعد عن الطائف أكثر من عشرة أميال وذلك فى أول يوم من ذى القعدة الذى هو أول الأشهر الحرم وكانت العرب تجتمع فيه للتجارة والتهيؤ للحج ويتناشدون ويتفاخرون ويتسوقون إلى حضور الحج ثم يحجون .

(٢) الأغانى ٣ : ٢٥

(٣) الأغانى ٥ : ٢٥٢

(٤) الأغانى ٣ : ١٦١ والموازنة والمستطرف ١ : ٧٧

(٥) الأغانى ٣ ...

وكفتح حاتم الطائى يده فى سعة العطاء بحيث إنه يتهلل بذكر السماحة والمكرمات فى جميع شعره ويقول [١] :

أماوىّ إنّ المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديثُ والذكر

أماوى إن يصبح صداى بقفرة من الأرض لا ماء لدىّ ولا خمر

ترَىْ أنّ ما أنفقتَ لم يك ضائرى وأنّ يدى مما بخِلت به صِفر

وكارتفاع السموأل بن عادياء فى درجات المحاسن الشريفة بحيث إنه أتى من ذكر الوفاء والمفاخرة به بما يرفعه إلى أسمى طبقات الشعر وهو الذى يقول :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عِرْضه فكل رداء يرتديه جميل

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها إنّ الكرام قليل

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طُلّ يوما حيث كان قتيل

وكانقطاع أمية بن أبى الصلت إلى العبادة بحيث إنه أتى فى ذكر أحوال الاخرة بما لم يشاركه فيه متقدّم ولا متأخر [٢] وإن قوله :

يوشك من فَرّ من منيته فى بعض غراته يوافقها

من لم يمت عَبْطة يمت هَرَما للموت كاس والمرء ذائقها

لأحكم ما قالته العرب فى وصف الموت [٣] إلى غير ذلك مما لا يتسع له المجال فنقف منه عند هذا الحد .

وقد انتهت بلاغة الشعر إلى المعلقات السبع وهى أصدق شاهد على فضل المتقدمين بما قصدوا من انسجام القول ونعت ضروب الوجدان التى تدل على أنفة النفس وعلو الهمة على غير تكلف البلاغة ، بما نعلم من إنسادهم إياها ارتجالا بين

---

(١) الأغانى ١٦ : ٩٦ والعقد الفريد ١ : ١٠٨

(٢) الأغانى ٣ : ١٨٨

(٣) العقد ١ : ٣٧٥

العشائر فإن الحارث بن حِلِّزة لما أنشد عمرو بن هند معلقته توكأ على قوسه وأنشدها واقتطم كفه وهو لا يشعر من الغضب حتى فرغ منها [١] ، فيظهر من ذلك أنه كان لهم فى الشعر شأن ضاع عن المحدثين سره لانقلابه فيهم من الطبيعة إلى الصناعة ، لأن العرب كانوا شعراء جميعا وكلهم يرتجز فى حرب أو استجداء أو مفاخرة [٢] ، وكانت الحكمة سائرة على ألسنتهم كما شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك حتى إذا أنشدوه قول طرفة من أصحاب المعلقات :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

قال هذا من كلام النبوة [٣] ، ثم إن النساء كن يقلن الشعر أيضا فى أيامهم حتى إن بعضهن قد فضلن كثيرا من الرجال مثل ليلى والخنساء وكلتاهما شاعرة فصيحة ، ولقد وجدت من كلام ليلى فى وصف الشجاعة ضروبا من الإبداع كقولها [٤] :

مهفهف الكشح والسربال منخرق عنه القميص لسير الليل محتقر
لا يأمن الناس مُمساه ومُصبحه فى كل فج وإن لم يغز يُنتظر

ووجدت فى تأبين الخنساء لصخر توجعا كثيرا بالبكاء عليه حيث تقول :

يذكرنى طلوع الشمس صخرا وأذكره لكل مغيب شمس
ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى
وما يكون مثل أخى ولكن أعزى النفس عنه بالتأسى

وتقول فى رثائه وهى تصف محاسنه :

إذا القوم مدّوا بأيديهم إلى المجد مدّ إليه يدا
فنال الذى فوق أيديهم من المجد ثم مضى مصعدا

وتقول وهو أفخر بيت قالته العرب :

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

---

(١) أبو عبيدة والأغانى ٩ : ١٧٨
(٢) الأغانى ١٨ : ٦٤
(٣) العقد الفريد ٣ : ١٢٢
(٤) الأغانى ١١ : ١٧

ولها من أمثال هذا الكلام شيء كثير[1] يرفعها إلى مساماة البلغاء من الرجال .

وقد أجاد المتقدمون في براعة الاستهلال إلى حيث يقف حد البلاغة ، وهم يصفون الركبان والطيف ويذكرون ربوع الأحباب وتعفية الرياح رسومها ومخاطبتهم إياها فيما مضى لهم من عهود الأنس ويصفون ألم الفراق ووحشة الديار وما يخالج قلوبهم من الصبابة في وقوفهم بالعيس على أطلال الديار [2] إلى أن يتخلصوا من هذا الاستهلال إلى ما يرون إنشاده فيما يأخذون به من المذاهب ، ولكن على انحطاط يقع فيه الكثير منهم بعد بلاغة الابتداء ، إلا الذين يتوسطون بالبلاغة في مطلعهم فيستمرون إلى آخر بيت على استواء ، أو الذين يعلون علوا حسنا ثم لا يزالون صاعدين في بلاغة تُعجز الفصحاء ، ولكنهم نفر قليل مثل امرئ القيس وزهير بن أبي سُلْمى والنابغة الذبياني وهم المقدمون على جميع الشعراء ، وموضعهم من البلاغة واحد [3] ، إلا أنه غلب على ذى القروح التجمل بالمعاني وبديع الوصف ، وعلى النابغة الاسترسال في البراعة ، وعلى زهير العناية بتقويم الألفاظ . وقد سمعت الأصمعي يقول وقد سئل من أشعر العرب ، الذين شَرَّق شعرهم وغرّب ؟ فقال «زهير إذا رغِب ، والنابغة إذا رهِب

---

(١) الأغاني ٦ : ٨٣ و ٩ : ١٦٣ و ١٤ : ١١٦ والعقد ٢ : ٢٣ وديوان الحماسة والاتليدى ٢٥

(٢) إنما ابتدأ الشاعر بوصف الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل من ذلك سببا لذكر أهله الظاعنين من ماء إلى ماء وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ثم فصل ذلك بالنسيب وأبدى شدة الوجد وألم الصبابة والشوق لتميل نحوه القلوب وتنصرف إليه الوجوه ويستدعى إصغاء الأسماع فإذا استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له شكا السهر والتعب وسرى الليل وقوة ما لقى من المكاره فى المسير ثم بدأ فى المديح فبعث فى ممدوحه الميل إلى المكافأة وفضله على الأشياء وصغرها فى جنب قدره الجزيل وهزه إلى الفعل الجميل ، الحصرى ٢ : ٢٧٤

(٣) الأغاني وكتاب الموازنة.

وامرؤ القيس إذا طرب . وعنترة إذا ركب . والاعشى إذا شرب»[١]، ولئن يكن في تفضيل الشعراء بعضهم على بعض عسر لا يؤمن معه الزلل ما أنا براء في أبياتهم ما يسمو إلى كلام النابغة فى الفخر حيث يقول[٢] :

ولا عيب فيهم غير أنَّ سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

ولا إلى براعة زهير فى المديح وقد ألقى عن المادحين فضول الكلام بقوله[٣] :

وإن يك من خير أتوه فإنما ... توارثه آباء آبائهم قبل

ولا إلى جمال الوصف الذى نظمه امرؤ القيس فى معلقته نظم اللآلئ فى شذور الذهب فقد لا تحضر البلغاء أنفسهم عبارات يفصحون بها عن محاسن كلامه الذى ذهب مذهب المعجزات ، فإنّ العرب لم ينفكّوا عن الإعجاب بها وهى مُعلَّقة فى الكعبة إلى أن ظهر الإسلام وذهبت فصاحة الشعر بما نزل من كلام الله تعالى على سيد ولد آدم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما الذين دون طبقة هؤلاء من الجاهليين فإنّ لهم من محاسن الشعر موضعا لا يتعدّونه إلى التصرف فى المذاهب الواسعة كانفراد أبى داود بوصف الخيل ، وعلقمة بوصف الوحش ، وأوس بن حَجَر بوصف الخمر إلى غير ذلك[٤] ، وليس فيهم أقرب إلى طبقة الثلاثة المتقدمين من الأعشى بن جندل الأسدى[٥] فإن له ابياتا حسانا ذكر منها هذا البيت الذى هو أشجع بيت قالته العرب :

قالوا الطعانُ فقلنا تلك عادتنا ... أو تنزلون فإنا معشر نُزُلُ

---

(١) الأغانى .

(٢) خزانة الأدب ١ : ٥١١ والأغانى ٩ : ١٥٨

(٣) الأغانى .

(٤) الأغانى ١٥ : ٩٥ و ٩٦

(٥) الأغانى ٩ : ١٤٠

ولكنى وجدته إذا تعالى فى شعره كثيرا لم يؤمن وقوعه فى الانحطاط (١) ، وربما أتى من الألفاظ بالغريب الذى يبعد عن الأذهان ، وهذا شىء يصح أن نعيبه عليه وعلى غيره من الجاهليين وإن كان بعض الناس يجدون له مخرجا إلى السلامة من العيب إذ يجوزون للمتقدمين ما لا يجوزونه للمتأخرين .

الشعر فى الحضارة

ولقد وجدت فى شعر الإسلاميين المتقدمين علوًّا كادوا يسامون فيه أهل الجاهلية ، ولذلك يصح ان نعترف لهم بمحاسن البلاغة مثل الاحوص وذى الرّمّة وحسان بن ثابت وعمر بن أبى ربيعة والقطامى وجرير والفرزدق والأخطل وجميل وكثيّر وكثير غيرهم ، فان لشعرهم من رقة الديباجة والرونق والحلاوة ما لا نجده إلا فى شعر البلغاء من الجاهليين ، وربما انتهى بعضهم فى المذاهب التى كانوا بها آخذين إلى حيث تقف بلاغة الشعر كذكر الحماسة فى كلام حسان بن ثابت حيث يقول :

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحا وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

وكالاستئثار بالفخر فى شعر الفرزدق الذى يقول فيه (٢) :

ترى الناس إن سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقّفوا

وكالتوجع فى الرثاء فى قصيدة الهذلى التى يجزع فيها على فقد أولاده إلا طفلا صغيرا بقى له ومن جملتها البيت المشهور (٣) :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

وكالتشبيب فى شعر جميل وذى الرمة وعمر بن أبى ربيعة (٤) بحيث إن لهم فى ذكر محاسن النساء من الأوصاف البارعة مع عذوبة الألفاظ وجودة السبك ما لا يوجد مثله لأحد من شعراء العرب غير الثلاثة المتقدمين إلى غير ذلك .

---

(١) الموازنة والأغانى .

(٢) العقد والأغانى والكشكول .

(٣) العقد والأغانى .

(٤) صاحب الأغانى يفضله على شعراء زمانه وربما فضله فى النسيب على شعراء الجاهلية .

ثم إنّ الشعر يقع فى الحضارة بعد هـؤلاء المجيدين ويفقد كثيرا من البلاغة التى كانت فى لسان الجاهليين لإبراز المعانى فى فصيح الكلام إلا أنه لا ينحط عنه فى الأوصاف البارعة وتناول المعانى من حيث الشعر نفسه ، فلقد نجـد لبعض المحدثين من سعة التصرف فيه وسرعة الخاطر إلى النظم ما يجعلهم لولا تأخر أيامهم فى طبقات المتقـدمين ، على أن كلامهم ليس من الفصاحة بالموضع الذى كان للجاهليين ، والعـذر لهم فى ذلك أن شاعر البادية إنمـا كان يلتمس الفصيح من الألفاظ ليسمو كلامـه على كلام غيره من الشعراء ، واللغات إذ ذاك كثيرة فى عشائرهم ، أما اليوم فإن اللسان الذى نزل به القـرآن معروف لدى كل إنسان فلا يضطر الشاعر إلى التمـاس ألفاظ يفضُل بهـا لسان غيره لتوحد لغـة قريش فى الأمصار كافة . وإنمـا وجب عليه أن يبتدع المعانى التى لم يسبِق إليها غيره دون تكلفه إلى تناول الغريب من الكلام [١] ، لأن الألفاظ السوقيـة لا تمنع [٢] أن تكون القصيدة جيدة .

ولقد ينقسم الشعر فى الإسلام [٣] إلى طبقات ثلاث أقربهـا إلى فصاحة البداوة أبعدها عن حضارة الاسلام . أولها عصر عبد الملك والشعر إذ ذاك فى ثلاثة من تميم [٤] وهم جرير والفرزدق وهو من نَبَغَـة [٥] الشعراء والأخطل النصرانى وهو المجيد فى مدح الملوك [٦] ووصف الخمر ، وكان المقدمَ عليهم جرير وقد فضَل الشعراء[٧] بقوله فى المديح :

ألســتم خير من ركِب المطايا وأندى العالمـين بطون راح

---

(١) ذكر الأغانى ٣ : ١٤٥ أن الشعراء يستعملون الغريب من الألفاظ (وذلك فى زمن الرشيد) .

(٢) الأغانى ٣ : ١٣٣ و ١٧٣

(٣) أى فى المتمصرين من الشعراء دون أهل البادية .

(٤) الأغانى ١٩ : ٦

(٥) الأغانى ٩ : ١٤٧

(٦) الأغانى ٩ : ١٤٧

(٧) الأغانى ١٠ : ٢ وفى غير موضع والوطواط ١١١ وابن خلكان ١ : ١٤٣ والعقد الفريد ١ : ١٥١

وقوله فى النسيب[١] .

إنّ العيون التى فى طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حَراكَ به وهن أضعف خلق الله إنسانا

وهذا من الكلام الذى تتناهى إليه رقة أهل الصبابة ، ولم نجد من بعده مثله إلا فى شعر جميل وكُثَيّر وقد استرسلا فى وصف حياة الشباب وانقطعا إلى النسيب[٢] من مذاهب الشعر ، يقول كثير[٣] :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثّلُ لى ليلى بكل سبيل

ويقول جميل :

وما زلتم يا بُثْنُ حتى لو آننى من الشوق أستبكى الحمام بكى ليا
وما أحدثَ النأىُ المفرّق بيننا سُلُوًّا ولا طولُ الليالى تقاليا
على أننى راض بأن أحمل الهوى وأخلَص منه لا علىّ ولا ليا

ومن كلامه[٤] :

خليلىّ فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حبّ قاتله قبلى ؟

وأول الأبيات قوله :

لقد فرِح الواشون أن صرمت حبلى بثينة أو أبدت لنا جانب البخل
يقولون مهلا يا جميل وإننى لأقسم ما بى عن بثينة من مهل

والناس يستحسنون ذلك . ولا يقارب به فى النسيب إلا قول الأحوص[٥]

إذا قلت إنى مشتفٍ بلقائها فحُمّ التلاقى بيننا زادنى سقما

(١) الموازنة ٤
(٢) الأغانى ٤ : ٥٨ والكشكول والعقد الفريد ٣ : ١٧٢
(٣) الاغانى وتزيين الأسواق وابن خلكان والمستطرف
(٤) الأغانى والعقد الفريد ١ : ١٤٦ والحصرى ٢ : ٦٢؛
(٥) الأغانى ٤ : ٥٧

وأما الطبقة الثانية فإنها عصر أبى جعفر (رحمه الله) وشـعراؤه من تقدم لك ذكرهم . والطبقة الثالثة هى زمن الرشيد والبرامكة وشعراؤها أكثر من أن يأخذهم الإحصاء ولكنى لا أرى فيهم إلا أبا العتاهية وأبا نواس ومسلم بن الوليد وهم أشعر أهل هذا الزمان كما ستراه .

فأما أبو العتاهية فإنه انقطع فى شـعره إلى ذكر أحوال الاخرة[١] وله أرجوزة حوت أربعة آلاف بيت أودعها من المعـانى الجليلة ما أبرزه فى أحسن صورة . من ذلك قوله « روائح الجنة فى الشباب » وهو قول يقبله القلب ولا يفسره اللسان[٢]، والناس يقولون إنه خرج عن العروض بوزن لم يذكره الخليل بن أحمد ولكنى لا أرى ذلك خطأ يعاب به كمن يتطاول على قواعد العلوم ، لأن الخليل لم يستوف الكلام فى هـذا العلم الذى وضعه ولا سيما فى بحر المتدارك ، فإن من العروضيين من زاد فيه على ما ذكر[٣] ، وقد كان أبو العتاهية من الحظوة عنـد الرشيد بحيث لم يفارقه فى حضر ولا فى سفر[٤] ، ثم آل أمره إلى الزهد[٥] فلبس الصوف وعزفت نفسه عن الدنيا وكان يقول[٦] :

كأن كل نعيم أنت ذائقه   من لذة العيش يحكى لمعة الآل

---

(١) الأغانى ١١ : ٣٢

(٢) الأغانى ٣ : ١٤٣

(٣) المسعودى ٢ : ٢٦٥

(٤) الأغانى ١١ : ٣٢

(٥) الأغانى ١١ : ٣٢

(٦) الأغانى ٢ : ١٦٢

فصار إذا دعاه إليه ليصف له ماهو فيه من زخارف الملك يبادره بالتذكير والموعظة [١] فيبكى الرشيد من ذلك فيهمّ الجلاس إلى معاتبته فيقول لهم الرشيد دعوه إنه يرانا فى عمى فيكره أن يزيدنا منه .

وأما أبو نواس فان مذهبه فى الشعر مضاد لمذهب أبى العتاهية وأكثر مايتضمن شعره الغزل والزهو وذكر المنادمة والخمر تبعا لما نعرف له من ممازحة الملوك [٢] ، فهو يذكر إبليس والخمر فى شعره كما يذكر أبو العتاهية الآخرة والجنة .

ومن استعاراته الفائقة قوله :

بَسَمَ الصباحُ لأعين الندماء ... وانشقّ جيبُ غلالة الظلماء

وله فى صفاتها ونعت طعمها وريحها ولونها وشعاعها وحال المنادمات عليها والاصطباح والاغتباق [٣] ماتوسع فيه إلى أدب ليس للشعراء حظ منه ، وهذا مما يدل على اقتداره فى الشعر وإن كان مذهبه غير محمود عند أهل الصلاح ، وهو عندى شاعر الشعراء حقيقة [٤] ، وإنى أفضل شعره على شعر أبى العتاهية لأن قصائده كلها سالمة من العيب [٥] ، أما أبو العتاهية فانه وإن كانت له استخراجات لطيفة ومعان ظريفة يقول البيت النادر ثم يتبعه بالبيت السخيف البارد [٦] ، وقد

---

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٩ والفخرى ٢٣٠ والرطوشى ١٧ والكشكول .

(٢) الاتليدى وحلبة الكميت وتزيين الأسواق .

(٣) المسعودى ٢ : ٤٢٢

(٤) ذكر صاحب العقد الفريد فى باب من الرقائق من المجلد الثالث أن أبا نواس من أقدر الناس على الشعر وأطبعهم فيه .

(٥) القيروانى وابن خلكان .

(٦) الأغانى ٣ : ١٨٠

ذكر لى وراق فى درب القراطيس [١] كنت آلف حانوته أنه مر به أبو العتاهية يوما وعنده ديوان لأبى نواس فوقع نظره على هذا البيت [٢] :

لن ترجع الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

فسألنى لمن البيت فقلت لأبى نواس فقال والله إنى أحب أن يكون لى هذا البيت بنصف شعرى [٣] ، وأظن أنه لو وقف على قوله :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد [٤]

أو قوله وهو أمدح بيت للمحدثين :

وكلت بالدهر عينا غير غافلة بجود كفك تأسو كل ما جَرَحا

لقال فيهما مثل ذلك . ولقد لقيت إسماعيل بن نُوبَخْت فى مجالس البرامكة وقد جرى الحديث بحضرتهم عن الشعراء فقال سمعت بعض الناس يقول إن الأصمعى أعلم الشعراء وأشعر العلماء ، فوالله ما رأيت أحق بهذا الوصف أن يقال فيه من أبى نواس ، لأنى ما رأيت فى أهل الأدب من هو أوسع علما فى كل شىء منه وليس له فى الشعراء من مبارٍ ، يعلِق له بغبار . وكفى فى تحقيق فضله عليهم أن كلامه كله موزون [٥] فإن الشعر رسخت فى صدره ملكته وصار فى نفسه طبيعة ترفعه على جميع الشعراء . وأما مسلم بن الوليد الملقب بصريع الغوانى فإنه أرق الشعراء غزلا

---

(١) من شوارع بغداد ذكره ابن خلكان ١ : ١٦٥

(٢) ذكر صاحب العقد الفريد هذا البيت فى الأمثال السائرة وأبدل بالشطر الثانى قوله « حتى يرى منها لها واعظ »

(٣) الطرطوشى ١٠

(٤) الأغانى واليتيمة ١٠٢ وخزانة الأدب ٥٠٠

(٥) ابن خلكان .

وألطفهم صنعا وأكثرهم من المعانى حظا [١] إلا أن ميله مع أهل البيت وقوله الشعر فى مديحهم هو الذى جعله مقصيا عن محاضرة الخلفاء ، بل جعل فى نفوسهم موجدة عليه لما كانوا يرون من استمساك الناس بشعره ، وقد أبدع مصاغه ورصعه بدرر البلاغة ، ولقد ظفر به الرشيد فحمد الله على ذلك بمحضر من الجلساء كأنما قد ظفر بملك من كبراء الملوك ، فلما أخذ يعاتبه قال إيه يا مسلم أنت القائل :

أنِسَ الهوى ببنى علىّ فى الحشا وأراه يطمح عن بنى العباس

فأعمل فكرته أن يستبدل به مدحا عله يشفع له عنده ويكون وسيلة لسلامته من القتل وقال بل أنا يا أمير المؤمنين الذى أقول :

أنس الهوى ببنى العمومة فى الحشا مستوحشا من سائر الإيناس

وإذا تكاملت الفضائل كنتم أولى بذلك يا بنى العباس

فعجب الرشيد من سرعة بديهته وقال له بعض جلسائه استبقه يا أمير المؤمنين فانه من أشعر الناس [٢] وامتحنه فسترى منه عجبا فرق له الرشيد وفى نفسه من الميل إلى الأدب ما قد علمت ، ثم قال له أنشدنا أشعر بيت لك ، فقال يا أمير المؤمنين أفرِخ رَوعى أفرخ الله رُوعَك يوم الحاجة إلى ذلك فإنى لم أدخل على

---

(١) ذكر له ابن الأثير ٦ : ٢٠٥ بعض أبيات فى عرض التاريخ وقال إنها حسنة جدا وذكر الحصرى أيضا جملة أبيات وقال إن الطائى كان يعول عليه وعلى أبى نواس وإن مسلما أول من لطف البديع . وكسا المعانى حلل اللفظ الرفيع .

(٢) كان مسلم بن الوليد من أشعر الناس ولكنى لم أر له ترجمة فى الأغانى ولا فى ابن خلدون وما نقلته هنا مأخوذ من كتاب العقد الفريد ١ : ٩٠

خليفة قط ، فأمره بالجلوس ثم شرع فى الإنشاد وكلما فرغ من قصيدة قال له التى تقول فيها « الوحل » فإنى رويتها وأنا صغير ، فأنشده شعره الذى أوله :

أديرا على الراح لا تشربا قبلى ولا تطلبا من عند قاتلتى ذَحْلى [1]

حتى إذا انتهى إلى قوله :

إذا ما علت منا ذؤابةَ شاربٍ تَمشَّت بنا مشى المقيدِ فى الوحل

ضحك الرشيد وقال عليك ! أما رضيت أن تقيده حتى يمشى فى الوحل ؟ ثم امر له بجائزة وخلى سبيله .

هؤلاء الثلاثة أشعر الشعراء وهم الذين زينوا الدولة العباسية كما كان الثلاثة المقدّم ذكرهم فى الفصل السابق يزينون زمن الجاهلية ولقد لقيت فى بغداد كثيرا غيرهم من الشعراء مثل العمانى وأبى مصعب وأبى الشيص وأبى عبد الرحمن العطوى وغيرهم ، واتصلت بى أخبار جماعة ممن يتصرفون فى فنون الشعر ويبتدعون القول الذى لم يشرَكهم فيه غيرهم إلى أن ينظموا القصائد التى ليس فى أبياتها حرف معجم . إلا أنهم قد كانوا فى أيام أبى نواس ومسلم بن الوليد فضاع بينهما فضلهم ولم يكن لهم ذكر فى مجالس الخلفاء وأهل الأدب .

الغناء وتحريره وإصلاحه

قد مضى فى بعض كتبى السالفة من الكلام عن الغناء ما يقضى بصحة ذوق العرب وحسن ما يصنعون من الأصوات ، وكان أصله عندهم أربعة نفر [2] ابن سريج وابن محرز وهما مكّيان ومالك ومَعبد وهما مدنيان ، إذ كان أصل الغناء

---

(١) فى المجلد الثالث من العقد الفريد ١٧٦ سبعة أبيات أخر من هذه القصيدة .

(٢) الأغانى ١ : ٩٨

ومعدنه فى أمهات القرى من بلاد العرب ظاهرا فاشيا وهى المدينة والطائف وخيبر ووادى القرى ودُومة الجندل واليمامة ، وهـذه البلاد مجامع أسواق العرب [١] ، وكانت النساء يشاركنهم فى صناعة الأصوات ، وقد نبغ فيهن عزة الميلاء فى الغناء الموقع إلى أن صارت أحسن الناس ضربا بعود [٢] ، وكان لهـا أستاذة يقال لها رائقة فاحتذت فنها فى تنسيق الأنغام ، ثم قدِم الحجاز سائب ونشيط وغنيا بالفارسية فأخذت عزة عنهما نغما وألفت عليها ألحانا كثيرة لينة كما نجد فى غناء النساء [٣] ، ثم ظهر طويس المغنى فصنع الرمل والهزج [٤] وأول ما غنى به على لحن صنعه قوله [٥] :

قـد براني الشـوق حتى كدت من وجدى أذوب

ثم غنى ابن مِسجح الغناء المنقـول من الفارسى [٦] وشهره بين الناس ، وكان بن سريج يضرب بالعود على غنائنا إلى أن ظهر معبد فى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التحيـة فصنع من الأصوات البديعة ما فضل فيه غيره من أهل زمانه المعاصرين له .

وقد كان الغناء قبل نقله عن الفارسية مأخوذا عندهم عن الأذان [٧] ، فلما نقلوه عن قومنا واستعانوا بكتاب لبطليموس فى اللحون الثمانية [٨] عرّبوه فى خلافة

---

(١) العقد الفريد ٣ : ٢٤٧

(٢) الأغانى ١٦ : ١٣

(٣) الأغانى ٥ : ٥٧

(٤) الأغانى ٤ : ٣٨

(٥) الأغانى ٤ : ٣٧

(٦) المستطرف ٢ : ١٨٨ والعقد الفريد ٣ : ٢٣٧

(٧) ابن خلكان ١ : ٥٧١

(٨) الأغانى ٨٩٥

أبى جعفر (١) أجادوا تأليف الأصوات إلى أن فضلونا اليوم فى الغنـاء ونبغوا فيه النبغة التى ما كنت أحسبهم يصلون إليهـا فى زمن من الأزمان ، وما مكنهم من استكمال هذه الصناعة إلا أمران : الأول انفراد كل واحد منهم بلحن من الألحان يفتن فيه ويصنع فيه الأصوات الحسان حتى يفوق ألحان غيره من المغنين كانفراد معبـد بالثقيل (٢) ، وابن سريج بالرمل ، وحكم الوادى بالهزج (٣) وأحمـد النصيبى بالانصاب (٤) وفليح بن أبى العوراء بلحن النواقيس ، والموصلى باللحن المـاخورى ، أما خفيف الرمل فانهم يشتركون فيـه جميعا بحيث لم أجد مغنيا إذا تغنى لنفسه يكاد يغنى إلا خفيف الرمـل (٥) ، والثانى ما كانوا يتناولونه من الخلفاء جوائز ومن الأمراء وأهل النعمة أجرة واسـعة على غِنائهم ممن يستدعيهم إلى فرح أو يجمعهم لمنـاظرات الصناعة ثم يخرج بِدَر الدنانير لإجازة المحسنين (٦) منهم ولقد سئل حنين المغنى وقد دعِى إلى مأدُبة لا يعهد فى صاحبها السماحة ، لم لا ترضى بالأجرة اليسيرة ؟ فقال إنما هى أنفاسى أقسمها بين الناس ، أفتلوموننى أن أغلِى بها الثمن ؟

ثم ظهـر عصر البرامكة (أعز الله ملكهم) وهم محبون للعلم ومقرِّبون إليهم أهل الأدب ، فكان ممن قربوه من المغنين إبراهيم الموصِلى وابنـه إسحق ، وهما بمكان جليل من الأدب إلا أنه غلب عليهما الغناء بمـا وضعاه من الألحان فاشتهرا به كما رأيت . وقد وضع أبو اسحق اللحن المـاخورى الذى لم يشرَكه فيه أحد من المغنين ، وكان يظن لصعوبة المأخذ فى ابتداعه أن إبليس هوالذى ألقاه عليه

---

(١) ابن نباتة .

(٢) الأغانى ٦ : ٦٦

(٣) الأغانى ٥ : ١٤١ و٦ : ١٣

(٤) الأغانى ٥ : ١٦١

(٥) الأغانى ٧ : ٣٦

(٦) الأغانى ١٤ : ٥٥

فى المنـام ، فلقـد طالمـا تهوّس بالغناء وأمعن فى تنسيق الألحان على أتم إبداع وأحسنه موقعا فى النفوس حتى توهم أن الأرواح هى التى كانت تظهره له وتعلمه الأصوات التى يعجِز عنها غيره من الإنس ، وقد قالت الشعراء فى مدحه على موضعه الجليل من الغناء :

ما لإبراهيم فى العلم بهذا الشأن ثانى

إنمـا عمـر أبى اسحـق زينٌ للزمان

جنـة الدنيـا أبو اسحق فى كل مكان

منـه يُجنى ثمر اللهو وريحان الجنان

وكذلك كانت إجادة ابنه إسحق وقد وضع ألحانا لا يقدر شبعان ممتلئ ولاسقاء يحمل قربة على الترنم بهـا ، وصـنع غيرها ممـا لا يقدر المتكئ أن يترنم به إلا قعد مستوفزا ، ولا القاعد حتى يقوم[1] ، لأنه سما فى اقتداره على الغناء إلى أن يجعل فى نفس السامع تحركا لمـا يغنى بمعناه من الأشعار ، فيحملها على الكبر فى معرض المديح ، وعلى الحماسة والإعجاب فى مجال الفخر ، وعلى الرقة والصبابة فى استرسال الهوى ، وعلى البكاء والغصة فى موقف التذكير والوحشة ، وذلك فضلا عن إجادته فى ضرب العود ، ولقد كنت يوما بدار الرشيد وفى مجلسه عشر جوار يضربن على العيدان فوقع خلل فى مجرى إصبع على بعض الأوتار فعرفه من بين أربعين وترا[2] تتحرك بين أناملهن ، فهذا اقتدار غريب على هذه الصناعة لا أظن أن اليونان قد بلغوه منها مع اتصال مدتهم أزمانا طوالا يستعملونها ويمارسون طرائقها .

---

(١) الأغانى ٣ : ٧٩

(٢) الأغانى ١ : ٢٠ وفى الحصرى ٢ : ٢٠٦ قال إسحق إنمـا يجيد الغناء من يقرع مسمع كل واحد من الناس بالنحو الذى يوافق هواه .

وقد كتب إسحق رسالة مطولة فى الغنـاء صحح فيها أجناسه وأنغامه وطرائقه وميزه تمييزا لم يقدر عليه سـواه[١] حتى لقـد خطّأ يحيي المكى فيما دوّن من الغنـاء ويونس الكاتب فىالرسالة التى نسب فيها الأصوات إلى من ابتدعها من المغنين[٢] غير أنه كان يرى ليونس فيما سبق إلى تدوينه من الأغانى ونسبتها إلى أصحابها فضلا أعظم من فضل يحيي فيما حاول تمييزه من الغنـاء على فساد جعل كتابه كالمطروح لكثرة تخليطه فى رواياته[٣] لأن هذا هو المذهب الذى يتعصب له إسحق ويناظر فيه من يقول بضده من أولاد الخلفاء وغيرهم كما مر فى موضعه من الكتاب .

ومن حذق إسحق فى صناعة الأنغام أنه أقام طرائق الغناء من نفسه دون نقل عن كتب اليونان إلا فيما اقتبسه من تقسيمات أقليدس[٤] وما هو إلا النزر اليسير فى جانب الكثير الواسع من علمه ، فقد ميز[٥] أجناس الغناء كله ، وجعل الثقيل الأول أصنافا ، فبدأ فيه بإطلاق الوتر فى مجرى البنصر ثم أتبعه بما كان منه بالبنصر فى مجراها ثم بما كان بالسبابة فى مجرى البنصر ثم فعل هذا بمـا كان منه بالوسطى على هذه المرتبة ، ثم جعل الثقيل الأول صنفين الأول ما ذكرناه والثـانى القدر الوسط من الثقيل الأول وأجراه المجرى الذى تقدم من تمييز الأصابع والمجارى وألحق بذلك جميع الطرائق والأجنـاس وأجراها على هـذا الترتيب وميزها على أكثر من عشرة آلاف صوت للغنين لم يغير فيها لحنـا واحدا ، وذلك بخلاف الذين دوّنوا الغناء قبله وبعده فإنهم أضاعوا صناعة الغناء القديم إلا أحمد بن يحيي المكى المقدم ذكره فى كتاب له فى الأغانى ونسبها يقال له المجرّد[٦] فإنه أصل يرجع إليه ويعول

---

(١) الأغانى ٦ : ١٨

(٢) الأغانى ٥ و ٦

(٣) الأغانى ٦ : ١٧

(٤) الأغانى ١٥ : ٨

(٥) الأغانى ٥ : ٥٢

(٦) الأغانى ١٥ : ٦٥

عليه ، ولست أعرف كتابا بعد كتاب إسحق يقارب كتابه أو يقاس به ، فكأنه قام على مخالفة أبيه ومن ذهب مذهبه فى تغيير أصوات المتقدمين ، ورجع إلى الغناء القديم الذى سبق إلى التعصب له مغن يقال له «سِياط» وفد على المهدى رحمه الله وأنا مقيم فى الرسالة بخراسان فلم أوفق إلى الاجتماع به ، ولكن حسبى من تقدير موضعه الجليل من هذه الصناعة [١] أن إبراهيم وإسحق تلميذاه [٢] وإليهما المنتهى فى إجادة الغناء .

لُمْعة فى علوم الفلسفة عند العرب

إن العلوم الفلسفية التى استخرجها العرب من كتب الأعاجم كانت مجهولة عندهم فى صدر الإسلام بل فى صدر هذه الدولة كما تقدم لك من الكلام إلا عند نفر قليل من أهل الشام ممن جاور الرهبان وتلقى عنهم [٣] حكمة اليونان التى كانوا يحفظونها فى خزائنهم بالأديار ، أما اليوم فإنا نجدها فى سكان الأمصار من العراق ومصر والشام وبعض أهل الحجاز إلا أعراب البادية لأنهم لا يوجهون عنايتهم إلى العلم ، وإنما همتهم ارتياد المسارح والمزارع لحيواناتهم كما سبق الإلماع إليه فى صدر الكتاب .

وهذه العلوم الفلسفية تنقسم إلى أنواع أربعة [٤] : رياضية ومنطقية وطبيعية وإلهية ؛ فأما العلوم الرياضية وهى النِجامة والعدد والهندسة والغِناء فإنهم نبغوا فيها النبغة التى لم تكن للمتقدمين من أمم الشرق ، وقد تقدم فى الكلام على النجامة ما يقضى بفضل المنجمين من أهل الموصِل وخراسان وغيرهم فيما وقفوا عليه من علم الأفلاك وارصادها ، كما أنك رأيت فى الكلام على الغناء أن لإبراهيم وابنه إسحق

---

(١) الأغانى ٦ : ٦٥

(٢) الأغانى ٦ : ٩

(٣) المقدمة ٤١٩

(٤) حاجى خليفة : ٤٦٢

فيما ابتدعاه من الأصوات الحسان فضلا تتزين به هذه الصناعة عند العرب . واعلم (أرشدك الله) أنه لم يكن موضعهم من العلوم العددية وما يتبعها من الجبر والمقابلة وهى صناعة استخراج العدد المجهول من قِبَل المفروض المعلوم [١] إلا موضعهم من النجامة والغناء فى تحريرها وإصلاحها والاعتبار فى الأقسام التى تلتحق بها من فن المناظرة والفرائض والمعاملات بتقدير الأوزان وغير ذلك ، وهذه هى العلوم التى يمتازون بها عن غيرهم من الأمم بما وضعوه لها من القواعد التى لا غاية بعدها فى الإصلاح .

وأما علم الهندسة فقد كان مرجعهم فيه إلى كتاب لاقليدس المهندس من حكماء اليونان وكتاب آخر لبطليموس الذى أخرج الهندسة من القوة إلى الفعل [٢] ، وقد عربت رسائلهما فى خلافة أبى جعفر ثم أعيد تعريبها فى هذه الأيام بمناظرة مهندس يقال له أبو كامل [٣] جعل مقالات إقليدس فى جلد كبير سماه كتاب الأركان [٤] ، وفيه خمس عشرة مقالة يبحث فى الأربعة الأول عن السطوح ، وفى الخامسة عن الأقدار المتناسبة ، وفى السادسة عن نسب السطوح بعضها إلى بعض ، وفى السابعة إلى التاسعة عن العدد ، وفى العاشرة عن المنطقات ، والقوى على المنطقات ومعناها الجذور ، وفى المقالات الخمس الباقية بحث واسع فى المجسمات ، ثم ألحق العرب بهذا العلم فن الهندسة المخصوصة بالأشكال الكروية نقلا عن كتابين لميلاوش وتاودوسيوس من اليونان وفيهما بحث مسهب فى الكرات السماوية وما يعرض فيها من القطوع والدوائر بأسباب الحركات ، وألحقوا به أيضا علم المخروطات نقلا عن كتاب لابولونيوس [٥] من اليونان أيضا فعرفوا ما يقع

(١) المقدمة ٤٢٢

(٢) ابن نباتة .

(٣) هو مهندس ذكره الأغانى ٦ : ١٩١

(٤) المقدمة ٤٢٤

(٥) المقدمة ٣٥٩

من الأشكال والقطوع فى الأجسام المخروطة وأفادوا النجارة والبناء [١] بما وقفوا عليه من كيفية رفع الأثقال وجرها وغير ذلك .

وأما العلوم المنطقية ومنها الشعر والخطابة والجدل والبرهان والمغالطة وغير ذلك [٢] فان إجادتهم فيها كانت دون إجادتهم فى العلوم الرياضية ، لأن طبائعهم ما تهيأت للعناية إلا بقول الشعر كما رأيت ، وهو معدن حكمتهم وديوان آدابهم والمقيد لمحاسن كلامهم ، وقد بلغوا فيه الغاية التى لا مطمح وراءها إلا ما كان من كلام النبوة ، وإن كان شعر الجاهلية جافيا لمكان أهله من الخشونة ومقامهم فى القفر بين الإبل والوحش والمنازل الخالية [٣] فان شعر المتمصرين ليس بخال من رقة الألفاظ وجمال الصور وهم القاطنون بين فرش الحرير وأطباق الرياحين وآلات الطرب والقيان والندماء . ولقد نسمع عن أهل الأندلس أنهم يقولون شعرا أرق من النسيم [٤] وذلك لغزارة المياه فى أراضيهم ونماء الرياحين فى جناتهم وظهور ريح الصبا عندهم ، حتى كان المرتحل منهم إلى المشرق إذا استقبل النسيم الذاهب إلى الغرب ذابت نفسه من الشوق إلى تلك الديار التى ينفح فيها الطيب على غصن أندلسها الرطيب فيقول [٥] :

وإذا ما هبت الريح صَبًا صحت واشوقى إلى الأندلس

وديار الأعراب قفر وإقليمهم محرق للأبدان ومجفف للعقول وذلك مما لا يولد فيهم من رقة القول وحلاوته ما نجده فى شعر الأندلسيين .

(١) المقدمة ٣٥٨

(٢) حاجى خليفة ٤ : ٤٦١

(٣) الكشكول والأغانى .

(٤) راجع كتاب المقرى وغيره من تواريخ الأندلس .

(٥) المقرى .

أما علوم المنطق فقــد كان مرجعهم فيها إلى كتب فى المنطقيات لأرسطو الحكيم [١] عربت فى خلافة أبى جعفر [٢] بمناظرة عبــد المسيح الحمصى وهو من أشهر النقلة بعد سلام الأبرش [٣] ، وقد اشتملت على رسائل ثمــان ، أربع منهــا فى صورة القياس وأربع فى مادته [٤] ، وربمــا زادوا فيها بعض شرح وتفسير .

وأما علوم الخطابة والجدل والمغالطة فقد دونوا فيها ممــا استخرجوه من كتب اليونان أســفارا كثيرة ولكن من غير تمحيص يرجع بهــم إلى محاسن العلم إلا ابن العلاف [٥] خطيب هذا الزمان فى رسالة له فى الخطابة بدأ فيها بذكر سحبان وقس بن ساعدة وغيرهما من بلغاء العرب وخطبائهم فى الجاهلية والإســلام إلى أن أتى على بيــان القواعد التى تلزم الأدباء فى الخطابة ليجدوا بلاغة القــول مع تقويم الألفاظ وإكثار المعانى فى قليل من الكلام .

وأما العلوم الطبيعية وهى علم المبادئ وعلم السماء وما فيها وعلم العالم وعلم الكون والفساد وعلم المعادن والنبات والحيوان وفيه علم الطب فقد كان مرجعهم فيها إلى كتب الأعاجم كمرجعهم إليها فى جميع مالم يكونوا يعرفونه من العلوم قبل أبى جعفر كما ترى إلا ما وقفوا عليه بأنفسهم من حقيقة المعــادن فى علم الكيمياء وهو النظر فى المــادة التى يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة ، فتوصلوا به إلى معرفة أمزجة المكوَّنات وحقيقة المعادن والفضلات الحيوانية من العظام والريش والبيض

---

(١) كتاب أرسطو الخــاص بالمنطق يسمى النص يشتمل على ثمانية كتب أربعة منهــا فى صورة القياس وأربعة فى مادته وهى كتاب المقولات وكتاب العبارة وكتاب القياس وكتاب البرهان وكتاب الجدل وكتاب السفسطة وكتاب الخطابة وكتاب الشعر ثم إن حكماء اليونانيين بعد أن تهذبت الصناعة ورتبت رأوا أنه لا بد من الكلام فى الكليات الخمســة المفيدة للتصور فاستدركوا فيهــا مقالة تختص بهــا فصارت تسعا . المقدمة ٤٢٩

(٢) المسعودى ٢ : ٤٠٠

(٣) حاجى خليفة ٣ : ٩٧

(٤) المقدمة ٤٢٨

(٥) د ز د ابن خلكان ٩٢

وغير ذلك[١]، وكان الناس من أهل الأدب يصبون إلى هذه الصناعة بما فى متنوعاتها وممزوجاتها من تسلية الخاطر مع تنوير العقل وتوسيع نطاق المعرفة، حتى إن الملوك أنفسهم كانوا يتمهرون فى استخراج المركبات ومزجها على غير ترفع عنها . فهذا خالد ابن يزيد بن معاوية الأموى قد شغل نفسه بطلب الكيمياء ودون فيها الرسائل الكثيرة حتى أفنى عليها عمره[٢] ، وهذا جعفر الصادق أحد الأئمة الاثنى عشر ومن سادات أهل البيت قد ترك فيما ترك أكثر من خمسمائة رسالة فى علم الكيمياء إلا أن هذه الرسائل لم تكن حاوية من العلم إلا ما وقف عليه أصحابها بطريق التجربة والاختبار ، فبقيت الكيمياء مفرقة غير مجموعة حتى قام جابر بن حيان الطرسوسى وهو تلميذ جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه فكتب سفرا جليلا فى علل المعادن[٣] ودون الكيمياء فى سبعين رسالة ربطها بأصول العلم ونبذ من مذاهب المتقدمين ما لم يؤيده التحقيق فى مجرباته ، وقد قسم هذه الصناعة إلى قسمين منها القوة النفسية وهى السيمياء، ومنها القوة العلمية وهى الكيمياء، وأدخل العلوم السحرية فى السيمياء وذلك لأن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى صورة أخرى إنما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العلمية . وقد وضع القواعد على منهاج لم يشركه فيه أحد ولا قدر على مثله حكماء اليونان أنفسهم ، ولذلك نسب إليه هذا العلم وصار علم الكيمياء يسمى بعلم جابر[٤] أما الذين اشتغلوا فيها بعده فقد قصروا دون الغاية التى بلغها منها ، وربما أكب عليها جماعة بما طمعوا فيه من تكوين الذهب وإحرازه ولذلك لم يقيدوا مجرباتهم ومصنوعاتهم بالقواعد الثابتة بل جروا على مذاهب ضعفاء العقول من اليونان مثل طاوس وغيره ، وزعموا أن لهم طريقة

---

(١) الأغانى ١٦ : ٨٨ والعقد الفريد ٢ : ١٤٣

(٢) ابن خلكان ٥ : ١٤٦

(٣) حاجى خليفة ٤ : ٢٤٦

(٤) المقدمة ٤٦٣

لاستخدام الجن[١] فى هذه الصناعة فلم يكن طائل فيما صنعوه . ولا فائدة مما دونوه ووضعوه .

وأما العلوم الألهية وهى السياسات والحرب والفلاحة وعلم الأخلاق وسياسة الأخلاق وغير ذلك فلم يكن للعرب نبوغ فيما نقلوه منها عن كتب اليونان والفرس، وإنما ينفرد حسن نظرهم فى علوم الدين كما رأيت وفى علم الكلام الذى وضعوه تحفظا[٢] من العلوم الحكمية إذ كانت تخالف الشرع الشريف[٣] ، وقد رأيت لهم كتبا فى السياسة المدنية[٤] يذكرون فيها تدبير المنزل بمقتضى الحكمة ليحملوا العامة على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه ، وذلك أحسن مالهم من التآليف التى فيها رأى ونصيحة ، أما غير ذلك من السياسات فلم يكن لهم منها إلا بضاعة مزجاة لأنهم لم يُعْنَوا بها قبل هذا الزمان ، ولا نعلم إلى أين يبلغون منها ولا ما تقرره فى نفوسهم من الفائدة وفى معايشهم وآدابهم من المنفعة ، والله سبحانه وتعالى أعلم وهو ولىّ المؤمنين لا رب غيره ولا معين سواه .

أدب السير والحكايات

نُفْرِد هذا الباب لذكر الحكايات والقصص فإنها فن بل أدب قد هوت إليه أفئدة العرب ، وأول من سبق إلى تدوينه عبد الله بن المقفع وهو الكاتب المشهور بالبلاغة[٥] والذى كان قائما بديوان الإنشاء فى خلافة أبى جعفر[٦] ، له كلام

(١) المقدمة لابن خلدون .

(٢) ابن خلكان ١ : ٦٨٧

(٣) حاجى خليفة ٣ : ١٠٠

(٤) ذكر هذا ابن خلدون فى المقدمة ٣٢ وابن خلكان ٢ : ١١٢ و ١١٤

(٥) العقد الفريد فى باب الكتاب وابن خلكان والمقدمة والمستطرف ١ . ١٥٩

(٦) المحاضرة ٣ : ١٣٢

على الملوك يشهد بأنه كان عارفا بالسياسة[١] ومقالاتٌ فى البلاغة تشير إلى أن الحكمة قد نطقت من نواحيه إلا أن أهل زمانه قد اتفقوا ، وهم دونه فى العلم ، على أن يقولوا إن كلامه كان أكثر من علمه [٢] ، لأنهم ما أحبوا أن يرفعوا عقله إلى مساماة البلغاء الذين أوتوا الحكمة وانتهت إليهم البلاغة . وقد كان تدوينه له فى تعريب كتاب هندى يقال له كليلة ودمنه[٣] وهو يتضمن حكايات وضعت على لسان البهائم والطير وأشير فيه إلى سلائقها من الحلم والمكر والجراءة والجبن والتيقظ والذهول والعقل والحمق إلى آخر السلائق لتثقيف العقول ورياضة الأخلاق بهذه الطريقة من الفكاهة، لأنه يستخرج من الأقوال الهزلية ضروبا من الحكمة البليغة ، وهو يشتمل على غرضين سياسى وأدبى ، فأما السياسى فإنه داع إلى العدل وزاجر عن البغى ، وفيه بيان سلوك الملوك فى آدابهم وتدبيرهم لأمور ممالكهم وما يجب عليهم من العدول عن اللهو والغفول إلى التيقظ والسهر وأن الفاضل من الملوك حقيق بأن يعتبر بأقوال الحكماء ولا يقرب إليه أهل النميمة والفساد . وأما الأدبى ففى بيان المعايش فى ظروفها وألوانها وسائر أحوالها والاقتصاد فى تدبير المنزل والمعاملات بين الناس وما ينبغى لهم فى سلوك الأمور من مراعاتها بعين العقل والبصيرة ، ولذلك يعد كتابه من كتب الحكمة ، ونرى الفضلاء من الملوك قد أقبلوا عليه وطمحوا بأبصارهم إليه حتى إن كسرى أنو شروان أنفذ طبيبه برزويه إلى بلاد الهند لاستنساخه فترجمه إلى الفارسية ، ولم تزل الملوك تعظمه إلى هذا اليوم[٤] .

---

(١) الفخرى ٣١

(٢) ابن خلكان والأغانى ٨ : ٧٦

(٣) ذكره المسعودى ١ : ٣٨ والسيوطى وذكر المسعودى أن عبد الله ابن المقفع كان عالما باللغة الفهلوية وأنه ترجم منها إلى العربية غير كتاب كليلة ودمنة كتبا كثيرة .

(٤) ذكر الحصرى أن سهل بن هرون ألف فى زمن المأمون كتابه المسمى « ثعلة وعفرة » يعارض به كتاب كليلة ودمنة وأنه كان ظريفا عالما حسن البيان له كتب ظريفة صنعها معارضا بها الأوائل فى كتبهم بما لا يقصر به عنهم حتى قيل له بزرجمهر الاسلام ٢ : ١٨٦

وقد وضع ابن المقفع فى أول ترجمته فصلا سمـاه « باب غرض الكتّاب » وأودعه من صـنوف البلاغة والحكمة ما ضارع به سائر أبواب الكتّاب ، وذكر أن أغراض واضعه « بيدبا » الفيلسوف تنقسم إلى أربعة فأحدها ما قصد إليه من وضعه على ألسنة البهائم ليسارع أهل الهزل إلى قراءته ، والثـانى إظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان ليكون أنسا لقلوب الملوك ، والثالث أن يشتد الحرص عليه للنزهة فى صوره فيتخذه الملوك والسوقة ويكثر بذلك استنساخه ولا يبطل ، والرابع وهو الغرض الأقصى مخصوص بالفيلسوف خاصة .

ولقد قرأت هذه الترجمة أكثر من مرة بل أكثر من مائة مرة وأنا مشغوف بها لمكانها من البلاغة[١]، وعهدى بجميع الكتب الأعجمية إذا عربت عرِيت إلا هذا الكتّاب فإنى رأيته فى العربية أفصح منه فى الفارسية ، وقـد كان صِبية البرامكة (حفظهم الله) يحاولون حفظه عن ظهر قلبهم ففطَن لذلك أبان بن عبد الحميد[٢]

---

(١) المقدمة ٢٥٧

(٢) ذكر فى العقد الفريد ٢ : ٢٢٨ أن أبان بن عبد الحميد كان من ندماء البرامكة وله قصيدة أنشدها للفضل بن يحي فيها حلاوة شمائله وبراعة أدبه يقول :

أنا من بغية الأمـــير وكنز ... من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب أديب لبيب ... ناصح زائد على النصـاح
شاعر مفلق أخف من الر ... يش إذا ما يكون تحت الجناح
لى فى النحو فطنـــة ونفاذ ... أنا فيـــه قلادة لوشاح
لو رمى بى الأمـــير أصابه اللـ ... ـه رماحا صـدمت حد الرماح
بم أروى عن ابن سيرين فى الفقـ ... ـه بقول منـــور الإفصاح
لست بالضخم فى روائى ولا الفد ... م ولا بالمجعـــد الدحداح ؟
لحيـــة كثة وأنف طـويل ... واتقـاد كشعلة المصباح
وكثير الحديث من ملح النا ... س بصـــير بخافيات ملاح
كم وكم قد خبأت عندى حديثا ... هو عنـــد الأمير كالتفاح
أيمن الناس طائرا يوم صيد ... فى غدو أو بكرة أو رواح
أعلم الناس بالجوارح والصيـ ... ـد وبالخرد الحسان الملاح
كل هـذا جمعت والحمـد لله ... على أننى ظريف المـــزاح

ونظمــه لهم بالشــعر حتى يسهل عليهم اســتظهاره ، ويقول فى مطلع ذلك الكتاب[١] :

هـــذا كتاب أدب ومحنه   وهو الذى يدعى كليلة ودمنــه

فيــه احتيالات وفيه رشــد   وهو كتاب وضعته الهنـد

إلى آخر الأبيات فأعطاه يحيى عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل نصف ذلك جائزة على هذا الاستخراج ، لأنه كان بموضع جليل من البلاغة التى ورثها عن أبيه . فقـد كان عبد الحميد من فحول الكتاب الذين فتقوا أكمام البلاغة وفكوا رقاب الشعر [٢] ، وكان فخرا للمسلمين بما آتاه الله تعالى من البلاغة التى جمعت سحر البيان ، وأخذت بمجامع الجنان ، يقال إنه لما ظهرت دعوة أهل البيت وكان عبـد الحميد كاتبـا فى دولة الأمويين قال لمروان سأصدر عنك كتابا إلى أبى مسلم فإن قرأه حصل عندنا وجه من الآمال وإن لم يقرأه ذهبت الدولة منكم ، فلما وصل الكتاب إلى أبى مسلم (رحمه الله) وكان عالمـا بمكان عبد الحميد من البلاغة قال « أبقوا الكتاب على طيه فإنمـا فيه سحر غالب » على أنى لو سئلت التفضيل بين هذين الاستخراجين لقلت إن ترجمة ابن المقفع حقيقة بأن تكتب بمـاء الذهب وتتحف بها خزائن الملوك .

ولمـا رأى الأدباء إقبال الناس على الكتاب تسارعوا إلى تعريب غيره من كتب السير والخرافة ، فترجموا عن الهندية كتاب وزره وشماس [٣] وفيــه أخبار ملوك الهند وبناتهم وما يتخللها من الأمثال التى توسع العقول أدبا مع فكاهة وترويض أفكار ، وترجموا عن الفارسـية كتاب هزار أفسان وسموه ألف ليلة وليلة [٤] ،

---

(١) الأغانى ٣٠ : ٧٣

(٢) العقد الفريد والمسعودى ٢ : ١٦٣ وذكر أنه أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات فى فصول الكتب واستعمل الناس ذلك بعده .

(٣) المسعودى ١ : ٢٩٦

(٤) المسعودى ١ : ٢٩٦

ومعنى هزار أفسان ألف خرافة ، وكان السبب فى وضعه كما هو معروف أن ملكا من ملوك الفرس كان إذا تزوج امرأة قتلها بعد يوم غيرة عليها من الرجال ، فتزوج بجارية من بنات الملوك ممن لهن عقل ودراية يقال لهـا شهرزاد وفى بعض النسخ شيرزاد ، فلما اتصلت به أخذت تحدثه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها وسؤالها فى الليلة الثانية عن تمام الحديث إلى أن أتى عليها ألف ليلة وليلة ، وإلى أن رزقه الله منها بولد طرحته إليه ، ووقفته على حيلتها عليه. وكان للملك قهرمانة يقال لها رسازاد أو دينار زاد [1] كانت موافقة لها على ذلك ، وفى هذا الكتاب دون المائتى سمر لأن كل سمر كان يحدث به فى ليال عدة ، وهى من أظرف الحكايات التى وضعتها الفرس فى غابر الدهر .

ولما راج سوق هذا الكتاب تداوله النساخ والكتاب وأضافوا إليه حكايات كثيرة وضعوها على سبيل الفكاهة بما يعهد فيهم من طول الباع فى وضع الحكايات ولا سيما ما يتضمن أخبار الجان ووصف مساكنهم تحت البحار وتزويجهم بناتهم من ملوك الأنس وقصص العفاريت والهواتف وغير ذلك إلى أن صار جملة ما فى الكتاب حكاياتٍ عربية لا يخالطها من كلام الفرس إلا القليل ، وهى وإن كانت بعيـدة عن الصدق تظهر فضل العرب فى أنهم يمتلكون فؤاد السامع برقة مأخذهم فى تجميلها ورونقها ، كالذى زعموا أن صيادا ألقى شبكته فى البحر وظل نهاره طوله لم يظفَر بسمكة ، فلما أزمع الانصراف وقد أعياه الملل وضاقت به الحيل جر الشبكة فإذا هى ثقيلة فطمع أن تكون قـد اشتملت على حوت يستعيض بثمنـه عن نصَبه فى ذلك اليوم ، فلما جذبها إلى الشاطئ وجد فيهـا قمقما من نحاس وعليه خاتم سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام ، ففض ختامه فصعِد منه دخان خيّم على السماء ، فنظر فى الدخان فإذا هو يجتمع ويتكون إلى أن وضح منه جان من صفته كذا وكذا . فلما تدانيا جرى بينهما حديث يقبض النفس هيبة وفرقا بحيث لا يتنبه السامع إلى

---

(١) كتاب الفهرست .

أن هناك خرافة ، فإذا انتهت الحكاية إلى ما أصاب الصياد من الجوهر والمال بعد أن خامره الروع وأفزعه الهول انبسط منه الخاطر المنقبض ، والتمس فى نفسه مثلا لهذا المسكين فوجده كثيرا فى الناس فرجع إلى الحكاية فوجد فيها سرا يريده الكاتب من وراء الفكاهة .

وإجماع الرأى على أنْ ليس فى حكايات الناس وقصصهم وأحاديثهم ما هو أظرف من هذه الحكايات وألطف صنعا ، فان فيها من الوصف البارع ، والتمثيل الساطع ، ما ينطق بفضل العرب فيما تطرقوا إليه من وصف معايش الناس وأخلاقهم وما يتقلبون فيه من الأحوال التى توسعوا فى وصفها ، إلى أدب جزيل الفائدة . فأما الحكايات التى ذكروا وقوعها فى الإسلام فلا تبعد عن الأحوال التى تحدث ببغداد فى أكثر الأيام اللهم إلا فيما كانوا يمزجون به أخبار الخلفاء من الخيال لنكتة يشوقون إلى الوقوف عليها مما اتفق وقوعه للملوك ، مثل حكاية الخليفة الثانى وحكاية الخليفة والصياد إلى حكايات غيرها يظرفون بها الخبر عن الرشيد وجعفر ، أما ما ذكروه عن طوافهما [1] مع مسرور ليلا فى الأسواق متنكرين عن أن يعرفهم أحد فإن ذلك ليس بالموضوع ، وقد ذكرت مثله فى رسائلى السالفة إليك غير أنى جردته عن المبالغة التى يزين الرواة بها أحاديثهم ، كوقوف الرشيد فى موضع الخطر أو ارتدائه بلباس الصياد على سبيل الفكاهة أو وقوعه هو وجعفر تحت سيف ذلك الرجل الذى كاد يقتلهما لولا أنهما تداركا أمره بحيلة وجدا بها السلامة والنجاة .

وأما الحكايات التى زعموا أنها وقعت فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان فهى من الغرائب التى لا دلالة لها على الصدق وإنما أقبل خَلق من العوام على تصديقها لانقطاع أخبار الأمم عنهم بحيث يتعذر عليهم معرفة غثها من سمينها ، ولأن ناقل الرواية كان يحدثهم بأن كذا وكذا من الأمور الغريبة جرى فى كذا من البلدان

(١) الاتليدى ١٢٦ والأغانى ٦ : ١٣٧ وغيرهم .

البعيدة الشقة المتفاوتة السبيل ، فلو حدثهم بأن فى الشام مدينة من النحاس [١] أو بالعراق بلدا صار غديرا ثم انقلب ماؤه إلى عمارة وأسماكه إلى أناس ما صدقوا كلامه لأنهم يطرقون هذه البلدان كل يوم وعهدهم بها على غير انقطاع ، وإنما نقل إليهم أن ذلك كله فى جزائر الوقواق وما وراءها من بلدان العجائب فأوسعوا صدورهم لتصديق كلامه بما كانوا يتشوقون إلى الوقوف عليه من نعيم الناس وهم بمكانهم من عيش البداوة .

ومن أظرف ما ورد فى حكاياتهم قصص العشق والغرام فيما أعربوا به عن محاسن النساء بين كاعب حسناء. وغانية هيفاء. وشاعرة فصيحة وعجوز ذات دهاء وما توسعوا به فى كلامهم عن العشاق ووصف هنائهم فى التلاقى ، وتوجعهم أيام الفراق إلى وضع الحكايات التى ترتاح إليها القلوب بما تصف من النعيم الذى يبعد عن أن يتمتع به الناس وإنما هو صورة تمثل فى الضمير على سبيل التخيل ، كالذى يحكونه عن فتى من أولاد الملوك أنه وقع إلى جزيرة كل من فيها نساء وتجارها نساء وجندها نساء وكلهن آية من آيات الحسن والجمال، وأنه قضى بينهن أياما من النعيم أقلُّ ما أصاب فيها أنه كان إذا طرح الشبكة فى البحر على سبيل التسلية خرجت له من الأصداف صبية من بنات الجان ، كأنها حورية من حور الجنان، إلى غير ذلك من الوصف الذى يحرك القلب ويملك الجنان .

وقد حلا لى من حكاياتهم أيضا حكاية السندباد[٢] وهى تشتمل على الحوادث التى وقعت له فى أسفار سبعة أتى عليها جميعا فى طلب المال وفى كل سفرة عجيبة لم يسمع أحد بمثل ما فيها من المتالف التى وجد الكاتب مشقة عظيمة لاستنباط الحيلة فيها على وجوه تدفع الناس إلى ركوب الأخطار لنيل العلا والفخار، بما تمتلك به أنفسهم من ذكر جبال الماس وعيون العنبر وعجائب البلدان التى نزل بها السندباد.

---

(١) المسعودى وذكرها ابن خلدون فى المقدمة ٣٢ فى معرض الانتقاد على المؤرخين .

(٢) ذكرها المسعودى فى موضعين من كتابه أحدهما فى صحيفة ٢٩٦ من المجلد الأول ولم يذكر عنها شيئا والثانى فى صحيفة ٣٨ وقال إنه كان فى عصر كورس ملك الهند وذلك قبل زمن عيسى عليه السلام بثلثمائة سنة سندباد دون له كتاب الوزراء السبعة والمعلم وامرأة الملك وهو الكتاب المترجم بالسندباد .

وعلى بعض ألسنة الأدباء أن هذه القصة ليست من وضع العرب إنما نقلوها عن الهند واليونان وأضافوا إليها ما يحسن أن يكون فى كلامهم حتى نفوا العجمية عنها. وهذا كلام فيه بعد عندى ، لأنى طالما سمعت رواتهم يحدثون بمثل ذلك، وفى مطلع الحكاية أن الحمّال لما اشتد به الحر خط حَملته على باب التاجر فى ظل يتردد إليه النسيم الرطيب، وتفوح منه ريح العطر والطيب وأنه كان يرى عزة ذلك التاجر فى كثرة غلمانه ، ويسمع تغريد القَمارِى والشحارير فى جنانه . وينشَق من طعامه ريحا أحزنت منه النفس لانقطاع أمله منه وهو بمكانه من التعب وشقاء الحال مما يستوقف الطرف ، ويشهد ببراعة الوصف فيما قصد إليه من بيان الفرق بين عيش الرخاء والنعمى ، وعيش الشظف والبلوى .

ولست أظن فى هذه الحكايات السندبادية إلا أن واضعها رجل قد عانى الأسفار ، وتقلب على متون البحار ، حتى عرف ما بالأمصار ، من عجائب الآثار وغرائب الأخبار . وهذا شاهد على صحة ما ذكرناه من تقلب الكتاب فى أيدى الأدباء الذين عَزّ علم جميعهم عن أن يضمه صدر واحد من الرجال ، وإلا فإن فى وصف الحروب من ذكر الكر والفر وحيل الفرسان ما لا يستنبطه إلا من طال وقوفه فى ساحات القتال ، وكذلك فى نوادر الزواج والطلاق من المعميات ما لا يستخرج فتواه إلا فقيه مجتهد فى الأحكام الشرعية أيما اجتهاد ، ولو لم يكن هذا الاستدلال صحيحا لوجدنا فى اختلاف الأقلام دليلا واضحا على اشتراك الأدباء فى تأليفه ، لأنا نجد فيهم من يسترسل فى المغالاة إلى أن يذكر عن فارس من الفرسان أنه قتل فى معركة واحدة كذا وكذا من الخلق مما ليس فى الإمكان إحصاء عددهم فى يوم واحد فكيف بقتلهم ؟ ثم نجد من رسم قواعد الرواية على منهاج لم يتعدّه إلى ذكر المبالغة التى بعدت دلالتها عن الصدق ، وإنما ذكر الأخبار للنظر فى عادات الناس وأخلاقهم وكيف يتقلبون بالزمان أو يتقلب بهم الزمان ، وذلك مثل ما قصد الأدباء إليه فى كلامهم عن العرب من ذكر المحاسن التى تفاخروا بها على جميع الأمم من الكرم والمروءة والعفاف ، والمساوئ التى تفانوا لأجلها فى طلب

الثأر وإدراك الغنائم، او مثل ما قصدوا إليه فى حوادث زماننا هذا من ذكر أخبار النساء كما هى ، إلى غير ذلك من وصف العادات المترفة التى وقعت فى بغداد لهذا العهد ، وهذا هو النوع الخاص الذى أرتاح إليه من حكايات ألف ليلة وليلة لأنه ينبئ عن أخبار العرب الخاصة ، وفيه حسن و براعة وصف لا مثيل لها فى أدب الحكايات .

تدوين الأخبار وأيام النـاس

إنمـا وضع العرب هذه الحكايات بعد أن توغلوا بالأسفار فى أطراف البلدان حتى تجاوزوا الصين إلى ما وراء فَرغانة [١] ، فاستفادوا بذلك غير ما كسبوه من الأموال أحوالا شـاهدوها وعاداتٍ جروا على سنتها ومبانى حاكوا منهـا الزينة والإحكام ، وشرائع تفقهوا فى استخراج ما فيها من أحكام .

وكانت عادة المسافرين بعد عودتهم إلى الديار أن يحدثوا الحى بغريب ما نظروه، وعجيب ماسمعوه . فمن تلك الأخبار المنقولة ما اتصل بى من أنّ فى بعض الأمم رجالا عراض الوجوه سود الجلود لا يزيد طول أطولهم على أربعة أشبار[٢] ، وفى جلودهم نقط حمر وصفر وبيض ، وأن منهم من له أجنحة يطير بهـا ، ومن رأسه كرأس الكلب، ومن جسمه بجسم الثور أو الأسد [٣] ، ولقد سمعت من يحدث أنّ من البلغار من طـوله أكثر من ثلاثين ذراعا يأخذ الفرس تحت إبطه كما نأخذ الطفل الصغير، و يكسر بيده ساقه كما تقطع باقة البقل [٤] إلى غير ذلك . ولست أظن هذه الأساطير التى يتناقلها الأخباريون من أهل الأسفار إلا أنهم رأوا رسومها على الآثار التى خلفها الهنود والفرس والقبط السالفة من قوم فرعون وغيرهم من أهل

(١) يستدل على ذلك مما دونه رحالة العرب وعلماؤهم فى الجغرافيا .

(٢) ابن خرداذبة ٦٣

(٣) القرمانى ٥ : ٥٤

(٤) المستطرف ٢ : ١٦٢

الأعصر الخالية فحدثوا بها رجما بالغيب ، أو تحصيلا لليقين من الريب . ظنا منهم أن أمثال هذه الخلائق المشوهة عاشت فى قديم الزمان . أو أنها لا تزال فيما قصا عنا من البلدان .

ولما دارت هذه الأساطير بين الناس وتناقلها الندماء والجلاس ، أشفق العلماء على أخبار العرب وأيامهم من دخول الفساد عليها أو امتزاج الحكايات الباطلة بها فتسارعوا إلى تقييد التاريخ فى الأوراق حتى لا يتشوه على تمادى الأيام، بتداول الرواية على ألسنة العوام . وقد كان شعر العرب محفوظا فى صدور أهل العلم فنقلوه إلى الكتب للدلالة على ما يرومون إثباته من الأخبار مع بيان صحتها واستخراج الكثير من عقائدهم وعاداتهم من أمثال هذه الأسانيد المحفوظة، وهم يوقتون وقوع الحوادث السالفة مثل ما كان يوقته أهل الجاهلية بقولهم هذا جرى فى أيام كسرى وهذا فى حرب البسوس إلى غير ذلك [١] وأما الحوادث التى وقعت فى الإسلام فقد أرخوها بالسنين والشهور والأيام وكانت أصح فى النقل والرواية من أخبار الجاهلية ، لأن شأن الرواة فيها من الخلاف والاختلاف والمخالفة أشهر من أن يذكر ، والحوادث إذ ذاك محفوظة بالأنواء وطلوع النجم ، ولم يسلم لهم من الفساد إلا علم الأنساب الذى حفظته فيهم العصبية [٢] حتى اتصلت أنساب أشرافهم إلى أولاد إبراهيم (عليه السلام) مثل أنساب قريش وثقيف وغيرهم من البيوتات.

وأول من سبق إلى تدوين التاريخ محمد بن إسحق [٣] فى كتابه عن المغازى والسير وأخبار المبتدأ [٤] ، ولم يكن التاريخ قبله مجموعا ولا معروفا ولا مصنفا ، [٥] ثم

---

(١) راجع كتاب الأغانى .

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون والعقد الفريد .

(٣) حاجى خليفة ٣ : ٦٤٣ وذكر أبو الفداء وابن الأثير أنه مات سنة ١٥٠

(٤) المقدمة ١٧٠

(٥) المسعودى ٢ : ٤٠١

أخذ أهل العلم فى تدوينه بعد ذلك . ووضع محمد المعروف بالواقدى كتابا فى فتوح الشام ضمنه كثيرا من سير الخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم) وأتى على ذكر الحروب التى سُعِّرت نارها على عمال الروم ، إلا أنى رأيته يسوق الحديث فى كلامه عن الجند والقتلى جزافا فيقول إنه سار إلى قلعة كذا خمسون ألفا من المسلمين و إلى حصن كذا كذا وكذا رجلا و إلى البلد الفلانى كذا خلقا عظيما مما لو جمع إلى ما فرقه على سائر الحصون والقلاع لم نجد قدر نصفه فى جنود المسلمين كما ثبت عند أئمة النقل ، وكذلك إكثاره فى عدد القتلى من الروم كان يقول إنه قتل منهم كذا وكذا من الآلاف مما لم يكن فى جندهم مثلُه فى جميع ما لهم من البلدان ، فربما انفرد الواقدى فى علم الفقه والحديث ولم يكن له باع فيما سواه من العلوم .

وقد دوّن التاريخ بعده حماد الراوية وعبد الله الأصمَعِى وهما يعرِفان أخبار العرب وأيامهم وأنسابهم ويمليانها عن ظهر قلبِهما إلا أن الخلل فى رواية حماد أنه يقول الشعر على لسان المتقدّمين [1] فيما يروم إسناده إليهم من نكتة أومن خبر فهو إلى المؤاخذة بما يُدخِل على التاريخ من الأخبار الموضوعة أقرب منه إلى الثناء على ما يضعه من الشعر الذى لا يفترق عن كلام الجاهليين . يقال إنه روى لهم ألفين وتِسعمائة قصيدة ، لكل حرف من الحروف الأبجدية مائة قصيدةٍ كبيرة سوى المقطعات [2] . وأما الأصمَعِى فليس ثمة من الأمور التى ننتقدها عليه إلا أنه كثير الرواية واسعها حتى يكون فيها بعض المِرْية عند كثير من أهلِ العلمِ ، وليس ذلك لغرابتها أو لبعدها عن الصدق بل لكثرتها فيما نقل بمدوّناته ، وهذا لا ينقص فضله فى العلم ، ولكنه من باب تعظيم الشىء الذى يزيد قدره على أن يكون مثله فى صدر رجل .

---

(١) الأغانى وابن خلكان .

(٢) الأغانى ٥ : ١٦٥

ثم إنى وجدت الأصمعى وحمادا كليهما قد وقعا فى الخطأ والقصور اللذين وقع فيهما أهـل الرواية قبلهما وبعدهما . فأما الخطأ فهو إعراضهم جميعا عن ذكر محاسن الأعاجم ممن هو خارج عن دين الإسلام حتى لا يشغلوا كتبهم بذكر مذاهب كفرهم [١] كما يقولون ، وأما القصور فلكونهم يذكرون الحوادث من غير أن يستوعبوا مبـدأها وغايتها ولا أن ينظروا فى عللها وأسبابها ولا أن ينتقدوا على الملوك معايبهم فيما سقطت به دولهم بعـد أن تسلموها بمكان عظيم من النفوذ والسلطان ليكون فى انتقاد الأشياء تذكرة للناس ، ويظهر فضل التاريخ على سواه من العلوم الأدبية ببيان المحامد التى يسترشـد بها والمساوى التى ينبغى الاستنكاف منها والتنكب عن سبيلها .

هذا ما أعلقه فى هـذه الرسالة عن علوم العرب وآدابهم مما يشهد لهم بالفضل الجزيل فيما تمهروا فى استخراجه من كتب الأعاجم ونظروا فيه نظر بصيرة واجتهاد من جميع العلوم والفنون والصناعات [٢] ، إذ كان لهم غير من ذكرنا من العلمـاء كثير من النقاشين والمصورين والصناع ممـا يدل على أن لهم صورا على الورق الصقيل [٣] تظهر خارجة وليست بخارجة ، وداخلة وليست داخلة وفيهـا كل غريبة من الإبداع ، ورأيت من رسومهم على الآنيـة والأعمدة والقباب ما يبهر البشر فى إحكام الصناعة مع الحلاوة وتمـام الزينة مع الحسن والطَلاوة ، وهـذا كله قد توصلوا إليه فى عصر الرشـيد وملوكنا البرامكة (أعزهم الله) وقـد سمى بالعروس [٤] لخصبه ونضارته وكثرة خيره وانتشار علمه فى جميع البلدان الإسلامية

---

(١) المقدمة ٢٠٣ وابن حوقل وغيره .

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون وكتاب حاجى خليفة .

(٣) كليلة ودمنة .

(٤) المسعودى ٢ : ٤٠١ والشرقاوى ١٢٢ وفى الحصرى ٢ : ١٠٣ كانت أيام البرامكة روض الأزمنة .

ولعمرى إن فيما ذكرت بهذه الرسالة من آداب العرب لشاهدا ناطقا ببلوغ الغاية من العمران إذ كان العلم مرآة يرتسم فيها حال الأمم فى كل عصر ومكان .

وقد وقع تدوين هذا الكتاب فى أول شهور السنة السادسة والثمانين بعد المائة من هجرة نبينا المكرم (صلى الله عليه وسلم) والله نسأل أن يجمل حالنا بالستر الجميل ، إنه بالمؤمنين رءوف رحيم ، لا رب سواه .

الرسـالة الثامنة

رسالتي إلى قيصر الروم

هـذا تاسع كتبي إليك أفرده لذكر الرسالة إلى أنبرذور الفرنجة ، وأنا أكتبه اليوم على متن السـفينة في البحر الفاصل بين الروم وإفريقية . كان الرشـيد يوم وصل رسول الأنبرذور إلى الحضرة [١] قد استدعاني إليه فأصبته في مجلسه متنقلا كأنه يريد أمرا عظيما ، فاستدناني [٢] إليه وقال إنا أتانا من ملك الفرنجة رسول يُقرِئنا منـه السلام ويلتمس جميل رعايتنا بمن يحج إلى بيت المقدس من ملتـه ، فرأينا أن نوجهك إليـه بلطائف نروم منه أن يتقبلها في سبيل المودّة لغاية نرغب فيها إليه هي التعصب على بني أمية الذين يمزقون الأندلس فيما هو ناشب بينهم من الحروب [٣] ، فإذا وافقنا على ما نروم من الاستيلاء على ديارهم فهو المقصود من إنفاذك إليه في هذه الرسالة ، واجهد في أن تسترق قلبـه بخلابة لسانك ، وتقدمْ إليه بالوعد الجميل في أننا نوفيه حقه يوم الفتح . ونصرف له نفقة الحرب من بيت مالنـا ، ونجرى الأرزاق الواسعة على جنـده ونقاسمه ما تحوى خزائن الظالمين من المـال والجوهر ، واستصحب معك هذا اليهودي الذي جاء به رسوله فهو يترجم عنك إليه ، وخذه بالتعظيم الكثير لأنه شـيخ مترف جليل القدر فيما نقل الرسول إلينا ، وقد قدّمنا إلى مسرور أن يصحبك بالخدام مع الدواب والخيام إلى بيروت من ساحل الشام ، فإذا عدت إلينـا وأنت آخذ على مصر أمرنا الليث أن يوجه

---

(١) هـذه اللفظة لقب رومي للقياصرة وقد وردت في كتب العرب ووجدت في ابن خلكان ١ : ٨٤ لفظة أنبرور بحذف الذال وهي تشبه أن تكون منقولة عن الفرنسية .

(٢) في الأغاني ٤ : ٤٨ أن الخليفة يستدني من يحبه .

(٣) راجع المقري وابن الأثير تجد كلاما مطولا في هذه الحروب .

معك طائفة من الحرس إلى عَيْذاب فتوافينا إلى البلد الحرام حيث توافقنا حاجين، فسر على بركة الله ، وإياه نسأل أن يتولاك بعين الحراسة، ويهدى قلبك الصواب وهو ولى التوفيق .

فلما أذن لى بالانصراف أتيت البرامكة لأستطلعهم رأيهم فى المصلحة فلقيت جعفرا متنزها فى البستان وبين يديه جماعة من الندماء . فلما أقبلت عليه قال اخرج عما بنفسك وحدثنا عن سفر البحر ، فقلت وأنَّى ذلك ؟ فقال علم الله أنى أنا الذى أشار على الرشيد بأن يوجهك إلى ملك الفرنجة رسول خير ومودة وسلام . ثم أومأ إلى الجلاس فتنحوا عن موضعنا، فاستدنانى إليه وقال بم أوصاك ؟ فقلت بكذا وكذا من الأمر، فوجم ساعة ثم قال سبحان الله إلام يتمادى به تغرير القتال ؟ لقد أشرت عليه بأن يعدل عن مناجزة الأمويين ، لأن لنا فى الشرق ما يشغلنا عن قتالهم، وفى الخوارج الذين يقارعونه على الخلافة فى كل حين ما إنْ ضعفنا عنهم مرة واحدة فسدت دولته فسادا لا تقوم لها من بعده قائمة . وإن يكن الرشيد عن موعظتى غنيا بما عنده من العقل والعلم فإن الملوك قد تطمح نفوسهم إلى ما وراءه الشر من طمع الاستيلاء ، وقد قال الله تعالى « لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » [1] ، فما لنا وللأمويين وقد كفانا الله شرهم ، فإن كانوا فى شقاق فلندعهم ينادون بالويل والحَرَب إلى ما وراء البحور ، وليس لنا أن نلقى برجالنا فى المواضع المجحفة ونوردهم موارد الهلاك ، فإنى أرى الجند يفنَوْن قبل الإشراف على تلك المتالف ، كما أنى أحسب الأنبرذور على ما يؤثر عنه من إيثار الرفق ولزوم التؤدة بعيدا عن موافقته على ما يروم من الإيقاع بملوك أمية ، وهم مطمئنون فى ديارهم معتصمون فى قلاعهم وقد عَمروا أمصارهم ودوّنوا دواوينهم وشكُّوا فى حصونهم واتخذوا الأهبة لهم والعُدة والكُراع ، ودون الاستيلاء على ديارهم

---

(١) سورة المائدة .

شيب الغراب [١] ، ولقد كان أولى بالرشيد أن يرى دول الأندلس درعا منيعا للإسلام وسيوفا مشهورة على الروم ، لأنها لو دخلت فى حوزته لم يأمن إن أرسل الجند أن يخونه القواد أو مات الأنبرذور عن خلف لا يرعى العهود أن يوجه من يقبض على عمالها من لدنه ، وقد بدا لى أن أعاوده فى هذا الشأن فإن رغب عما فرط منه وإلا فليفعل ما كان فاعلا لبلوغ أمنيته .

فلما كان الغد بكر جعفر إلى الرشيد وخلا به ساعة جيدة يقلب عليه الكلام ويمحضه الرأى والنصيحة ولكن من غير أن يقوّم ما بنفسه من الميل ويعدل به عن ركوب هذا المركب الوعر . فاستدعانى إليه وسلمنى كتابه إلى الأنبرذور وأمرنى بأن أتجسس أخبار العمال وأتفقد أمورهم حيث مررت . وأوصانى برجل من الأمويين فى دمشق كثير المال كبير الجاه أن أتحقق حاله حتى إذا كان يخشى منه استمالة أهل الشام إلى الفتنة رفعت ذلك إليه ليتدبر أمره [٢] ، ثم قال وإذا مثلت بين يديه «بريد قيصر الروم» فقل له عن أمية إنهم قوم قد كفروا بالنعمة وتركوا فروض العبادة وسعوا فى الأرض فسادا وأنا أحق بالملك منهم لمكاننا من قرابة النبى صلى الله عليه وسلم . ثم أذن لى بالانصراف ، وكان يظهر من الميل إلىّ وجميل العطف علىّ بحيث كان يدعونى بلفظة الحبيب [٣] كلما بدأ بالكلام بعد انقطاعه .

---

(١) نقلت الأخبار السالفة عن ملوك أمية أنهم لما هربوا من دمشق إلى الأندلس ووجدوا اليمانية فيها غير مذعنة لدولتهم قاتلوهم قتالا أحيوا معه الموت أو يحصلوا على لقمة تبق الرمق وبلغ استقتالهم فى سبيل الملك إلى أن يقتل أحد ملوكهم ابنه من أجل أنه تراجع عن العدو وقد هاله كثرة جموعهم فقال لأحد أصحابه بعد أن ضرب عنقه اكسروا جفون السيوف فالموت أولى أو الظفر «ابن الأثير ٦ : ٤» .

(٢) ذكر الاتليدى ١٢١ والأبشيهى ١ : ٨٤ قصة ظريفة عن هذا الأموى فليراجعها هناك من أحب .

(٣) ذكر الأغانى ٦ : ٥٧ أن الخليفة لا يترفع عن أن يدعو بعض خواصه ياحبيبى ونقل صاحب العقد من نوادر إسحق أنه لما دخل على المأمون استدناه إليه فدنا منه قال إسحق فرفع المأمون يديه فاتكأت عليه فاحتضننى بيديه وأظهر من إكرامى وبرى ما لو أظهره صديق لى مواس لسرنى ٣ : ٢٤٠

وكان فى لطائف الخليفة إلى الأنبرذور فيل عظيم ابيض كان عنـد المهدى (رحمه الله) أرسله له بعض ملوك الهند [١] ، وثياب فاخرة من الوشى المنسوج بالذهب ، وبسط ديباج من طَبَرِستان ، وأعطار من اليمن والحجاز ، ومسك وصندل وأعواد نَدّ من الهنـد ، وسُرادق عظيم مجلل بأنواع الحرير وكلاليبه من الذهب الملَبَّس بالوشى ، ومِزْولة كبيرة تدل على الأوقات فى ليل ونهار ، وهى من عمل صناع بغـداد ، وشِطْرَنج بديع الحسن قد اتخذت أدواته من العـاج المنقوش ، صنعه نقاش من النصارى اسمه يوسف الباهلى ورسم اسمه على الأداة التى تمثل الشاه ، وهى من الحسن بحيث إن النـاظر إليها يكبر صناعتها وقد مثل فيلا يلف خرطومه على فارس وعلى رأسه جندى قد أخذ بزمامه ومن حوله ثمانية فرسان يراد بهم الرمز إلى البيادق الثمانية الذين يناضلون عن الشاه وعلى ظهره هودج مزخرف بأنواع الرسوم قد استوى فيـه ملك على رأسه تاج مثل تيجـان ملوك حمير [٢] ، وقد أظهر هذا الرسام فى تصويره من الحذق ما يستحق عليه الثنـاء ، لأنه مثل أصحاب الفيلة كما هم ، وجعل فى آذانهم أقراطا وعلى زنودهم أسـاور وعلى أبدانهم القراطق وهى لباس الهنود ، واتخذ عدد الخيل مزخرفة وصنع لهـا السروج والأزمة ، وقلد الفرسان شيئا من السلاح ما عدا الجندى الذى أخذه الفيل بخرطومه فإنه يعالج نفسه للخلاص مما هو فيه ، وقد طرح سلاحه على الأرض وعليه سمة التوجع والانكماش [٣] ممـا يشهد للممثل بأنه من مهرة الصناع .

المرور بالكوفة وبلاد الشام

لقد رسم لى طريق الوجهة بأن أسير إلى الكوفة ثم إلى دمشق ثم إلى بيروت على ساحل البحر ، وكان مسيرنا فى غاية البطء رفقا بالفيل والدواب المثقلة بالأحمال ،

---

(١) ذكره الأغانى ٩ : ١٣٦

(٢) ذكر تيجان ملوك حمير صاحب مروج الذهب ٢ : ٢١٥

(٣) هذه الأداة لم تزل إلى هذا اليوم محفوظة عند الفرنجة وقد رأيت صورتها فوصفتها كذلك .

فاجترنا بعد الانفصال عن الحضرة بمدينة النيل التى مصرها الحجاج [١] ، وهى بمنتصف ما بين بغـداد والكوفة [٢] ثم عطفنا إلى الأنبار[٣] ثم إلى مدينة الكوفة فنزلت بها فى رحبة خُنَيْس الأنصارى من أجداد أستاذى أبى يوسف رحمه الله[٤] ، وهى فى مقابلة الباب الكبير المعروف بباب الفيل[٥] ، وقد طاب لى المقـام بين أهلها لما وجدت فيهم من الحب لأهل البيت[٦] ، (شرفهم الله) ولا سيما فى قوم كندة من ملوك النصرانية ، وهم من غلاة الشيعة[٧] وأكثرهم عالم وحكيم وأديب كان بيتهم معدن العلم ومظهر الحكمة ، وقد لقيت منهم إسحق الكندى وهو عامل الرشـيد على الكوفة ، قلده الإمارة بإيعاز البرامكة الذين يحافظون على تأييد الشيعة [٨] ، ويبغون من إلف الرعية فيما بينهم تعظيم الإسـلام فى انتفاعه بحكمة الأمم وعلومهم وصناعاتهم ، وقد جروا فى ذلك على سـنة أبيهم خالد (رحمه الله) وهو الذى قرب بعض النصارى إلى أبى جعفر كما تقدم فى موضعه من الكتاب .

ولقـد وجدت الكوفة من أعظم مدن العراق [٩] ، وهى ذات ماء وشجر ونخيل [١٠] ، وقدرتُ أن تكون فى الكبر كنصف بغـداد ، فحق تسميتها بالكوفة لاجتماع النـاس فيها ، من قولهم تكوف الرمل إذا ركب بعضـه

---

(١) القناوى ١٣٥

(٢) ياقوت ٤ : ٨٨٣

(٣) المسعودى ٢ : ١٤

(٤) ياقوت ٢ : ٧٦٢

(٥) الأغانى ٥ : ١٦٦

(٦) هذا معروف فى كتب المؤرخين وذكر أبو الفداء ٢ : ١٤ أن كثير علماء الكوفة كان يميل مع الإمام على كرم الله وجهه .

(٧) الوطواط ١٢٥

(٨) المحاضرة ٢ : ٨

(٩) ابن جبير ٢١٣

(١٠) القناوى ١٣٦

بعضا (١) ، وقد زارنى فيها كثير من أدبائها المشهود لهم بالفضل والاجتهاد ، ولكنى لم يتهيأ لى زيارتهم لقِصر الوقت ، ولقد وجدت إسحق أميرهم من العلم والعقل بالموضع الذى أكتفى من الدلالة عليه بأن آسف لبعده عن الإسلام . وهو يسكن دارا مباركة تعزى إلى عقِيل بن أبى طالب (٢) ، وهى بإزاء المسجد المبارك الذى قال فيه بعض الصالحين إن ركعتين فيه تعدِلان عشرا فيما سواه من المساجد ، و إن البركة منه إلى اثنى عشر ميلا من حيث أتيته (٣) ، وقد زرته قبيل الانفصال عن المدينة ولم أر فى عمد المساجد كلها ما هو أطول من عمده (٤) ثم زرت مشهد علىّ عليه السلام (٥) ، وتبركت به وقرأت عنده شيئا من القرآن .

ولما انفصلت عن الكوفة تخلفت عنى الدواب المحمّلة ، فانقطعت فى الفلاة مع جماعة من الحرس ، ورحنا نقطع القفر بعد القفر ، حتى إذا عظمت على مشقة السفر تذكرت طِيب بغداد وظرائفها (٦) وحننت إلى مجالس البرامكة والدارُ عندهم جامعة ، وأوقات الأنس بها رائعة ، فكنت أقول متمثلا بكلام إسحق النديم (٧) :

على أهل بغداد السلام فإننى ... أزيد بسيرى عن ديارِهم بعدا

إذا ذكرت بغداد نفسى تقطعت ... من الشوق أو كادت تذوب بها وجدا

---

(١) تقويم البلدان ٣٠١

(٢) الأغانى ٤ : ١٨٢

(٣) ياقوت ٤ : ٣٢٥

(٤) ابن جبير ٣١٣

(٥) تقويم البلدان ٣٠١

(٦) القزوينى والأغانى ٥ : ٩٤ و ١٧ : ٧ وفى غير موضع .

(٧) الأغانى ١٧ : ٧٥ وذكر ياقوت فى صحيفة ٦٨٨ من المجلد الأول أن الرشيد أنشد البيت فربما لم يكن الشعر له بل كان من نظم اسحق لأنه كثيرا ما كان يذكر بغداد و يتشوق إليها وهو فى أسفاره مع الرشيد و يقول :

ذكر الأحبة فاستحنّ وهاجه ... للشـوق نوح حمامة وحمام

لم يبده فى الصدر إلا أنه ... حبّ العراق وأهله بسلام

ولم أزل مجدا فى السير حتى بلغت دِمَشق فى اثنتى عشرة ليلة [١] ، ولو أنى سرت تحت جناح الليل لبلغتها فى ثمانية أيام [٢] فما دونها ، فنزلت فيها عند قاضيها الإمام عمر بن أبى بكر بن تميم القرشى العدوى [٣] فى دار بناها عويمر أبو الدرداء ، وهو أول من ولِى القضاء بدِمَشق ، وكان القضاة فيها يسكنون قصر الحجاج [٤] المعروف بالقصر الكبير .

أما الشام فإنها بلاد مباركة كثيرة الخيرات ، وافرة الغلات ، إلا أنها نكِدة الحظ فى تغلب الأمم الغازية عليها ، ولذلك قلت عِمارتها إلى هذه الغاية بعد تغلب الكلدان عليها والفرس الأولى والفراعنة واليونان والروم والفرس الثانية ولا سيما قبيل أن يظهر الإسلام ، وقد كانت تمزقها الحروب التى تسعرت نيرانها بين بنى عامر المتغرضين للفرس وآل غسان المتغرضين للروم ، فانتقض عمرانها ودرست سبلها وتداعت أحوالها إلى الانحلال بعد أن كانت فى عظمة لم يكن مثلها فى الدول إلا قليلا ، وكانت فيها التجارة كأعظم ما يكون من النَفاق وللعلوم والصنائع سوق رائجة رابحة فدرست تلك المحاسن وتقلصت تلك الرسوم حتى لم يبق اليوم من مصانعها غير رسوم شاخصة وآثار ناقصة .

وإنما دعا أهلها إلى الفساد وجلب عليهم المذلة وطمح بأبصار الملوك إلى التهامهم ما وقع بينهم من الشقاق وما كان فى نفوسهم من التحزب

---

(١) الأغانى ٥ : ١٦٦

(٢) الاتليدى ٢٦٣

(٣) قضاة الشام .

(٤) الاتليدى والمستطرف ١ : ٢٨٧

الذى هو أشد من الفتنة[1] ، فكان ظهور المرسلين فيهم سببا لتعصب بعضهم على بعض و إن كانت مواعظهم داعية إلى المحبة والاتحاد . وهـذا هو الأمر الغريب الذى لم يسمع بمثله فى البلدان ، فلقـد كانت الشام مهبط الوحى ومسقط النبيين وموطن الأولياء الطاهرين الذين كانوا يتخذون الأنصار لنفوسهم و يرومون إدخال الناس فى شيعتهم ليجمعوا ما كان شتيتا من شملهم ومتفرقا من كلمتهم وأغراضهم، إلا أنهم لم يلغوا من ذلك الغاية التى كانوا يرومونها من أمرهم . فانما الواجب على أهل الوطن الواحد أن تكون فيهم جامعة الألفة وألا يتعصبوا بميولهم إلى غير ما يقصدون منـه الوحدة فان عظمة الأمم لا تحصـل إلا بالاجتماع والعصبة ، سـنة الله فى خلقه . انظر إلى الدول الرومية كيف عبث بهـا العدو حين وقع فيها الانقسام والتجزؤ ، وانظر إلى الدولة الأموية لم يقارعها أبو مسلم على الخلافة إلا عند ما تخالف عليها صِبيتهم [2] فيما يرومون إليه من طمع النعيم ، وانظر إلى أهل البيت السلالة الشريفة والذرية الصالحة كيف وقعت بهم الشـدة يوم تفرقوا على أغراض لا تجمع بينهـم إلى الوحدة ، فلمـا اجتمعوا فى المغرب إلى إدريس بن إدريس (رضى الله عنه) قام لهم مُلْك يرجف له الشرق ، فإن تنظر إلى ذلك كله و إلى كثير ممـا وقع وما هو واقع فى الممـالك تجد أن الأمم لا تقوم دولهم إلا برابطة الاجتماع والعصبية،ومتى تسقط من روابطهم تلك الأوصال ينذر أمرهم بالانحلال وتتداعى أحوالهم إلى الاضمحلال .

---

(١) هكذا كانت الشام فى زمن الجاهلية والإسـلام فإن مصعب بن الزبير لمـا خطب النـاس قال بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليـك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين أشار بيده نحو الشام وهو يريد أن به إلى يومه مثل ذلك .

(٢) ذكر صاحب العقد الفريد أنه قيل لبعض بنى أمية ما كان سبب زوال ملككم قال اختلاف بيننا واجتماع المختلفين علينا .

وصف دِمَشْق وأنها بهجة البُلدان

ولمـا وفدت على دمشق وسرحت الطرف ناحيـة الغُوطة امتلأت عينى من خضرة الأرض حتى تخيلت نفسى فى جنة من جنات السماء ، ولا غرو فإن مياهها وأشجارها ورياحينها لأفضل ما فى الدنيا من المتنزهات[١] ، يسير الرجل فى رياضها يومه لا تصيبه أشعة الشمس لالتفاف شجرها بعضه على بعض،وهى فى أسمى مقام بين مدن الإسلام ، بعد دار السلام . قد اشتبكت فيها العِمارة[٢] وتنزهت عن المِثل فى النضارة . لكنها ليست بالمفرطة فى الكبر ، وربما كانت إلى الطول أميل منهـا إلى العرض[٣] ، وهى لا تخـلو من السقايات[٤] فى أسواقها ولا بيوتها ، ومبانيها طبقات فوق طبقات[٥] وتحتوى من الخلق على العدد الكثير ، والنـاس على مذاهب فيمن بناها من الأولين . فمنهم من يقول إن عادًا أول من نزلهـا من الناس وإنها هى إرم ذات العِماد[٦] ، ومنهم من يذهب إلى أن بانيها الغادر غلام نمرود [٧] أو دمشاق بن كنعان ، ومنهم من يزعم أن الذى اختطها هو دمشقس مولى الإسكندر الرومى ، [٨] ومنهم من يرى غير ذلك . إلا أنه ليس فيما يقولون حجة ترجع بهم إلى محاسن التحقيق فى وثائق الآثار ولا سيما عند الذين يعزون بناءها إلى الروم ، فإن الرد عليهم واضح لا يحتمل التأويل بعد أن آتى موسى كليم الله على

---

(١) تقويم البلدان ٣٥٣ وابن خرداذبة ١٢٤ وياقوت ٢ : ٥٨٩

(٢) القزوينى ٢٦

(٣) ابن جبير ٢٨٥

(٤) المقرى ٣٠ وابن جبير وابن بطوطة وياقوت ٢ : ٥٩٠

(٥) ابن جبير ٢٨٥

(٦) ابن خرداذبة ٧١ والقرمانى ٥ : ١١٨ والشريشى ١ : ٢٠٧

(٧) الكتبى ٢٣

(٨) القرمانى ٥ : ١٩٢

ذكر دِمَشق فى غير ما آية من كتاب التوراة . ومهما يكن من اختلاف المؤرخين فى ذلك فإن هى إلا مدينة أوّلية [١] قد صحِبت الملوك من الكنعانيين والروم وآل جفنة وبنى أمية دهرا طويلا ونالت من العزة والعِمارة ماقل أن يناله غيرها من المدن، ولو كان البناء الذى شاده فيها الملوك من الحجر الصلد ثم بقى ماثلا إلى هذه الأيام لكانت دِمشق زينة الدنيا ، ولكنه شيد من طين ولَبِن فأتى عليه الانحلال ومحت الأيام آثاره [٢] فلم يبق منه إلا قلعة من الحجر تعزى إلى الروم [٣] وقصر يقال له قصر جيرون عليه أبواب عجيبة من النحاس [٤] وبناء يقال له البريص فيه كثير من العمد ، وتزعم العامة أنه كان يجرى منه الشراب فى قديم الزمان غير أن أركانه اليوم قيام وقعود . وحيطانه ركع وسجود [٥] ، وقصران من الحجر لعمر بنِ عبد العزيز [٦] وللوليد بنِ عبد الملك [٧] وهما جميع ما تخلف عن ملوك بنى أمية ، لأن ما نجا من معول الزمان لم ينج من معول أبى جعفر [٨] ، كما مر فى موضعه من الكتاب .

ولقد وجدت أهل دِمشق أحسن الناس خَلْقا وخُلُقا ، يكرمون الفقراء ويتلمسون منهم أن يتقبلوا صدقتهم حتى يكونوا هم فى صورة السائل [٩] ، ولو أن فقيرا أعرض عن كِسرتهم لقالوا ويحنا لو علم فينا خيرا لتناول من طعامنا [١٠] ، وقد بلغنى عن

---

(١) تقويم البلدان ٢٥٣

(٢) قلائد العقيان ٥

(٣) ابن جبير ٢٩٠ وتقويم البلدان ٢٥٣

(٤) المسعودى ١ : ٢٤٢

(٥) المسعودى ١ : ٢٩٧

(٦) ابن جبير ٢٩٣

(٧) المقدمة ١٥٤

(٨) ابن الأثير والمسعودى ٢ : ١٤٣ والخميس ٢ : ٣١٤

(٩) الأبشيهى ١ : ١٢

(١٠) ابن جبير ٣٨٨

فضلائهم أنهم يزهدون فى الدنيا وينقطعون إلى الله تعالى متبتلين فى جبل لُبنان [١]، غير أنى لا أطلِق هذه الرواية إلا على فئة قليلة من الصالحين ، لأن جمهورهم مائل إلى اللهو والطرب ولا سيما فى يوم السبت ، فإنهم لا يشتغلون فيه إلا بالمجون والتهتك لا يبقى فيه للسيد حَجْر على المملوك ، ولا للوالد على الولد ، ولا للرجل على المرأة [٢]، وهذا أمر غريب لم أره فى غير دِمشق ولا أعلم هل النصارى يشاركونهم فى ذلك ، لأنى رأيتهم منقطعين عن مخالطة المسلمين فى المنازل والأحياء ، قد تألبوا على كنيسة معظمة عندهم تعرف بكنيسة مريم [٣] ، ويقال إنها من أعظم بِيَعهم بعد بيت المقدس .

وبقيت فى دِمشق ثمانية أيام إلى أن وفد الغلمان بالدواب المحملة وكنت قد استقصيت البحث عن هذا الأموى الذى أتعب خاطر الرشيد أمره فلم أجد له غرضا فى السياسة ولا هو طامح إلى ملك ولا إمارة ولا يحدث نفسه بشىء مما يقلِق بال الرشيد حتى يخافه على أمره، فأمسكت عن السعاية به لأنى رأيته وهو خِلو من هذه الأغراض مثل التاجر الكثير المال والجاه ليس إلا ، وقد تهيأ لى باستطلاع خبره أن أقف على سِيرَ غيره من أقارب الخلفاء متابعة لما نُقِل إلى من خبره فوجدت فى الأولين عقلا وسياسة إلا أنه لما صار الأمر إلى صِبيتهم المترفين استرسلوا فى التصف والتهتك [٤] ، وعكفوا على اللذات واستخفوا بأمر الرعية ، وغفلوا عن مصالح الملك فأزاله الله تعالى عنهم وألبسهم ثياب الذل بذنوبهم .

وقد انتهى ترف ملوكهم إلى الوليد بن يزيد [٥] وهو الذى أخذت الخلافة فى الانحلال بين يديه ، وتحرك الدعاة فى خراسان بما وجدوا فيه من قلة الخِبرة

---

(١) ابن جبير ٣٨٩

(٢) القزوينى ١٢٨ وابن بطوطة ٢ : ١٩٧

(٣) ابن جبير ٣٨٥

(٤) الأغانى ١٣ : ١٦٥ والمقدمة والعقد الفريد وابن الأثير وغيرهم .

(٥) الدميرى ١ : ٩٠

بأمور الملك وعكوفه على اللهو والطرب [١] وقيام خلافته بين الكاس والوتر [٢] وقد استرسل فى التبذير حتى أنفق ما جمعه أجداده فى بيت المال ، لأنه أفرط ، فى الكرم إفراطا فاحشا حتى إنه لم يقل « لا » فى سؤال سئله [٣] ، وكان إذا وصل الشعراء عدّ أبياتهم وأعطاهم عن كل بيت ألف درهم [٤] ، وكان يتأنق فى صنوف الملاذّ من المطعم والمشرب والملبس فيقال إنه لبس القلنسوة من الوشى [٥] مذهبة ، واتخذ العقود من الجوهر كالنساء يغيرها فى اليوم مرارا [٦] لشغفه بها ، وكان يتختم بالياقوت ، ووقع من خواتمه إلى بنى العباس [٧] خاتم يساوى أربعين ألف دينار ، ويقال فى حسنه إنه كان إذا أخرج من محبسه أضاء المكان من شدّة لمعانه . وكان يسترسل فى الطرب إلى أن يوجه رسله [٨] فى طلب المغنين من الحجاز وغيره ، فتجد أنه لم يثقل أمره على الرعية من وجه واحد ، وإنما هناك وجوه قد ساقت عليه الفتنة فقام الناس عليه وقتلوه شر قتلة . هذه نتف من أخباره حدثتنى بها مغنية كانت له يقال لها برق الأفق [٩] ، وهى اليوم عجوز تكاد تنال الأرض بوجهها من الكبر وقد أخبرتنى فى بعض حديثها أن الجوهر كان فى صباها متداولا بين الناس ، فلما جمعه الوليد بن يزيد من كل وجه وغالى به غلا ثمنه منذ ذلك الحين [١٠] ، وهذا شىء من الإفراط فى الترف لم نسمع بمثله عن

---

(١) المسعودى ٢ : ١٤٦

(٢) ابن خاقان ٤٤ فى قصيدة ذكرها هناك .

(٣) أبو الفرج ٢١٠

(٤) الأغانى ٦ : ١٤٨

(٥) الأغانى ٦ : ١٤٦

(٦) الأغانى ٦ : ١٢٩

(٧) المستطرف ٢ : ١٩١

(٨) الأغانى ٦ : ١٠٧ والعقد الفريد جزء ٢ والمسعودى ٢ : ١٤٦

(٩) الأغانى ٣ : ٨٧

(١٠) الأغانى جزء ٦

أحد من الملوك المترفين . ومن نظر إلى ما كان عليه ملوك بنى أمية من العزة والصولة وما صاروا إليــه من الذلة علم أن الله سبحانه وتعالى لا يغير ما بعبده من نعمة حتى يغير العبد ما بنفسه بارتكاب المعصية .

ولمـا طال مُقامى بدمشق تهيأ لى أن أزور أماكنها المشهورة ، فزرت موضعا يقال إن هابيل وقابيل نزلا فيه [١] ، وموضعا يقال له باب الساعات[٢] يزعم أهل الأخبار أنه كانت فيه قارة تقدم عليها القرابين فما يقبله الله منها تبتلعه نار من السماء وما لم يقبله يبقى فى موضعه على الصخرة . وزرت مشاهـد جماعة من أهل البيت المشرفين والصحابة والتابعين والأولياء الصالحين[٣] فى جبل قاسيون ومقابر الشهداء[٤] وجبانة البـاب الصغير [٥] و بينها قبور ملوك بنى أميـة [٦] متهدّمة والرخام عليها متكسر [٧] ، وزرت قرية فى سفح الجبل المذكور يقال لها بَرْزة[٨] يزعم الناس أنها مولد الخليل إبراهيم (عليه السلام)[٩] حضينِ الملائكة و إلى ما فوقها حجارة مصبوغة بشىء يشبه أن يكون أثر دم عتيق يقولون إنهـا الحجارة التى رض بهـا قابيل رأس أخيه هابيل [١٠] ثم جره إلى مغارة هناك يقال لها مغارة الدم [١١] ، وفى حضيض

---

(١) القزوينى ١٦٢

(٢) ياقوت ٢ : ٥٨٨

(٣) ابن جبير والشريشى ٢ : ٢٣٦ والطبقات ١ : ٢٩ والمسعودى ٢ : ٤٢

(٤) قضاة الشام .

(٥) ذكرها ابن خلكان .

(٦) الخميس ٢ : ١٤

(٧) المسعودى ٢ : ١٤٣ وابن جبير ٢٨٣ وابن الأثير ٥ : ١٣٠

(٨) ابن جبير ٢٧٥

(٩) ياقوت ٢ : ٥٨٩

(١٠) القزوينى ١٢٦

(١١) ياقوت ٢ : ٥٨٨

الجبل مغارة أخرى تسمى مغارة الجوع يزعمون أن سبعين نبيا ماتوا فيها من الجوع وإنى لأستحيي أن أنقل حديثهم كما قالوه فإنهم يقولون إنهم سبعون ألف نبي[١] كأن كل من عاش فى الشام نبيّ أو وليّ ، وفى طرف الجبل مما يلى الغرب ربوة[٢] يقول المفسرون إنها هى المذكورة فى قوله تعالى « وآويناهما إلى ربوةٍ ذاتِ قرار ومعين » ويرد عليهم آخرون بأن المراد بها ربوة فى الإسكندرية[٣] من ديار مصر .

وهناك مسجد يقولون إن المسيح عليه السلام أوَى إلى مغارة بجانبه ، وفيه حجر قد انفلق إلى شطرين ولم ينفصل أحد الشقين عن الآخر بل اتصلا كرمان مشقوق[٤] ، ولهذا المكان منظر حسن من البساتين والخضرة فى جميع جوانبه ، ولا إشراق كإشراقه حسنا وجمالا واتساع مسرح للأبصار . وفيه تنقسم مياه المدينة إلى أنهار سبعة[٥] أكبرها نهر يزيد ونهر ثوْرى[٦] وهما فيه نهر واحد يعرف بنهر بَرَدَى وهناك بعض قرى مثل نَيْرَب ومزة[٧] والسهم وسَطْرَى[٨] ، وفيها الجوامع والمرافق والحمامات إلا أنه لا يظهر منها إلا ما سما بناؤه لتطاول الشجر عليه ، وفيها من الفواكه والتفاح والخوخ وسائر الثمار ما ليس فى البلاد مثله صحة وطيبا[٩] ، وإلى ما يليها من طرف الجبل موضع يقال له عين برما[١٠] كان

(١) القزوينى .

(٢) ابن بطوطة ١ : ٢٢٣

(٣) المحاضرة ٢ : ٣

(٤) ابن جبير ٢٨١ والقزوينى .

(٥) تقويم البلدان ٢٥٢

(٦) ذكره ابن خلكان ١ : ٢٧٨

(٧) ابن جبير ٢٧٩

(٨) كليات ٢٠٢

(٩) الكنز ١٤٤

(١٠) المسعودى ٢ : ٨٣

معمورا لأيام معاوية بن أبى سـفيان بجماعة من أهل خراسان ثم توالى عليه الخراب لظلم الخلفاء بعده حتى أصبح إلى هذه الغاية كليل العين . وبقى الأثر من عمارته ودهبت العين .

ولقد كانت دِمشق فيما خلا من الزمن الغابر ممزوجة بصنوف غير محصاة من فضلات العمران ويعيبها كثرة الوحول فى أزقتها وتراكم الطين فى ساحاتها ، فلما أقام فيها الأمويون شرعوا فى إزالة الأقذار [١] منها وقاية من الطاعون الذى كان يقع بها تباعا فى السنين السالفة [٢] وهذا هو الأثر الذى تشهد لهم البلاد به كما تشهد لهم الآثار الباقية عنهم بتشييدهم البناء على الهندسة التى لا نجد أعظم منها وقعا فى القلوب ولا أتم حسنا وجمالا فى العيون، كالذى يبلغنا عما بنوه فى الأندلس [٣] من القصور التى حارت فى جمالها عقول الفرنجة ، فقد شاهدت دار الوليد بن عبد الملك من قصورهم فى دمشق فوجدتها بديعة الحسن مبنية بالحجر والصُفّاح والأعمدة مفروشة بالرخام الأخضر [٤] ، وهى تتناهى فى البهاء والإشراق إلى أن يضرب بها المثل [٥] فى إحكام رسومها وجلالة بنيانها ، ولو لم يكن من تمام زينتها إلا الأعمدة المزخرفة منصوبة فى أروقتها فرادى وأزواجا لكفى البصائر روعا ووسع الأبصار ابتهاجا . وأذكر أنه لما أدخلنى صاحب الوقوف رياضها لمشاهدة ما فيها من الأشجار الغريبة [٦] لم يتحول نظرى عن القصر لما راعنى من حسنه

---

(١) أبو الفداء ١ : ٢٠٧

(٢) راجع ابن الأثير والمسعودى والعقد الفريد . وفى مروج الذهب من كلام عن الكوفة أنها ارتفعت عن البصرة وحرها وسفلت عن الشام ووبائها ٢ : ١١٦

(٣) راجع المقرى والعقد الفريد وابن الأثير .

(٤) الوطواط ١١١

(٥) المقدمة ١٥٤ والفتح بن خاقان ٩٤

(٦) الوطواط ١١١

المفرط وأعجبت به من الزينة التى يُكبرها الناظر ويقف عندها وقفة الذاهل الذى به عقدة من السحر ، وهو بين أساطين دقيقة وقباب رفيعة ورواشن [١] مخرمة وخرجات مزينة وطيقان مجسمة بالجص المنقوش وبينها من الرسوم العجيبة ماتجول فيه الأفكار فتجله وتميل إليه الأبصار فلا تملّه .

جامع الوليد المعروف بالجامع الأموى

هو أفخر مأثرة لملوك بنى أمية ، بناه الوليد بن عبد الملك صاحب القصر المتقدم ذكره ، وكان ذا همة فى تشييد العمارات والمساجد [٢] والقصور ، وقد شملت عنايته جميع البلدان فى تسهيل الثنايا وحفر الآبار وإصلاح الطرق ، حتى كان الناس فى أيامه إذا تلاقوا فى الأسواق والمجالس تساءلوا عن العمارة وعن أى بناء شرع فيه خليفتهم ، كدأبهم فى التساؤل عن الخير والصلاة فى أيام عمر بن عبدالعزيز ، وعن الطعام فى أيام سليمان بن عبد الملك ، وعن اللهو فى أيام الوليد بن يزيد ، وليس فى بلاد الإسلام كلها مثلَ هذا الجامع حسنا وإتقانا [٣] وجمال رسم وتمام زخرفة وزينة ، وهو مائل إلى الجهة الشمالية من المدينة وقد سمعت عن سفيان الثورى أنه قال الصلاة فيه بثلاثين ألف صلاة [٤] .

كان موضعه قبل الإسلام بِيْعة للنصرانية تعرف بكنيسة ما ريحنا [٥] ، ومن قبل ذلك كان بيت عبادة لأهل جاهليتهم ، فلما دخل المسلمون المدينة عَنوة

---

(١) ذكرها الأغانى ٥ : ١٠

(٢) ابن جبير وياقوت ١ : ٥٩١ وابن الأثير ٥ : ٤ والفخرى ١٥١ وأبو الفداء ١ : ٢٠٩ والمقدمة ٣١٠ والقزوينى ١٢٧

(٣) ابن جبير ٢٦٣ والشرشى ١ : ٢٠٨ وتقويم البلدان ٢٣٠ وابن بطوطة ١ : ١٩٧

(٤) ابن بطوطة ١ : ٢٠٤ وابن جبير .

(٥) ابن الأثير وأبو الفداء ١ : ٢١٠ وياقوت ٢ : ٥٩١ وابن جبير وابن بطوطة ١ : ١٩٨

تحت قيادة خالد بن الوليد أخذوا نصف الكنيسة ، ثم دخل أبو عبيدة بن الجراح صلحا فانتهى إلى نصفها الآخر ، وقد وقع الصلح بينه و بين النصارى فبقى نصفها فى أيديهم وقد كانوا يزعمون أن الذى يهدم بيعتهم يجن ، فلما صارت الخلافة إلى الوليد قال أنا والله أول من يجن فى سبيل الله ، ثم بدأ الهدم بيده [٢] فبادر المسلمون وأكملوا تخريبها حتى هاجت النصارى وعلا صياحهم ، فعوضهم الوليد عنها مالا جسيما وأرضاهم بكنائس عدة صالحهم عليها [٢] ، ثم وجه إلى ملك الروم [٣] فى إشخاص اثنى عشر ألفا من العملة والصناع المرخمين، وتقدم إليه بالوعيد إن هو توقف، ثم أكمل هدمها سوى حيطانها ، وأنشأ فيها القناطر وحلاها بالذهب وعلق فيها الأستار من الوشى والإبريسم ، وبقى العمل فيها نحو تسع سنين ، وكان يعمل فيها ألف مرخم يجلب إليهم الرخام [٤] والمرمر من كنيسة أخرى لأمم النصرانية بمدينة أنطاكية تعرف بمزور [٥] .

وقد غرم الوليد فى هذا الجامع من الدنانير المضروبة زنة مائة وأربعة وأربعين قنطارا [٦] بالدمشقى ، وذلك يعادل عشرة آلاف ألف دينار [٧] ، وقرأت فى بعض الكتب أن جملة المنفق عليه كان أربعمائة صندوق ، وفى كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار ، ففى القدر الحاصل منه توافق بين الروايتين . وكان المتولى على النفقة عمر بن عبد العزيز [٨] قبل أن يلى الخلافة ، وقد اتخذ فى المسجد

---

(١) ابن جبير ٢٦٤

(٢) الخميس ٢ : ٣١١

(٣) المقدمة ٢١٠

(٤) تقويم البلدان ٢٣٠

(٥) المسعودى ١ : ٢٧١

(٦) الخميس ٢ : ٣١١

(٧) ابن جبير ٢٦٣

(٨) المسعودى ٢ : ١١٩

ستّمائة سلسلة من الذهب [١] للقناديل والثريّات ، وزين جدرانه بفصوص من الذهب والفُسَيْفِساء ممزوجة بأنواع من الأصباغ العجيبة تمثل أشكالا من الرسوم لم ير أبهج منها فى العيون ، ورفع عمده من الرخام المجزع طبقة فوق طبقة [٢] ، واتخذ الأساطين الضخمة فيما يجاور الأرض ، والسوارى الدقاق فيما يعلو الحنايا والقِباب، وفى خلال ذلك صور المدن والأشجار بالألوان والذهب، وكتب فى حائط المسجد بالذهب على اللازورد « ربنا الله ، لا نعبد إلا الله، أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التى كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين فى ذى الحجة سنة سبع وثمانين » [٣] .

أما طول هذا الجامع (وذلك من الشرق إلى الغرب) فهو مئتا خُطوة أو ثلثمائة ذراع [٤] ، وعرضه من القبلة إلى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة . وأبوابه أربعة . أولها الباب الشرقى ويعرف بباب جيْرون ، وعليه عمودان من الحجر فى غاية الإفراط فى الطول والعرض ، يقال إنهما من بقايا الكنعانيين [٥] ، إذ ليس فى وسع أهل هذا الزمان قطعهما ولا نقلهما . ثم الباب الشمالى ويعرف بباب الناطفيين ، وكان مدخل الكنيسة قديما . ثم الباب الغربى ويعرف بباب البريد ، ثم الباب الجنوبى ويعرف بباب الزيادة وهو يُفضى بالخارج منه إلى دار معاوية [٦] المعروفةِ بالخضراء ، وكان قد نزلها مروان بن الحكم بعد واقعة مرج راهط كما هو معروف. وفيه ثلاث مقصورات أشرفها المقصورة التى اتخذها معاوية (رضى الله عنه) عندما كان للمسلمين نصف الكنيسة ، وتعرف بالمقصورة الصحابية ، وهى أول

---

(١) ياقوت ٢ : ٥٩٥

(٢) ياقوت ٢ : ٥٩٣

(٣) القزوينى وياقوت والمسعودى .

(٤) ابن بطوطة ١ : ١٩٩

(٥) القزوينى ١٢٧

(٦) أبو الفداء ١ : ٢٠٤

مقصورة صنعت فى الإسلام[١] ، بناها هذا الرجل العظيم وقاية لنفسه من الخوارج أن يغتالوه فى أوقات الصلاة كما اغتالوا عليا عليه السلام ، فكان إذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف [٢] ، وإلى جانب هذه المقصورة خزانة مغشاة بالنقوش فيها المصحف الكريم الذى وجهه عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى الشام [٣] وأخرج إلى منها صاحب الوقوف خاتما من الفضة للوليد بن عبد الملك ، قد نُقِش عليه «ياوليد إنك ميت ومحاسَب» ، وآخر لأخيه سليمان وكلماته «آمنت بالله مخلصا[٤]» ، فأخذتهما لأطرف بهما المأمون عند عودتى إلى بغداد ليضيفهما إلى ماديه من خواتم الخلفاء ، وعلى هذا الجامع قبة دورها ثمانون خطوة عليها رَصاص يمتد منها إلى أن يغطى سطوح الجامع كلها بألواح طولها أربعة أشبار فى عرض ثلاثة ، وربما اعترض فيها نقص أو زيادة . وهيئة السقوف من الخارج هيئة نسر قد نشر جناحيه ، وكأنما القبة رأسه ، وهى فى سمو الارتفاع بحيث تراها من أى موضع استقبلت دمشق . أما صحن المسجد فإنه من أجمل المناظر ، وعلى جدرانه آيات من القرآن الكريم ، ورسوم بالذهب تدهش البصر والبصيرة وهناك مجتمع الدمشقيين ومتنزههم لا يزالون فيه بكرة وعشية يقرءون ويتحادثون .

ولهذا الجامع ثلاث صوامع[٥] واحدة بالجانب الشمالى وهى مذهبة من أسفلها إلى أعلاها [٦] ، وفيها مقاعد ومجالس ، واثنتان بالجانب الغربى وإحداهما أكبر الصوامع الثلاث . وقد وجدت فى أروقته ودهاليزه وصحنه وفى المساجد المتشعبة منه ماء يجرى بلا انقطاع ، وشاهدت فى البلاط القبلى قُبالة الركن الأيمن من

(١) ابن جبير ٢٧٥ وأبو الفداء ١ : ١٩٩

(٢) الفخرى ١٢٩

(٣) ابن بطوطة ١ : ٣٠٣

(٤) المسعودى ٢ : ١١٩ والخميس ٢ : ٣١٤

(٥) ابن بطوطة ١ : ٢٠٣

(٦) الشريشى ١ : ٢٠٨

المقصورة الصحابية تابوتا معترضا من الأسطوانة وفوقه قِنديل موقد أبدا فى الليل والنهار يقال إنه مشهد رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام [١] ، ومن حوله عمد عجيبة قد ظهرت فيها عروق أخرى من غير ألوانها تخيلها العين منزّلة فيها بأيدى الصناع ، إلى غير ذلك من المحاسن التى حواها هذا الجامع المبارك ، وعظمت عن أن يحيط بها وصف ، فإنى لأحسب الزائر لو تردد إليه زمانه لرأى كل يوم ما لم يكن قد رآه قبل [٢] من جمال الرسم وإحكام الصنعة ، كما أحسب أنه لا يزوره أحد إلا وهو يجدّد الدعاء لبانيه [٣] وإن لم يكن له ميل فى السياسة مع الأمويين .

المرور ببعلبك وركوب البحر من بيروت

رَجْعٌ إلى قصّ الرحلة . ركبت من دِمَشق فى غد اليوم الذى سافرت فيه الغلمان إلى بيروت ، فوصلت فى منتصف الطريق إلى بلدة غنّاء ذات سور قديم يقال لها بعلبك « ومنها إلى الزَبَدانى وهى مدينة على طرف وادى بردى ثمانية عشر ميلا » [٤] وهى ذات أشجار وأنهار وعيون وخيرات كثيرة [٥] وفيها الكرم الخصيب . ولقد لقيت فيها فيلسوفا من النصارى يقال له قسطا بن لوقا [٦] ، صاحبنى فى زيارة الآثار التى فيها وأخبرنى عنها بأشياء كثيرة ربما أتيت على بعضها فى سياق الحديث .

---

(١) ابن جبير ٥٧٥

(٢) القزوينى ١٢٧

(٣) ابن جبير .

(٤) تقويم البلدان ٢٥٥

(٥) ابن بطوطة ١ : ١٥٨

(٦) المقرى فى ترجمة يعقوب الكندى .

وقد أخذت هذه الآثار العظيمة بمجامع قلبي حيرة و إعجابا ، وأعظمها هيكلان كبيران أحدهما أعتق من الآخر [١] وفيهما من النقوش العجيبة المحفورة فى الحجر ما لا يتأتى حفر مثله فى الخشب ، مع ارتفاع جدرانهما وضخامة حجارتهما وطول أساطينهما وعجيب بنيانهما [٢] مما يذهب العقول تعجبا من اقتدار الرجال على مثل هذه العظائم . وقد أخبرنى قسطا هذا الفيلسوف أنه لا يرى إلا أن هذين الهيكلين من بناء أمة ماهرة فى فن الهندسة ، كما أنه لا يرى الحنايا التى تُقلهما إلا أعتق من الآثار الظاهرة ، وفى ظنه أنها وضعت فى أيام سليمان بن داود عليهما السلام ، ولما جاءت الروم الأولى هدموا المعبد العتيق ، ورفعوا الهياكل الماثلة مكانه .

أما الحجارة الثلاثة العظيمة التى تعد من عجائب الدنيا فقد رفعها الروم بأيدى عبيدهم على ما جرت به عادتهم من استخدام الأسرى فى البنيان ، وليس كما تزعم العامة من أن الجن هم الذين بنوها لسليمان عليه السلام كدأبهم فيما يحدثون عن كل أثر [٣] من آثار الأولين فيه معجزة للآخرين . وإنما رفعها الروم بالحيل الهندسية والقوة الآدمية [٤] يدلنا على ذلك ما نجد فى أطرافها من النُقَر التى تقضى بأنها كانت ترفع جرا بالأمراس بأن يمهد لها فى الأرض سطح من التراب يرتفع شيئا فشيئا مع امتداده إلى أن ينتهى إلى حيث هى مرفوعة ، ثم تجر بالسلاسل على عجلات لها بكرات من الفولاذ عريضة الأطراف حتى لا تغوص فى التراب صغيرة الجرم حتى تحتمل الثقل ، وتكون أشد من البكرات الكبيرة التى لابدّ أن تلتوى تحت هذه الحجارة العظيمة ولا تأتى بالمقصود من استعمالها لرفع الأثقال .

---

(١) المسعودى ١ : ٢٩٦

(٢) المسعودى ١ : ٢٩٦

(٣) نجد فى كثير من كتب العرب نسبة المبانى العتيقة إلى الجن .

(٤) المقدمة ٣٥٨

وقد كانت سياسة الروم مع الأمم التى يتغلبون عليهـا أن يأخذوا دينها بالتعظيم والتبجيل ليستميلوها إليهـم ويبيتوا فى أمن من تحركها للفتنة على غير اضطرار إلى حراستها بالجند، إذ تنبئ الأخبار السالفة أنهم كانوا يملكون معظم العالم، فلو دعاهم حفظ البلدان إلى إقامة الجند فيها للزمهم آلاف الألوف، وهذا بعيد عن أن تقوم دولة من دول العالم بكفالته . فلمـا دانت لهم الشام وكان بعل[1] معبودا فيها من الصابئة وغيرهم كما قال تعالى «أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين» بنوا لعبادته هـذا الهيكل العظيم على شكل غريب يقصدون به الإعجاز ليظهروا ضخامة ملكهم لأهل المشرق واقتدارهم على عظـائم الأمور ، إذ ليس للظن بأنهم قصـدوا إلى المَنعَة موضع فى نظر العقلاء . فهذا أحد اللولبين اللذين يفضيان بالراقى عليهما إلى سطح الهيكل قد اتخذ أعلاه بمـا هو زائد على النصف من حجر واحد فُصلت منه الدرجات والسقف والحائط الدائر من جميع جهاته، وكذلك الحجارة الثلاثة العظيمة قد اتخذت فى أعلى الجدار لتظهر للوافد على بعلبك من حيث هو مستقبل للهيكل، فلو أنه أريد بها المنعة لاقتضى ذلك أن تكون فى أسـفل الجدار لا فى أعلاه ، كما أنه لو أريد ذلك من اللولب لكان النصف المتخذ من قطعة واحدة قائما فيما يدانى الأرض أو يماسها، حتى إذا وهى أعلاه بقى هو فى موضعه، أو تداعى جدار السور بقيت الحجارة الثلاثة مردًا لهجوم العدو .

ثم إنه لمـا انقرضت الروم الأولى وانفرد ملك الروم الثانية بالقسطنطينية وسائر المشرق وقد أخذوا فى تعظيم النصرانية رأوا أن بقاء هذا الهيكل محجةً للناس تنشغف أفئدتهم بما فيـه من الغريب ولا يقصدون الكنائس وهى دونه فى البهـاء والإشراق مضرٌ بالنصرانية وحابس لها عن أن تعم الشام، فعمدوا إلى تخريبه ومحو الأثر المـاثل منه . وكان فى القسطنطينية بطرك ذو عقل ودهاء يقال له فم الذهب يحنا ، فأشار على القيصر أن يتخذه كنيسة لعبادتهم لتحصل المنفعة منـه مع حفظ

---

(١) المسعودى ١ : ٢٩٦

الأثر الجميل، فاتخذه كذلك . وفى رواية أنه أشار عليه بأن يُعمل فيها الفؤوس ففعل أو يقال إنه لم يفعل . فانظر إلى هذا الهيكل كيف تقلبت به أغراض الأمم فقد شادته الروم الأولى لغرضهم فى الدنيا، ثم خربته الروم الثانيـة لغرضهم فى دينهم ، ثم مثلت آثاره لهذا الزمان ناطقة بعزة الله شاهدة أن لا باقى سواه .

ولمـا انفصلت عن بعلبك مررت بسهل أفيح يقال له البِقاع وعرّجت فيـه على موضع يسمى بكَرْخ نوح[1] يزعم أهله أن فيه قبر صاحب السفينة عليه السلام . وكنت أرى بمقرُبة من كل قرية من قراه ردوما قد تراكمت أمثال التلال كأنها من بقايا أمة قد خلت، وصرفت من بعلبك إلى بيروت يومين فى جبل لُبنان لصعوبة مسلكه ، وكنت أميل إلى عيون القرى لتنزيه النفس وإرواء الظمأ ، وإنهـا لكثيرة فى هذا الجبل المبارك وهى تمذَع فى شعفاته . وأقمت فى بيروت حرسها الله ثلاثة أيام أنتظر هبوب الريح الموافقة ، وهى مدينة جليلة[2] على ضفة البحر ، طيبة الإقليم ، عليها ســور من حجارة [3] تحف بها عمارة مشتبكة فى سفح لُبنان كان يستجيدها الوليد بن يزيد المتقدم ذكره فيقول[4] :

رب بيت كأنه متن سهم سوف نأتيه من قُرى بيروت

ثم يقول[5] والنفس تائقة إليها والقلب مشغوف بحماها :

ألا يا حبــذا شخص حِمَى لُقيـاه بــيروت

وهى فرضة دمشق ومعظم الشام، وفى مرساها مجتمع كثير من سفن التجارة، ويجلب منها حديد[6] لبنان إلى ديار مصر ، وفى شرقيها نهر يغلظ فى الشتاء قد بنى

---

(١) ابن بطوطة ١ : ١٣٣

(٢) تقويم البلدان ٢٤٧

(٣) الإدريسى .

(٤) الأغانى ٦ : ١٢٢

(٥) الاغانى ٦ : ١١٧

(٦) الإدريسى وابن بطوطة ١ : ٣٣١

له قدماء أهلها قنــاة [١] يُجرون المــاء فيها إليهم ، و إلى غربيها مشهدالأوزاعى (رحمه الله) ، وميلاده ببعلبك[٢] وهو نخر المحدثين من أهل الشام ، وله فى علم الحــديث[٣] مدونات جمع فيها الصحيح المروى عن الصحابة والتــابعين ومن سمع منهم واستخرج الأحكام الشرعية على مذهب انفرد به أهل تلك البلاد .

وقد كان لبيروت شأن عظيم فى غابر الأيام ، وكان عليها ملوك من الكنعانيين ومن قام بعدهم بأعباء الدول الجسام . وكان للعلوم فيهــا سوق ليس بعدها غاية فى الرواج ، حتى إنها دعيت بمدينة الحكمة . وكان للروم فيها منــازل وهيا كل هجروها بعد الفتح وجلوا عنها جلاء لم يرجعوا بعده إلى أن عاد إليهــا العمران فى الإسلام بقيام الخلافة فى دمشق ، إذ كانت المدن لا تصلح إلا بقيامها بالملك أو قيــام الملك فى جوارها حيث تتوارد الخيرات وتتقاطر الوفود ويحصل الأمن للتجارة .

وإن كنت قد شهدت لهذه المــدينة بطيب الهواء فانى لا أنكر ما فى ريحها الشمالية من الرطوبة التى تحدث فى الرأس ألمــا لا يشعر به إلا الغريب الزائر[٤] ، غير أن هبوبها فيها ليس بالمتواصل حتى نعدّه من عيوب الأقاليم . بل الغالب على بيروت ريح الصَبا التى تنعش النفس ، تأتيها من ناحية الرمال المنبسطة على شاطئ البحر ، فربما وجدت هذا الموضع أصلح للسكنى من البلد العتيق . وفى ظنى أنه إذا توافر العمران فسيضطر الناس أن يحدثوا بناءهم فى هذا الموضع إذ هو أقرب وجها إلى نسيم الصبا منه إلى ريح الشمال .

وركبت البحر من هذا الثغر المحروس فى أول يوم من شعبان، وجرى مركبنا بهواء شمالى لطيف ليس بالثقيل ولا بالخفيف ، أرسله الله إلينا بكرمه ولطفه ،

---

(١) تقويم البلدان ٢٤٧

(٢) أبو الفداء ٢ : ٧ والطبقات ١ : ٥٠

(٣) ابن خلكان .

(٤) القزوينى .

واستمر سيرنا فى البحر نحو عشرين يوما إلى أن أقبلنا على مالِطَة ، وهى جزيرة فى أول بلاد الفرنجة ، وبها كنائس معظمة لأمم النصرانية ، فلبثنا يومين فى مرفئها نتسوق منها الزاد ، ثم غادرناها إلى مرسيلية فى ساحل الديار الرومية إلى غرب اللنبردية [1] .

لقاء القيصر والمنصرَف من الرسالة

ولما أقبلنا على مرسيلية لم نر لها شيئا من زخارف البنيان . ولا وجدنا فى أهلها أثرا من محاسن العمران . لأنهم كانوا قبل دخولهم فى ولاية هذا الأنبرذور أهل جاهلية وخشونة ، تستعبدهم طائفة طاغية من أنفسهم ، تُجرى فيهم القضاء بحسب هوى النفس ، فلما استولى على ممالكهم أقام عليهم أميرا فوض إليه أمر الجند والقضاء وجباية الأموال ، وجعله بمنزلة الوزير فى الإسلام . وأقام تحت يده طائفة من العمال يتولون المناصب فى ولايته ، ولهم ألقاب معروفة عندهم مثل المركيس وغيره . وليس فى مرسيلية من البنايات المزخرفة سوى قصر مبنى على علياء تشرف على المدينة ، يظهر أنه كان مسكنا لبعض أمراء الجاهلية ، وكنيسة عليها قباب مرفوعة نصبها هذا الأنبرذور الذى نصر أمته ونصر القسيسين والرهبان كما هو معروف ، وقد نظر بعين العناية إليهم وأحسن بالنعم الطائلة عليهم ، واتخذ منهم أولياء يستشيرهم فى أموره ويرجع فى السياسة إلى رأيهم ، إذ كان القوم من دونهم همجا لا يعرفون القراءة ولا أميطت عن بصائرهم غشاوة الجهل ، ومعظمهم عبيد للتموّل من التجار ، يموتون جوعا بين يديه وهم يبللون أرضه بعرق تعبهم وشقائهم ثم لا يحصلون على كسرة تمسك رمقهم ، فأين هذا من حضارة العرب وصلاح أمرهم واتساع المعايش بين أيديهم واحتذائهم أشرف السنن العادلة ؟ فكأن الله تعالى قد خص هذه الأمة من الفضل والنعم [2] بما حرم مثلَه أمم المغرب . فان

---

(١) تقويم البلدان ٣١٩

(٢) المسعودى ١ : ٢٣٦

العرب أحلى منهم وأحلم ، وأعلى وأعلم ، وأقوى وأقوم ، وأعطى وأعطف ، وأحصى وأحصف ، وأشرى للفخار وأشرف ، وأنفى للعار وآنف . وحسبى بما نقلت إليك من أخبارهم فى هذا الكتاب دليلا على ما ركب الله فى طبائعهم من الأنفة وعزة النفس ، وما آتاهم الإسلام من المحاسن التى تشرفهم وتعلى ذكرهم .

وقد شاهدت فى ديار القوم كثيرا من الأمور التى أخاف إن أتيت على بيانها أن تجر الحديث إلى الخروج عما أنا بصدده من ذكر الرسالة . وقد وجدت عاداتهم غير منطبقة على عادات الشرقيين، بل كثيرها مستهجن أو باق على خشونة جاهليتهم. ومن الغريب المألوف عندهم أن النساء يمشين فى الأسواق بلا نقاب ، ويجلسن مع الرجال سافرات الوجوه ، وهذا استرسال لا أظن أن تصان معه الأعراض صيانتها فى المشرق من وراء الحجاب . وقد وقع بينى وبين الأمير الذى صحبنى فى مرسيلية مذاكرة فى هذا الأمر وكان يظن أن المرأة ذليلة فى ملتنا وأن منع ظهورها إلى الرجال ناشئ من جهة استصغارها وتحقيرها، فذكرت له أن الله تعالى قد وفّاهن حقوقهن [1] فى الدنيا والدين، ووعد الصالحات منهن نعيما مقيما فى الآخرة وأمر بأن تجرى عليهن الوراثة التى لم تكن لهن قبل الإسلام .

وكان أمير مرسيلية عند ما اتصل به خبر وصولى بالرسالة قد أخرج إلى الجند ولم يترك شيئا من مظاهر الاحتفاء إلا أجراه فى سبيل تعظيمها و إجلالها ، فلما سألته عن الأنبرذور أخبرنى أن له غيبة فى رومة لأمر بينه وبين الباب [2] الذى هو خليفة الأمم النصرانية ، وأنه يمكث عنده أربعين أو خمسين يوما ، فاستطلت هذه الغيبة منه، وخفت فوات الحج إن بقيت منتظرا رجوعه ، فرأيت أن أوافيه برومة ، فركب معى من لدن الأمير رسول إلى القيصر وجزنا عباب هذا البحر

---

(١) قد أوصى النبى صلى الله عليه وسلم بالنساء بقوله إن لنسائكم عليكم حقا وإن لكم عليهن حقا إلى أن قال فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا .

(٢) كنية البابا بالباب مذكورة فى تقويم البلدان ولفظها بتفخيم البائين وتشديدهما .

الذى لم تجزه بعدُ سفن المسلمين إلى أن منّ الله تعالى علينا بالوصول إلى رومة بأيمن طائر وألطف ريح والحمد لله على جميل ما يولينا من النعمة ويتداركنا به من اللطف .

ولما أقبلنا على رومة أبلغ الرسول الأنبرذور خبر قدومى من لدن الرشيد فسير إلىّ أمراء دولته وأهل حاشيته وبِطانتــه ، فساروا بى إلى حيث هو مقيم فى دار الباب ، وهو قصر بل قصور قد جمعت بين الضخامة والإحكام ، وعُنِى البابون من خلفاء بطرس كبير الحوار يين بتجميلها وتزويقها حتى صيروها نزهة جمعت الجمال والحسن ، وكنت حين جاوز بى الأمراء مقصوراتها إلى مجلس الأنبرذور قد رأيت على جدرانها صور ملوك وأئمة وعباد قد طحنتهم رحى المنون ، فلما دخلت عليه وجدته جالسا على مِنصة من فوقها قبة عليها كتابة بالرومية ، وهى مجللة بالذهب ، وعلى رأسه تاج مرصع باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، وفى يده قضيب الملك ، وعليه حلة من الوشى كأعظم ما يكون من حلل الملوك ، وبين يديه حرس قد وقفوا بالسيوف المشهورة والحراب والأعمدة ، وبينهم جماعة من العلوج وأشراف العساكر وطائفة من الجثالقة والرهبان المقدمين قد لبسوا الوشى الذى يقيمون به الصلاة فى أعيادهم ومواسمهم ، ولكن لم نر مثله على من يجاورنا منهم فى المشرق حسنا يُعشِى الأبصار بريقه ولمعانه .

فلما مثلت بين يديه قمت بما وجب على من الإجلال له وبلغته سلام الرشيد على لسان المترجم ، فكلمنى بترفع الملوك الذين توقع جلالتهم مهابة فى قلوب الوافدين عليهم ، ولكن من غير أن يكون فى نفسه جبروت ، وشكر للرشيد مودته وأثنى عليه ثناء جميلا ، وكان الأمراء والرهبان يمدون إلىّ أعناقهم ويحدقون فىّ بأبصارهم كأنهم لم يروا من قبلى مشرقيا على دين الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم أشرت إلى الترجمان أن يذكر له هدية الرشيد وأنه يُطرف بها جلالته لارتباط المودة بينهما ، فشكرنى على ذلك مرة ثانية ، ثم استدنانى منه وأمرنى بالجلوس ، وأخذ يسألنى

عن رحلتى إليه عطفا مال إليه بعد الترفع الذى استقبلنى به ، فكنت آجيبه بما تقتضيه الرسوم من حمد الله على ما آتاه من الملك العظيم والثناء عليه لما أوجد لرعيته من أسباب الخير والراحة ، ثم سألنى عن الدولة فى المشرق وأنه يروم أن يكون الدهر للرشيد فى صفاء ، فأجبته بما فى الإشارة إليه تحفظ عن ذكر بنى أمية ، والملأ من الأعيان والرهبان حاضرون ، ثم سألته أن يأذن لى بالدخول عليه فى خلوة وانفراد فأجابنى إلى ذلك وهو يظهر ائتناسه بى وتوسمه الخير مما وقع بينه وبين الرشيد من التواد .

ولما انصرفت من حضرته وقف لصحبتى أميرًا من عظماء دولته ملك قلبى برقة نفسه ، وأحسن منقلبى بلطيف أنسه ، وأحل كرامتى عنده بالمحل الأرفع ، لم يترك أثرا مشهورا فى رومة من قصر منيف ولا منزل مزخرف ولا موضع ذى حسن وبهاء إلا سار بى إليه وأرانيه ليعظم فى عينى أمر الفرنجة ، فما كنت لأُكبر من مبانيهم إلا الكنائس التى يعظمونها ويتأنقون فى تمتيقها بالرسوم التى تتناهى فى الحسن وجمال الزينة ، وهذا الرسم أثر لهم من الصناعة ينفردون به دون المشارقة[1] الذين ينهاهم الدين عنه[2] ، وإنما يكونون فى حاجة إلى صناعتهم إذا بنوا مسجدا أو قصرا مزخرفا كما علمت ، إلا أنه لا يصح انفرادهم بالحذق فيه دونهم لبطلان الموازنه فيما يتركه فريق ويأخذ فيه الآخرون . وفى نفسى أن المسلمين لولا نهى الشرع عن التصوير ما بعد أن يفوقوا فيه الروم ، فقد رأيت من عمل الرسامين فى المشرق الأقصى ما يقرب أن يكون فى جودة عمل الروم . ورأيت صورا من بلاد الصين وصلت إلى البرامكة

---

(١) لم يكن للشارقة فى زخرفة مبانيهم إلا أن يتخذوا أشكال الخطوط دون الصور؛ وقد ابتدعوا من رسومها أشكالا تقيد الأبصار فى الحسن والبهجة مع أنه ليس أصعب على الرسام من ابتداع شكل لا يتوسع فيه بغير الخطوط المماثلة وبذلك يعلم مقدار فضلهم فى الصناعة بما وضعوه من هذه الخطوط وما طلقوا عليها من الكتابة التى اتخذوا فيها طريقة التزويق لتملأ العين بهجة وارتياحا .

(٢) المقدمة ٢٢٨

وهى تمثل رجالا ونساء وأولادا بحيث أن الناظر إليها يميز بين الضاحك والباكى ، حتى لقد يميز بين ضحك السرور وضحك الشماتة [١] ، وهذه غاية فى المهارة لم يبلغها إلا كبراء أرباب العقول من صناع الروم . وأعظم ماشاهدت من كنائس رومة بيعة بطرس حوارى المسيح عيسى عليه السلام ، وهى من عجائب الدنيا [٢] ، وفيها مـن الرسوم والنقوش والأصباغ والأعمدة والذهب [٣] ماأذكرنى جامع دمشق فى بهائه وجماله ، وهى أبدع ماشاهدته من مبانى الروم ، وامتـدادها مع مقصوراتها نحـو ستمائة ذراع [٤] فيما سمعت ، وامتـداد الكنيسة يبلغ نصف ذلك [٥] ، وهى مسقوفة بالرصاص مفروشـة بأنخر أنواع الرخام . وعلى يمين الداخل من آخر أبوابها حوض عظيم للعمودية يجرى فيه المـاء دائما من نهر يشق هذه المدينة [٦] كما تشق دجلة مدينة الزوراء . وفى صدرها كرسى مذهب يجلس فيه الباب فى أيام المواسم والأعياد . وتحتـه باب مصفح بالفضة [٧] يوصل إلى السرداب فيه مشهد بطرس فيما يزعم أهل هـذه البلاد ، ولكنى علمت أن أهل المشرق من أمم النصرانية يردون ذلك عليهم ، ويذهبون إلى أن بطرس إنما قبض فى أنطاكية لا فى رومة ، وأن كرسى أنطاكية عندهم هو المقدّم على كرسى رومة ، وفى هذه الأقوال نظر لامحل لذكره فى هذا الكتاب . وفى خارج الكنيسة عمود من رخام قائم على قواعد أربع من النحاس ، وفى أعلاه عمود من الصُفْر قـد رفعت على رأسه كرة مذهبة يراها كل من فى رومة كأنها عَلَم لموضع الكنيسة .

---

(١) القرمانى ٥ : ٢٢٤

(٢) المقريزى والمحاضرة ١ : ٣١ والقرمانى ٦ : ٥٥

(٣) القزوينى .

(٤) تقويم البلدان ٩٩

(٥) ابن خرداذبة ٩٣

(٦) تقويم البلدان ٢١١

(٧) كذا وجدت وصف هـذه الكنيسة فى أسفار العرب من أهل الأسفار وغيرهم وذلك قبل الحروب الصليبية .

ولما كان الغد أذن القيصر لى بالدخول عليه فلقيته فى ثياب من الديباج وعليه تاج من الجوهر أعظم مما كان عليه بالأمس كأنه أراد أن يظهر لى عظم سلطانه [١] بما تحوى خزائنه من الجوهر والمال . ولما أمرنى بالجلوس بلغته ما أوصانى الرشيد بتبليغه من أمر بنى أمية بالأندلس وما يروم من موافقته عليهم، ولكن بإيجاز أبعدت فيه التأكيد ليكون له إشارة إلى المصلحة ليس غير ، فخاطبنى بما يقرب معناه من كلام وزيرنا جعفر (أعزه الله) ، فأكبرت ذلك من غير أن أعجب منه ، إذ كنت أعلم أن عقول الحكماء قد تتوارد على الشيء الواحد ولو على اختلاف الآماد . وتتلاقى ولو على بعد البلاد . ولما ذكرت له قرابة العباسيين من النبي صلى الله عليه وسلم فكر فى نفسه حتى ظننت أنه سيقول لى إن من الناس من هم أقرب منهم ومن بنى أمية إليه . ثم انبسط له مجال الحديث فقال إنى لأرى الإسلام اليوم أقل اجتماع عصبةٍ منه فى أيام الخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم) لتجزئته بين المشرق والمغرب . على أنى أرى دولة صاحبك أعظم هذه الدول وأوسعها رُقعة مملكة . وأما أمر الأمويين فإنه وعر المرام لاينالُه إلا على تمادى الأيام . إذ لا يدل الشقاق بين السلطان وعميه على ضعفهم عن ردّ العدوّ ، فلو شدّ صاحبك عليهم لحرّطوه بأطرافهم وقاتلوه بغرض واحد تدعوهم إليه الحالة التى يقعون فيها جميعا من الغَرَر والإشراف على الخطر، ولقد كنت أرى تغلبه قسرا على الأندلس من قبل أن يوافيها الأمويون ، وقد كانت قضاتها على أغراض متضاربة أفضت بعد الحروب فيما بينهم إلى تغالب الجبرة عليهم ، أما اليوم وقد وافوّها بالأموال [٢] فليس من السداد أن يبادئهم بالقتال على حين يأتون من إفريقية بالمرتزقة من الرجال « وهم الذين يكرون أنفسهم للحروب » [٣] ، وربما

---

(١) ذكر صاحب الأغانى ٢ : ٢١ أن كسرى لما أنفذ رسوله إلى قيصر الروم عامله على السرير ليريه سعة أرضه وعظم مملكته فذكرت عن هذا القيصر مثل ذلك .

(٢) المقدمة ١٥٨

(٣) المسعودى ٢ : ٤٠٩

تعذر عليه مقاتلتهم من المغرب لما هو ناشب من الفرقة بينه و بين العلويين فيكون له عدوّان من الأمويين وأهل البيت جميعا، وقد قيل فى الأمثال «إن الزئبر إذا جمع منه حبل يوثق به الفيل المغتلم» ثم إنه ذكر لى عند ما استنهضته إلى مظاهرة الرشيد أن بينه و بين الأندلس ملوكا يحب أن يبقى معهم على عهد المسالمة والموادعة، وأنه يوجه همته إلى مناصبة الملوك الذين هم فى ناحية المشرق كأنه يريد أن يستولى على القسطنطينية . هذا ما وقع بينى و بينه من الحديث ، وقد قال لى فى خاتمة المفاوضة قل لأمير المؤمنين إنى عنيت بحاجته وسأكون ظهيرا له فيما يروم واقرأ عليه السلام .

ذلك ما كان من أسرار الرسالة لم تتوسع المصلحة منها إلى ما وراء التوادّ الظاهر من السياسة كما رأيت ، ولبثت فى رومة ثلاثة أيام متواليات . وكان الأنبرذور قد اتخذ لى وليمة دعا إليها عظماء دولته ، وتكرم علىّ بخاتم من الياقوت فى سبيل التعطف ، ثم طلب إلىّ أن آخذ الطريق إلى تونس لأوجه إليه منها بِرِمّة عظيم من عظماء النصرانية ، يقولون إنه من أهل الجنة [1] ، فأجبته بالامتثال إلى ذلك ، فسير فى صحبتى مركبا من أسطوله ليحملها إليه وغادر مركبنا ساحل رومة فى يوم شديد الحر من شهر رمضان كأن الحرارة فيه تشمل الأقاليم المرتفعة أيضا وقد حَقّ تسميته برمضان من الرمَض وهو شدة الحر [2]

وكان الفراغ من تقييد هذا الكتاب وأنا على متن السفينة و بينى و بين تونس مسيرة يوم وليلة . والله أسأل أن يبلغنا المقصد بالسلامة وهو الكفيل بالتيسير والتسهيل لا رب سواه .

---

(١) هو قريانوس فيما يقولون شهيد من شهداء النصرانية .

(٢) الكنز ١٤٦

الرسالة التاسعة

المرور بتونس من بلاد العرب

كتبت إليك الرسالة التاسعة بعد الانصراف من الرسالة . واليوم أكتب إليك من المشاعر المباركة بعد إبلاغها إلى الرشيد . فإنى لما قفلت من ديار الروم عرجت على تونس من بلاد المغرب فأكرم عاملها من لدن ابن الأغلب وفادتى، وأخرج إلى زورقا حملنى عليه إلى المدينة ، لأن البحر يبعد عنها نحو عشرة أميال [1] ، وبينهما بحيرة قريبة الغور فسبق اهتمامى باخراج الرمة التى أوصانى بها القيصر إلى مركب الروم لإبعادهم عن مرفأ المسلمين اهتمامى بما سواه من الأمور . ثم إنى نظرت فى شأن ابن الأغلب إبراهيم وانقطاع أهل الشيعة إلى حوزة إدريس بن إدريس (رضى الله عنه) من غير أن أكشف عما بالنفس من الميل مع أهل البيت ، إذ كنت أوجبت على نفسى أن أقوم بصدق الخدمة للرشيد فى هذه الرسالة التى حملنى مجاشمها واستودعنى فيها أمانته ، فاتصل بى من أخباره معهم جسيم حملت خبره إلى ملوكنا البرامكة (أعزهم الله) . وقد أذكرنى حال العلويين فى المغرب أيام علىّ وأبى بكر وعمر بن الخطاب (رضى الله تعالى عنهم) من الصلاح والخير والبركة ، يتبعون الرسوم التى حفظوها عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ولا يقيمون أبهة الملك إلا ما تدعوهم إليه حاجة الخلافة ، وكذلك أهل الشيعة من التزام الخير واتباع السنن العادلة والمحافظة على القراءة التى قرأها علىّ (عليه السلام) إلا أن الأغلبى (دمّر الله ملكه) ينقِم منهم أمر الدنيا والدين ، ولا ذنب لهم إلا أنهم يحرصون على الخير والصلاح ويميلون مع أهل بيت السلالة الشريفة الطاهرة .

---

(١) تقويم البلدان ٣٨ و ١٤٣

وهذه القراءة التى ينقمها الأغلبي من أهل الشيعة قد كان لها شأن عظيم فى صدر الإسلام وأسالت من دماء المسلمين بحارا بما تعصبوا له من الأغراض . كان صدور الخلاف فيما بينهم على قراءة ابن مسعود وقراءة أُبىّ بن كعب ، وكان أهل الشام فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه قد انقطعوا إلى قراءة يعارضون بها قراءة أهل العراق وزعموا أنهم أخذوها عن المقداد بن الأسود ، وكان عثمان افى خلافته قد عقد مجلسا من الصحابة على أن يحمل الناس على قراءة واحدة فى جميع لأقاليم والأطراف ، بجمع الرقاع والأدراج والخاف والعُسْب التى كان مكتوبا فيها القرءان الكريم ، وأمر بأن تحرق كلها وأن ينسخ من الصحف التى كتبت فى خلافة أبى بكر (رضى الله عنه) . وكانت مودعة عند حفصة[1] زوج النبى (صلى الله عليه وسلم) أربع نسخ [2] يبعث بها إلى الديار الإسلامية ، فتولى نسخها زيد بن ثابت الأنصارى [3] وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى . وقيل عبد الله بن عباس ومحمد بن أبى بكر [4] وقال لهم عثمان إن اختلفتم فى شيء أو كلمة فا كتبوها بلسان قريش فانما نزل القرآن بلغتهم[5] . ولم تزل هذه المصاحف المنسوخة محفوظة فى مكة والشام والكوفة إلا المصحف الذى كان فى المدينة فانه فقد فى الحرب التى أثارها يزيد بن معاوية .

ولما انفصلت عن تونس ركبت البحر توًّا إلى الإسكندرية وفى نفسى أن أبلغها فى عشرين يوما ، فلما توسطنا البحر غلبتنا الرياح العاصفة ونكصت بنا السفينة على الأعقاب مسيرة بضعة أيام إلى أن هدأ ثائر النوء وطابت لنا الريح ، فسرنا بمعونة الله إلى أن شاهدنا منار هذا الثغر المحروس . والقطر المأنوس . للبال

---

(١) أبو الفداء ١ : ١٦٦

(٢) الفخرى وابن جبير ١٩٥

(٣) أبو الفداء ١ : ١٦٦ وابن جبير ١٠٢

(٤) الكندى .

(٥) أبو الفداء ١ : ١٧٦

خلون من شهر شوال ، فلما طلع النهار انتصب أمامنا فى عِظَمِـه وهول مرآه [١] حتى كأنه عمود يلتى القبة الزرقاء ، و يصل بين الأرض والسماء .

رسا أصـله تحت الثرى وسما به   إلى النجم فرع لا ينـال طويل

فهو من سمو الارتفاع بحيث يهتدى به أصحاب السفن على بعد سبعين ميلا ، وربمـا قدّر الناس ارتفاعه بنحو مائة وخمسين باعا [٢]، وهم يقولون إن بانيـه الاسكنـدر الرومى الذى ملك معظم الدنيا أو ملك من خلفائه يقال له بطليموس قاسى مع رومة حروبا صعابا فى البر والبحر ، فبناه لارتقاب جنـدهم والاستعداد لمراكبهم قبل وصولها . ويحدثون عن الوليد بن عبد الملك الأموى [٣] أنه سوّل له جَهَلَةَ قومه أن يهـدمه طمعا فى الوصول إلى ما حوى جوفه من الكنوز المخبأة فشرع فى الهدم والدمار حتى قوّض جانبا من هذا المنار . ثم تعاظمت عليه النفقة ولم يجد ما يستعيض به عنها فكف عن عجز لحقه ولوم نراه يستحقه . وكان مُقامى فى الإسكندرية عند عاملها الليث بن الفضل الأبيوردى [٤] ثلاثة أيام ، وكنت أحب مع ما لقيت من أنسه ووجدت فيها من سـعة العمران واستبحاره أن أمدّ فيها بساط الإقامة لولا أنى خفت فوات الحج ، فانصرفت عنهـا فى اليوم السابع من شوال ، وكنت قـد استقريت كثيرا من أماكنها المشهورة ، ووقفت على ما اتسع لأهلها من طرق المعاش فرأيت أن أُجَمِّل الكتاب بذكره ليبقى فخرا للسلمين فى استيلائهم على هذه المدينة التى ليس فى بلاد الروم ما هو أعظم منها .

---

(١) ابن بطوطة ١ : ٢٩ وابن جبير ٣٧ وعبد اللطيف ٦٤

(٢) تقويم البلدان ١٠٥ وابن جبير ٣٧ وربما كانت المنارة قبل أيامهم أكثر علوا ممـا ذكراه يقول ابن الأثير فى حوادث سـنة ١٨٠ إنه كانت بمصر زلزلة عظيمة سقط منها رأس المنارة وربما ذكر المقريزى شيئا من ذلك فى كتاب الخطط والآثار . و يقول القرمانى ٦ : ٦٤ إن طولهـا ألف ذراع الى غير ذلك .

(٣) المقريزى والمحاضرة ١ : ٤٣ والمستطرف ٢ : ١٧٨ وتقويم البلدان ١٠٥

(٤) ذكر أبو المحاسن ١ : ٥٢٢ أنه كان عامل مصر فى ذلك الوقت وهو سنة ١٨٦ للهجرة .

فى ذكر الإسكندرية

الإسكندرية مدينــة تجارة من أعظم مدائن الدنيا وأقدمها وضعا وأحفلها بنيانا ، وإليها المنتهى فى المَنَعة والحصانة ، إذ كانت مبنية على لسان من الأرض والبحر محيط بها من جميع جهاتها ، ولذلك يصعب منالها على العدو وإن لم يكن وراءها وعر ولا هضاب يتعزز بها جانبها من البر [١] ، ولقد كانت فى قديم الزمان خاملة الذكر يقال لها رقودة [٢] فلما تبوّأها الإسكندر الرومى [٣] وصارت كرسى الملك بعــده تجالت بجلال الحضارة . وتحلّت بحالى النضارة . واتصلت عمائرها تحت الأرض [٤] آزاجا يجتــمع فيها المـاء كاتصالها فوق الأرض ، وأقيمت أسواقها فى نهاية من الإبداع [٥] ، وشوارعها فى غاية من الاستقامة والاتساع ، بحيث إن الغريب الزائر يسير فيها نهاره أجمع فلا يضل [٦] .

ولقد لقيت فى كثير من أماكنها وطرقاتها عمدا وألواحا من رخام تحمل العامة على الظن بأنها هى إرم ذات العماد [٧] التى لم يخلق مثلها فى البــلاد ، وأعظم ما شاهدت فيهــا العمود المعروف بعمود السوارى [٨] وهو ماثل للعيان فى طرف المدينة تحف به غاية من التخيل ، وهو حجر صلد من الصوان الأحمر ، يبتدئ من قاعدة غليظة وينتهى إلى تاج مكلل بالرسوم ، والناس يقولون إنه كان فى أعلاه

---

(١) يقول ابن خلدون فى المقدمة ٣٠٥ ضد ذلك وإنه يسهل وصول العدو إليها .

(٢) المقريزى ١ : ١٤٧

(٣) القزوينى ٩٦

(٤) ابن جبير والمقريزى ١ : ١٥٠

(٥) ابن جبير ٣٦

(٦) تقويم البلدان ١١٣

(٧) المقريزى والمسعودى وياقوت وابن جبير .

(٨) ابن بطوطة ١ : ٣٠ والقزوينى ٩٧

قصر معلق فى الجو لأهل العلم والرياسة [١] ، وإنه كانت فيه خزائن كتب أحرقها عمرو بن العاص [٢] باشارة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، إذ كتب إليه « الكتب التى ذكرتها إن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنها غنى ، وإن كان فيها ما يخالفه فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامها » ولكن هذا قول بعيد عن التدقيق والنظر . وظنى بهذا العمود أنه نصبه الروم معارضة للعمد التى اتخذها الفراعنة أمثال المسلات ، وطمعا فى تخليد آثارهم فى مصر إلى انقضاء الدهر .

وقد رأيت أهل الإسكندرية أصحاء الذوق لطاف الطباع والخلق لقرب مدينتهم من البحر وظهور الصَبا عندهم واعتدال الحر والبرد فى إقليمهم ، على أن أكثرهم مهزولو الأجسام وُهْنُ البنية [٣] . ووجدت لهم تصرفا واسعا فى التجارة [٤] لأن المال موفور عندهم ، والخيرات تأتيهم من مصر وجميع الأمصار فيتصرفون فى الليل بالبيع والشراء كتصرفهم بالنهار [٥] ، وسمعت أنهم بلغوا من سعة العيش إلى أن بنوا فى مدينتهم ألف حمام وأربعمائة ملهى واثنى عشر ألف دكان [٦] ، وهذا شيء من الكثرة لم يسمع بمثله فى البلدان .

أما المسلمون فى هذه المدينة فإنهم على رأينا من القول بخلافة أهل البيت ، ويتعبدون على مذهب الإمام مالك [٧] ، ولكنهم يجهرون بالبسملة فى صلاتهم ويبتدئون بها عند الخطبة [٨] كأنى بهم قد اقتدوا فى ذلك بأهل الشام إذ كان الاتصال فيما بينهم مستمرا على غير انقطاع . وأما أهل الذمة فانهم يزيدون على

---

(١) المقريزى ١ : ١٥٩

(٢) أبو الفداء وأبو الفرج ١٨١ والمقريزى .

(٣) المقريزى ١ : ٤٤

(٤) المحاضرة .

(٥) ابن جبير ٣٩

(٦) المقريزى والمحاضرة ١ : ٥٩ والقرمانى ٥ : ١٢٧

(٧) المقريزى .

(٨) المقريزى ٣٣٤

أربعمائة ألف[١] بين نصارى ويهود، وهم يؤدون جزيتهم إلى الرشيد دينارا واحدا ميمونيا [٢] بعد أن ضربها عليهم عمرو بن العاص دينارين ، واستمرت على ذلك فى عهود الخلفاء السالفة . وفى الإسكندرية وسائر الديار المصرية ملل كثيرة من النصرانية إلا أن معظم سوادهم[٣] روم يرجعون فى أمورهم إلى بطركهم بالقسطنطينية ، وقبط ينكرون على البـاب خلافته للسيح ويرجعون فى ملتهم إلى مطرك لهم يسمى مرقص[٤] ، كرجوع المشارقة إلى بطركهم فى أنطاكية [٥] كما مر فى موضعه من الكتاب .

وهؤلاء القبط هم أهل مصر الأولون ، وفى أيديهم الكنائس المعظمة التى لا يوجد مثلها عند الروم، إذ كانوا السابقين إلى تشييدها والحافظين عليها تحت ظل الإسلام . وأعظمها بيعتان إحداهما كنيسة مرقص[٦] وهى بجوار الدار التى بناها الزبير بن العوام[٧] ، فيها رسوم عجيبة وصور تمثل الحواريين والعظماء الذين ظهرت لهم الكرامات فى ملتهم . والثانية كنيسة يوحنا المعمدان[٨] قد مُوِّه سقفها بالذهب ، وصورت فيه ملائكة الله محفوفة بالسحاب . وفى جوارها دور كثيرة لهم قد رفعت على طبقات ثلاث[٩] ، وارتفعت على دور المسلمين ، مع أن المطاولة عليهم فى البناء محظورة على أهل الذمة . وهذا أمر يتغاضى عنه الولاة كما يتغاضون عن مجاهرتهم فى ملتهم بأشياء لو بدت منهم فى العراق أو الحرمين لجلبت عليهم

---

(١) ابن خرداذبة ١٢١ والمحاضرة ٥٩ والمقريزى ١ : ١٦٢

(٢) ذكر صاحب الأغانى أن هذه الدنانير سميت بالميمونية نسبة إلى ميمون بن عامر ١٧ : ٧٢

(٣) المقريزى ٢ : ٤٩٢

(٤) ذكره المقريزى ٢ : ٤٩٣

(٥) المسعودى ١ : ٢٧١

(٦) المقريزى ٢ : ٤٩٢

(٧) ذكرها ابن خلدون فى المقدمة ١٧٨

(٨) المقريزى ٢ : ٥١٩

(٩) القرمانى والمقريزى ١ : ١٦٢

الحين فى أسرع من طرفة عين . وذلك مثل مجاهرتهم بالإنجيل وإخراج آنيتهم إلى الأسواق وحمل صلبانهم على رءوس الرماح [١] وغير ذلك مما لا ينقمه منهم المسلمون[٢] ، وكأنهم إنما يتسامحون فى أمرهم تجنبا لإثارة السواكن أو طمعا فى استمرار الخلطة التى وقعت بينهم وأشبهت أن تكون ألفة وصفاء . بل مودة وإخاء. وقد وقع لهم وأنا فى الاسكندرية موسم عظيم يسمونه عيد الميلاد، يتخذونه فى اليوم الذى ولد فيه المسيح (عليه السلام) وهو اليوم التاسع والعشرون من شهر كيهك[٣] ، وعادتهم فى هذا الموسم أن يحيوا ليلهم كله بالسرور، ويخرجوا آنيتهم إلى الأسواق ، وينوّروا دَنَاسهم بالشموع المليحة الأصباغ. فكنت أرى كثيرا من المسلمين يبتاعون لأولادهم من هذه الشموع المسماة بالفوانيس ويحرقونها فى أزقة المدينة، كأنهم يشاركون النصارى فى أفراحهم، ويظهرون الأنس بهم إلى انقضاء العشاء الآخرة .

وقد وجدت القوم من الروم والقبط وسائر ملل النصرانية يتأنقون فى صنوف الملابس من الخز والديباج والوشى الذى يصنعونه فى مدينتهم ، ويضرب به المثل فى جميع البلاد[٤] ، ونوع من الكتان يتنافسون فى لبسه إلى أن يبيعوا الدرهم من الثوب المخيط منه بدرهم فضة[٥] وكنت أحب أن تظهر آثار النعمة فى لباس المسلمين[٦] مثل ظهورها فى أهل الذمة، فقد حدّث الرواة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه اتخذ جبة مكفوفة بالحرير [٧] ، ولبس ثيابا بأربعة آلاف درهم وصلى

---

(١) المقريزى .
(٢) المقريزى ١ : ٤٩٤
(٣) المسعودى ١ : ٢٧٢
(٤) الأغانى ٧٦٥
(٥) المقريزى ١ : ١٦٣
(٦) تزيين الأسواق ٢ : ٥١
(٧) مجمع الأنهر ٩٤

فيها[1] ، وكذلك حدّثوا عن عائشة أنها خلعت على عبد الله بن الزبير ثوبا من الخزّ[2] وعن جماعة من العلماء والفقهاء أنهم لبسوا الثياب المهدّبة[3] ، فلا أرى موضعا بعد هذا لأن يكون لبس الحلل الفاخرة محظورا فى الشرع[4] .

الديار المصرية والنيل

توسع بى الكلام إلى ما خرجت به عن قصّ الرحلة ، ولكنى أعود إلى ذكر الأمور التى شاهدتها فى ديار مصر ، فإنى ركبت من الاسكندرية أريد الفُسطاط ثم أسوان ثم عَيْذاب إلى طرف الصحراء من ساحل البحر . فمررت بدمنهور وصا وبرما وطنتدة وقليوب فى أسرع مدة من الزمان . إذ ليس فى مصر جبل ولا مسلك وعر يعترض الركبان . وكانت العِمارة متصلة فى طريقنا إلى الفسطاط ، ومن حولها اخضرار فى السهل يمتد مع البصر إلى أن ينقطع . فأخبرنى من كان يصحبنى من لدن الليث أن البلاد يتنوع فيها هذا المنظر أربعا فى كل سنة ، فتكون ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء[5] ، أولها شهر أبيب المعروف بتموز عند المشارقة ، يركبها النيل إلى أن تصير ضِياعها فى بحر من الماء لا سبيل إليها إلا فى الزوارق . وثلاثة أشهر مِسكة سوداء أولها شهر بابه وهو المعروف بتشرين أو أقطوبر[6] ، ينكشف الماء عن الأرض ويترك عليها طينا عَلِكا أسود فيه دسومة صالحة للزراعة يقال له الإبليز[7] وثلاثة أشهر زمردة خضراء

---

(١) مجمع الأنهر ٤ ٧٩ ونقل الشيبانى عن ابن جريج أن ابن عباس كان يرتدى برداء قيمته ألف درهم العقد الفريد ٣ : ٣٤٣

(٢) الزرقانى ٤ : ١٠٤

(٣) البخارى وغيره .

(٤) ابن عابدين ٥ : ٣٤٤

(٥) المنوفى

(٦) فى المسعودى ١ : ٢٧٢ أسماء الأشهر الرومية مثلما هى اليوم عندنا

(٧) عبد اللطيف ٣

أولها شهر طوبة الذى يمر بنا اليوم ينجم فيه الزرع و يظهر ربيع الأرض حتى لا يبين الثرى من خلاله . ثم ثلاثة أشهر سبيكة حمراء تبتدئ من برمودة المعروف بأبريلس عند الروم فيتورد الزرع ببلوغ الحصاد . و يكون كسبيكة الذهب فى المنظر .

و إنما يجلب الخيرات إلى مصر و يخرج الزرع اليانع من أرضها الجُرُزِ ما يحمل إليها النيل من الطين و يفيض عليها من الماء فى أيام من السنة معلومات ، فكأنما تستعيض بالمنفعة منه عن المطر الذى يحبسه الله عنها رفقا بمصالحها أن تختل ومساكنها الطينية أن تبتل . وقد قال سبحانه وتعالى فى محكم كتابه [١] «أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرزِ فنخرِج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون » فجعل الله عز وجل النيل من الغمورة والاستبحار بحيث يكفى البلاد كلها من غير أن يكون فيها نهر ولا عين ولا مسيل ماء غيره ، والناس يجمعون محاسنه فى ثلاثة [٢] : الأول غمورته إلى أن يكون بحرا تسير فيه السفن . والثانى بعد منفجره إلى ما وراء الخط من جبال القمر . والثالث طيب مسلكه على رمال تروقه وتأخذ الممزوجات الغريبة منه . وإنى وجدت له خَلة من الخير والبركة أفضل من هذه المحاسن هى أنه يزدرع عليه مالا يزدرع على نهر غيره من أنهر العالم [٣] فكأين من نهر تجتمع فيه محاسن الغمورة وبعد المنفجر وطيب المسلك ثم لا تحصل المنفعة منه مثل ما يحصل لأهل مصر من بركة نيلهم .

وشأن هذا النهر المبارك فى الفيضان أنه يبتدئ بالزيادة فى شهر أبيب ، والقبط يقولون إذا دخل أبيب . كان للماء دبيب [٤] . ثم يغلُظ فى مسرى وهو شهر آب ، ويزيد بعد ذلك زيادة عظيمة إلى أن يقف حدّها فى منتصف توت ،

---

(١) المنوفى .

(٢) المقريزى ١ : ٦١ وتقويم البلدان ٤٥

(٣) ابن بطوطة ١ : ٧٧

(٤) المقريزى .

وهو شهر أيلول المعروف بسبطمبر عند الروم ، ثم لا يلبّث بعد ذلك حتى يتراجع بالانحسار وقد كفى الناس سِقاية زرعهم بمدوده على حد قولهم [١] :

كأن النيل ذو فهم ولب ... لما يبدو لعين الناس منه

فيأتى حين حاجتهم إليه ... ويمضى حين يستغنون عنه

وصفوة القول فى هذا الفيضان أن منشأه السحب الماطرة [٢] إلى ما وراء خط الاستواء من تلك البِطاح ، وللقِبط فيه أقوال كثيرة لا موضع لها فى هذا الكتاب [٣] ، وهم يزعمون أنهم يعرفون قدر فيضه «قبل حدوثه» من هبوب الريح فى أول يوم من بؤونة وهو شهر حزيران عند المشارقة . وقد قرأت فى بعض الكتب أن هذا النهر هو نهر العسل فى الجنة [٤] ، وأن حائدا اليهودى الذى تاه فى الأرض دهرا لم يستقر فيه بموضع وصل إلى الجنة مما وراء السودان [٥] فوجد أرضا ذهبا وترعا ذهبا وتلاعاً ذهبا [٦] ، ورأى النيل ينساب فيها من طيقان قد ارتفعت مثل قوس السحاب . وهذا تصور لطيف كنت أقرأ مثله فى دواوين الشعراء فأحببت أن أذكره لك حتى إذا كنت بعيدا أن تعجَب منه من حيث الحقيقة فلا أقل من كونك تعجِب به من حيث المجاز .

ولما وصلت إلى الفسطاط نزلت على قاضيها عبد الرحمن بن عبد الله من ولد عمر بن الخطاب رضى الله عنه [٧] ، فلما أصبحت وكان يوم الجمعة جمّعت فى جامع عمرو بن العاص الذى قاد الجيوش الإسلامية إلى هذه البلاد وانتزعها من يد المُقَوْقِس

(١) المقريزى .

(٢) تقويم البلدان ٤٥

(٣) راجع المجلد الأول من خطط المقريزى .

(٤) المقريزى ١ : ٥١ والزرقانى ١ : ٣٧٥

(٥) الاسحاق ٢٦١

(٦) المتوفى .

(٧) المحاضرة ٢ : ٨٩

كما هومعروف. وهو من المساجد المشهورة فى الإسلام حسناوترويقا و إحكام صناعة، وجدت على حائطه القرآن الكريم مكتوبا على ألواح بيض من الرخام يقرؤه الإنسان وهو قاعد[١] ، ثم زرت مشاهد كثيرة من مشاهد آل البيت والصحابة والأولياء والشريفات العلويات . ولما مالت الشمس ركبت إلى موضع غربىّ المدينة يقال له الجزيرة وهو مجتمع اللهو والنزهة لإحاطة الماء به ، وهناك المقياس الذى يعتبر به قدر زيادة النيل[٢] ، بناه سليمان بن عبد الملك الأموى فى آخر المائة للهجرة النبوية المشرفة ، وهو عمود رخام أبيض مفصّل على اثنتين وعشرين ذراعا من الأذرع القديمة التى كان يتعامل الناس بها قبل أن يضع الرشيد الذراع السوداء التى تزيد عنها باصبع وثلثى إصبع[٣] ، وهو مبنى فى موضع ينحصر الماء فيه فاذا انتهى الفيض إلى ثمانى عشرة ذراعا منغمرة فيه كان ذلك الغاية فى طيب العام [٤] .

وقد أخبرنى عبد الرحمن هذا القاضى النبيل أن ما يغمره النيل بمصر يبلغ مائة ألف ألف فدان[٥] ، والفدان عندهم أربعمائة قصبة ، والقصبة عشر أذرع ، « وهو القدر الذى وجده هشام بن عبد الملك عند ما مسح البلاد » ، وكلها ذات خيرات كثيرة . وغلات وافرة . مما يحمل الإنسان على أن يظن فى أهلها اتساعا فى النعمة واسترسالا فى الطيبات من بسطة العمران ، غير أن الأمر على خلاف ذلك عند أهل الزراعة بالأرياف إذ غلب على عامتهم الخمول [٧] وتولاهم الشقاء ،

---

(١) القزوينى ١٥٧

(٢) المقريزى وابن جبير ٥١ والمسعودى ١ : ١٦٤

(٣) ابن خرداذبه ١٦١ والمسعودى ١ : ٤٠ والمقريزى ١ : ٥٩

(٤) ابن بطوطة ١ : ٧٨

(٥) المقريزى ١ : ٨٠

(٦) المحاضرة ٢ : ١٩١

(٧) المقريزى ١ : ٤١ قول الرحالة مائة ألف ألف فدان انتقده ابن المدبر بأن ما يزرع فى مصر هو أربعة وعشرون ألف ألف فدان .

ولم ينفقوا المال الذى أعطاهم الله فى مطالب السعة ، بل دفنوه تحت أطباق الأرض وتظاهروا لدى ملوكهم بالمسكنة وعسر الحال ليسترقوا القلوب رفقا فى جباية الأموال . فما كانت هذه الحيلة لتفيدهم شيئا من الرحمة . وربما انقلبت الغاية إلى التثقيل عليهم فى الخراج لما تسومع عنهم من تخبئة الكنوز بحيث رأينا لحكامهم اقتدارا فى تكثير الجباية ما عرفنا مثله لغيرهم من ملوك الأمم .

فى وصف الأهرام

وفى غد اليوم الذى وصلتُ فيه إلى الفُسطاط ركبت إلى أهرام الجيزة [1] ، وهى ثلاثة كبار موضوعة على خط مستقيم [2] غربىّ النيل ، وهى من أهول ما بناه المتقدمون وأجله خطرا . وأبقاه على الأيام أثرا . والعهد بجميع الأشياء يخشى عليها من الأيام إلا هذه الأهرام ، فإنها صبَرت على طوارئ الحدثان حتى راح يخشى منها على الزمان . اثنان منها عظيان وواحد دونهما فى العظم ، وهذان الهرمان الكبيران متناهيان فى السمو ، يخيل للرائى أنهما نهدان قد نهدا فى صدر الديار المصرية [3] ، وهما مبنيان بحجارة بيض صلدة قد اقتُلعت من مغاور تحت الأرض بعيدةٍ يدخلها الفارس برمحه فيرتاح فيها . وقد تقدمتُ إلى بعض من كان يصحبنى من لدن السلطان أن يطلق سهما إلى أعلى الهرمين فرمى به عن قوس غليظةٍ وساعدٍ قوىّ فسقط السهم دون ثلثى المسافة [4] ، أما وصف الهرم فهو بناء مخروط مضلّع مثلث الزوايا مربعها ، يبتدئ من قاعدة عريضة و يضيق قليلا قليلا كلما ارتفع إلى أن ينتهى إلى سطح صغير يكون مبرك بعيرين فى الهرم الصغير ومبرك ثمانية فى الهرمين الكبيرين . وهذا نمط فى البناء يزيده متانة يقوى بها على ممرّ الليالى .

(١) عبد اللطيف ٥١ والشريشى ٢ : ١٠١ والمقريزى .
(٢) هذا تشبيه لطيف ذكره عبد اللطيف وغيره من الكتّاب .
(٣) تقويم البلدان ١٠٨
(٤) ابن بطوطة ١ : ٨٢

أما السبب الذى دعا الفراعنة إلى نصب هذه الأهرام فلم يزل مستترا تحت ظل الإبهام ، فمن قائل إنها بنيت مستودعا للعلم ، ومن قائل إنها اتخذت لتحجز الرمال الثائرة من القفر على الفسطاط ، وفى وجه من التاريخ أنها بنيت لدفن الكنوز [١] واحتكار الحبوب لأيام يوسف عليه السلام [٢] ، إلا أن ما يذهبون إليه من هذه الآراء بعيد عما لدينا من القياس الظاهر للأشياء ، فإن العلم لا تحفظه الحجارة إن لم يستودع صدور الرجال ، والرمل لا يحجزه سد غير متصل العمارة ، وبين الهرم والآخر فرجة واسعة المجال ، والحَب لم يحتكره فرعون إلى دهر لا انقضاء له وفى موضع لا يقدر منه أن يتناوله . ولست أظن إلا أن هذه الأهرام قد بنيت لحودا [٣] للفراعنة الذين كانوا يدينون بالرجعة إلى هذه الدار ، ويُعنَوْن بتحصين مدافنهم من عبث الأدهار ليحفظوا فيها حليهم وأموالهم إلى يوم النشر كما كان يصنع فى جاهليتهم أهل مصر إذ يحملون مع الأموات مالهم وأشياءهم ليجدوها بين أيديهم يوم رجعتهم إلى هذه الدار كما كانوا يزعمون [٤] .

وقد قرأت فى بعض الكتب أن بانى الهرم الكبير من الفراعنة ملك يقال له سوريد ، وجّه زواياه إلى بعض الأبراج السماوية تيمنا بالبركة فى اعتقادهم وكتب عليه «أنا سوريد الملك أكملت بناء الهرم فى ست سنين فمن جاء بعدى وزعم أن له ملكا فليهدمه فى ستين سنة (وفى رواية ستمائة سنة) ، والهدم أيسر من البنيان ، وقد كسوته بالديباج الصرف فليكسه بالحصير والحصير أهون من الديباج » [٥] ، أما توجيه زواياه إلى بعض الكواكب كما يعتقدون فهو افتراض ليس للرد عليه موضع مع

---

(١) المقريزى ٢ : ٢٢

(٢) المحاضرة ١ : ٣٤

(٣) المقريزى وتقويم البلدان ١٠٨

(٤) عبد اللطيف والمحاضره

(٥) ابن بطوطة ١ : ٨٢ والمقريزى والمحاضرة .

ما نعلم من عبادة المتقدمين للنجوم وتعظيمهم إياها . وأما الكتابة التى يعزونها إلى فرعون فإنى لم أجد لها أثرا على الهرم الكبير ولا الصغير ولا أعلم على فرض أنها مرسومة فيه أحدا من الناس يقرؤها . حتى لو جاز أنها كتبت وقرئت ما صح أن تكون كسوته بالحصير مما يعجز عظماء الملوك ، وسعته من الركن إلى الركن الآخر ثلثمائة وستون خُطوة ، إنما المعجز فى هذه الآثار هو إحكام بنائها [١] بهذا الشكل البالغ النهاية فى الاستواء دون أن يتخلل الحجارة شىء تتلاصق به من الكلس وغيرِه من المواد ، ولو أن نجارا اتخذ صندوقا من الخشب ما أحكم عمله [٢] ووصل قِطعه مثل وصل هذه الحجارة الضخمة بالتصاق لا تنفذ فيه الإبرة الصغيرة .

ورب زائر يقف بهذه الأهرام فتشغَله الدهشة بعظمها وهولها عن تأمل ما هو حقيق أن نعتبر فيه من آثار السلف . فأنا لا أنكر أن الذين رفعوها من الفراعنة كانوا ضِخام السلطة عِظام الصول والحول . غير أنى تمثلتهم فى نفسى ملوكا عتاة قد ظلموا الرعية بما آتاهم الله من السلطان ، واستخدموا العباد فى مشاق لا فائدة منها ولا طائل تحتها سوى أن تنطق بظلمهم على ممر الأزمان . أو أنى أتمثلهم جبابرة قد كثر المال تحت أيديهم فلم ينفقوه فى البر والإحسان . ولا انتفعوا به فى غرض من العمران . بل رفعوا به جبالا شاهقة من الصوّان . وليس فى أحد الأمرين منصرَف عن لؤم بهم أو لوم أوقِعه عليهم ، فلئن أنفقوا المال فى غير سبيله لقد أسرفوا فى الملك ، ولئن قبضوا الأجور عن العملة بعد أن نهكوا أبدانهم بالعنت الشديد لقد ضلوا سواء السبيل و باعوا رعاياهم بأبخس الأثمان .

ورأيت على مقربة من الهرم الكبير صورة عجيبة من الحجر قامت كالصومعة [٣] ومثلت رأس آدمى وعنقا بارزة من الأرض فى غاية العظم يسميها الناس بأبى الهول ،

---

(١) عبد اللطيف ٥٣

(٢) الابشيهى ٢ : ١٧٧

(٣) المقريزى ١ : ١٢٢ وابن جبير ٥٠

ويزعمون أنها طِلّسم الرمل لئلا يغلب على أرض الجيزة[١] ، وهى تشهد لصناع ذلك الوقت من القِبط بحذقهم فى فنون الرسم وصحة التمثيل ، لأنهم اتخذوا صورة الوجه متناسبة الأعضاء على كبره ، وجعلوا عليه حمرة لا يزال دِهانها محفوظا مع الحجر[٢] ، وكأن الزمان يُعيره رونقا وجِدّة ، حتى إنه ليخيل للناظر إليه أنه ذو مَسحة من جمال وأن شفتيه تنفتحان للابتسام ، وقد أخبرنى حاجب الليث أنه كانت له لحية تكسرت على تمادى الأيام ، وأن جثته مدفونة تحت الأرض ويقتضى القياس بالنسبة إلى رأسه أن يكون طولها سبعين ذراعا[٣] ، إلى حديث طويل مما يتعلق بهذا الصنم وبغيره من آثار فرعون ، فيقول وهو أعرف الناس بالبلاد[٤] إن بمصر ثمانين كورة فى كل كورة مدينة عظيمة وفى كل مدينة آثار حسان ، ورسوم باقية على ممر الزمان[٥] .

إلى عَيْذاب بجُدة فالبلد الحرام

كان انفصالنا من الفسطاط فى بكرة يوم فارِس برده ، وكانت العمارة متصله فى طريقنا على شاطئ النيل ، فاجتزنا بلدا يعرف بمُنية ابن خصيب[٦] فيه الأسواق والمرافق والحمامات، ثم اجتزنا بلدة يقال لها أنصنا وهى تبعد عنه بمرحلة طويلة[٧] فيها شجر اللبخ[٨] الذى تصنع منه السفن ، وكثير من العمد والصخر المجمّل

(١) القرمانى ٦ : ٥٥

(٢) عبد اللطيف ٥٩

(٣) عبد اللطيف ٥٩

(٤) المقريزى وكتاب المحاضرة للسيوطى .

(٥) قال الجاحظ وغيره عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة عشر منها فى سائر البلاد وباقيها فى مصر ، المقريزى والمحاضرة والقرمانى ٦ : ٥٥

(٦) ابن جبير ٥٤

(٧) تقويم البلدان ١١٥

(٨) المقريزى ١ : ٢٠٤

بالنقوش والرسـوم ، وفى بعض الكتب أنها كانت مسكنا لسحرة فرعون [١] ،
ثم اجترنا بمحاذاة حائط عتيق البنيان يقال له حائط العجوز[٢] وهو يمتد من الفسطاط
فما فوقه إلى جهات أسوان يزعم أهل الأخبار أنه بنته ملِكة يقال لها دلوكة وقاية
لابنها من الوحش أن يهاجمه فى مزاولة القَنْص [٣] ، مع أن الأقرب إلى العقل
أن يكون بناؤها له خوفا من الآدميين وغزواتهم لا من الوحوش التى يصح أن
تكون فى هذا الجانب منه كما هى فى الجانب الآخر . ثم مررنا بمنفلوط فى البر
الغربى [٤] وفيها قمح مشهور برزانة حبه [٥] ثم بأسيوط وهى من النيل على ثلاثة
اميال ، فيها الأفيون المصرى الذى يحمل إلى سائر البلاد[٦] وهو عصارة الخشخاش
الذى يزرع فيها[٧] وفيما جاورها من البلاد ، ثم ركبنا مرحلتين إلى إخميم وهو بلد
مشهور فيه البَرْبا العظيمة التى صور فيها ملوك مصر [٨] وصورت فيها الأفلاك
والكواكب حين كان النسر الطائر فى برج العقرب [٩] ، وهى مرفوعة من صخور
منحوتة ، وفيها أربعون سارية مزينة بالرسوم والنقوش[١٠] ، وعليها سقف من
الحجر مغشًى بالأشكال العجيبة حتى لا يخلو مغرز إبرة فيه من رسم أو نقش أو رمز
بالخط المسند لا يعلم ما هو ، فسبحان من أباد أمة اقتدرت على عظائم الأمور ،
لا إله إلا هو رب العرش العظيم .

---

(١) ذكر المسعودى ١ : ٢٨٤ الإسرائيليات من الأخبار بمعنى الحكايات التى لا طائل تحتها وربما كان هذا الخبر لاحقا بها .

(٢) المسعودى ١ : ١٧٢ والقرمانى ٥٧٦

(٣) المقريزى ١ : ٣٨

(٤) المسعودى ١ : ٢٧٢

(٥) تقويم البلدان وابن جبير ٥٧

(٦) القزوينى ٩٩

(٧) تقويم البلدان ١١٥

(٨) القرمانى ٦ : ٥٦

(٩) ابن بطوطة ١ : ١٠٤

(١٠) القزوينى ٩٤ وابن جبير .

ثم تمادى بنا السير من هذه البلدة إلى دندرة وهى مدينة عتيقة يقال إنهـا من بناء قفطريم بن مصرايم بن حام بن نوح عليـه السلام وفيهـا بربا عظيمة من آثار الفراعنة يحف بها نخل كثير [١] ، وقـد تحققت فيما رأيت بهـا وبغيرها من آثار القبط صحة ما نقلته الأخبار عن قدمائهم من بلوغهم الغاية القصوى من الحضـارة فى زمن كان به ظلام وجاهلية للناس ، حتى إن الذين كانوا يطلبون العلم من اليونان أنفسهم لم تستكمل آدابهم إلا باقتباس الحكمة عنهم واستخراج الفلسفة من كتبهم ، وكذلك قوم موسى (عليه السلام) لم تكن لهم معرفة بالعلوم إلا بعد مُقامهم فى مصر ومحاضرتهم أهل العلم من رجالها . فتجد أن للقبط فى فلسفة التاريخ نكتة شغلت عقول الحكماء من كل عصرٍ وأمة ، حتى ذهب أفلاطون فى بعض كتبه إلى أنه يلزم أن يكون أتى عليهم عشرة آلاف سنة حتى تمكنوا من بلوغ الغاية التى بلغوها من الأدب والصناعة ودلت عليها الآثار الباقية عنهم إلى هذا اليوم .

و إن كان قد غاب عنا معرفة كثير من سيرهم وأسرارهم فلا لوم نوجهه عليهم من قبيل التقصير أو الإهمال لأنهم لم يغفُلوا عما وجب عليهم نحونا من تأدية علمهم إلينا ، بل اجتهدوا أن يستبقوه على الأيام صلة دائمـة فيما بيننا و بينهم إذ حفظوه لنا فيما هو أصبر الأشياء على الزمان « الحجر » ليأمنوا اتصاله بنا وإفادتنـا به الغرض الذى شغلهم قبلنا من الحكمة والغوص على أسرار الطبيعة . وإنما أفسد هذه الصلة علينا العَفاء الناشئ من سنة الغلب فى الناس ، إذ يتعاقبون فى الأرض دولا بعد دول وأجيالا تحيا بموت أجيال . وتحتاج لحفظ نوعها أن تبيد الجيل الذى كان من قبلها وتسبل على آثاره ستر المحو والعفاء ، وهذا هو السبب الذى قطع الآخرين عن الأولين ، وعمّى علينا قراءة رموز لهم إنْ تبدُ لنا غوامضها تفدنا علما واسعا من حكمتهم ، ونبأ صادقا من سيرهم وأعمالهم . فكم رأيت لهؤلاء القبط من صور على الحجارة مودعة هذا العلم تنظر إلينا بعيون قد غابت تحت غبار القدم . وتبتسم بشفاه تكاد تنطق لو لم

---

(١) المقريزى ١ : ٢٣٣

يصمتها الوَجَم كأنى بها تنتظر أن نخاطبها بلسان تعرفه و إشارة تفهمها من رموز أهلها لتبيح لنا بما استودعوها من هذه الأسرار الثمينة .

على أن أكثر ما وجدت فى آثارهم من الصور (غير الأوثان التى كانوا يعبدونها والحيوان الذى دخل فى ملتهم بطريق التكريم إلى أن صار له تعظيم يشبه أن يكون عبادة والعياذ بالله من جاهلية الناس) إنما هو رسوم هيئات مختلفة لملوك وسوقة منهم تمثلهم فى معايشهم وأعمالهم وفروض دينهم وصنائعهم وسائر أشيائهم ، وليس بينها صور تمثل أناسا غيرهم من الأمم مثلما نرى فى آثار الفرس الذين صوروا اليهود والنَبَط والكنعانيين والقبط والروم والهنود وغيرهم . فيظهر أنه لم تكن لهم خلطة مع الأمم ، ولا اتسعت لهم الفتوح فى دولتهم اتساعها للفرس والروم من بعدهم . وكأنهم خلدوا إلى السكون والدعة بما كثر لديهم من الخيرات وأغناهم مصرهم عما سواه من الأمصار. وهذا مما يخالف طبائع العرب الذين يطمحون بأبصارهم إلى بلدان الخصب ليتوسعوا فيما لا تمره باديتهم الجدباء من نعمة العمران .

عَوْدٌ إلى الحديث عن الرحلة . ثم ركبنا من دندرة إلى قوص من البر الشرقى ، وهى من أعظم مدائن مصر [١] ، فيها قبائل من عرب عدن وغيرهم [٢] ، وليس بمصر أرض يسكنها العرب إلا قوص وأسوان وجهات بلبيس [٣] ، وربما كانوا فى أسوان أكثر منهم فى بادية قوص ، إذ كان يمازجهم فيها قبائل من قريش وقحطان ونزار بن معد من ربيعة ومضر [٤] ، وليس هذا أول عهد العرب بمصر ، فقد أنبأت الأخبار السالفة [٥] أنهم غزوها فى عهود الفراعنة الأولين واستقروا بها

(١) المقريزى ١ : ٢٣٦ وابن بطوطة ١ : ١٠

(٢) تقويم البلدان ١١١

(٣) المقريزى ١ : ٨٠

(٤) المسعودى ١ : ١٩١

(٥) المسعودى .

زمنا فيا لا كفاء له من عز الدولة ونفوذ السلطان. وقوص هذه المدينة فرضة التجار اليمنيين والمصريين والحبشيين ، وفيها جبال وحجارة يجرى فيها النيل من غير أن يكون ثمة سبيل لجريان السفن عليه [١]، (وهى المعروفة بالجنادل والصخور) فتنقل بضاعات المسلمين إلى مراكب الحبشة وتنقل بضاعات الحبشة إلى مراكب المسلمين فوقع فيها العمران من هذا القبيل باجتماع التجار فيها وتوارد الحجاج اليها فى ذهابهم وإيابهم على مراكب النيل .

ولما انفصلنا عن قوص ابتدأت صحراء عيذاب بالامتداد وهى مفازة قاحلة لا عمارة فيها البتة ، فكنا نبيت فيها حيث جن الليل علينا [٢] ثم نفوز إلى ورود الماء من آبار أو مناهل لا نكاد نترك فيها جرعة ماء بعد سقاية دوابنا ، وكنت إذا أصابنا رقدة من حر أجلس فى هودج على ظهور الجمال وأرخى عليه الأستار محركا للهواء فيهون على احتمال عنتها الشديد . إلا أن صحبى من لدن السلطان كان يبرح بهم العطش ويجهد دوابهم فى الأيام الآبتة ، لأن السموم كانت تنشف المياه فى الأسقية ، فكانوا يحتالون لذلك بأن يستصحبوا أبعرة فارغة من الأحمال ويعطشوها قبل الورود ثم يوردوها على الماء نهلا وعللا حتى تمتلئ أجوافها ثم يشدوا أفواهها كيلا تجتر فتبقى فيها الرطوبة فاذا نشفت الأسقية نحروا بضعة أبعرة من هذه الجمال وسقوا خيلنا مما فى بطونها [٣] ، وفى هذا من المشقة ما لم ينزل بنا أشد منه فى جميع ما طرقناه من البلاد ، ولم نزل فى مكابدة عنائه الشديد وقد أضر بنا الحر وأخذ منا مأخذه حتى سهل الله وصولنا بالسلامة إلى عيذاب ، والحمد لله على جميل ما أولاه . حمدا يبلغ رضاه . ويستفيض النعمة من علياه .

وهذه المدينة هى آخر بلاد مصر [٤] ، وعاملها مفوض من لدن الليث ابن الفضل الأبيوردى ، وهى موسعة بأسباب الكسب من الحجاج إلا أن مبانيها

(١) المسعودى ١ : ٤٧ وابن جبير ٦١

(٢) ابن جبير ٦٣

(٣) القزوينى ١٢

(٤) ابن جبير وابن بطوطة ١ : ١٠٩

أشبه ببيوت القرى منها ببيوت المدن[١] ، وكل ما فيها مجلوب إليها حتى الماء[٢] ، وليس لأهلها حرفة للتعيش إلا تعمير سفن للحجاج يسمونها الجُلُبات واحدها جُلْبة وهى ملفقة الإنشاء ، ولا يستعملون فيها المسامير وإنما يخيطون الخشب بالليف ، ويضعون خلالها دُسُرا من عيدان النخل ثم يطلونها بالشحوم والنورة[٣] ، فتستمر عرضة للخطر وآفة لحجاج البيت ، يغرق الكثير منهم بسببها فى بحر فرعون ذى الأهوال الموصوفة [٤] .

ولما أخذت فيها نصيبا من الراحة ركبت البحر ثلاثة أيام إلى جدّة ، وهى قرية كبيرة تجتمع فيها مراكب الحجاج ، وفيها آثار كثيرة تدل على قدم اختطاطها وتنطق بأنها دخلت فى ولاية الفرس . وفيها قبة مشيدة يقال إن موضعها كان منزلا لحواء (عليها السلام) ومسجد بناه عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وجامع بناه الرشيد منذ ثلاث سنين [٥] ، وهو أحفل بناية فى المدينة ، فمكثت فيها بقية النهار ثم ركبت عنها تحت الليل إلى القرين وهو محط رحال الحجاج (إسراعا فى موافاة الرشيد بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل السلام وأزكى التحية) إذ كنت علمت بركوبه إليها من مكة فى صباح اليوم الذى وصلت فيه إلى جدّة ، فبلغته فى جوف الليل ثم سريت منه إلى مكة المكرمة مهوى الأفئدة الصالحة ، فقضيت الواجب من زيارة المشاعر المباركة وابتهلت إلى الله تعالى فى موضع استجابة الدعاء [٦] من البيت العتيق ، والحمد لله عز وجل على أن شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم .

---

(١) تقويم البلدان ١٢١

(٢) المقريزى ١ : ٢٠٣

(٣) ابن جبير ٦٨ والمسعودى ١ : ٧٨

(٤) المقريزى ١ : ٢٠٣ وابن جبير ٧١

(٥) أى سنة ١٨٣ للهجرة وقد ذكره ابن جبير ٧٣

(٦) ابن بطوطة ١ : ٣٠٠ وابن جبير ٨٠

فى ذكر المشاعر المباركة

أما مكة شرفها الله فانهـا بطن واد [١] بين الجبال تسع من الخلق ما لا يعلمه إلا الله سبحانه [٢] لأن الحجاج الوافدين إليها قد يزيدون على مائتى ألف فى الموسم، إذ كان الحج مفروضا على المسلم المستطيع فى العمر مرة لقوله تعالى «ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا» [٣] ، فلو قدّرنا عدد الرجال بثلاثين ألف ألف، وقدّرنا العمر بأربعين سنة لاقتضى أن يكون نصيبها منهم فى كل سنة أكثر ممـا ذكرنا ، فمـا بالك بمن يحج أكثر من مرة فى عمره ، ويقال فى اجتماع النـاس إليهـا من جميع الأطراف إنه لو جمع ما يباع ويشترى بهـا من السلع والمآكل والبضاعات فى ثمانيـة أيام وقت الموسم لأقام الأسواق [٤] فى العـراق كله ونال كل واحد من أهله نصيبه من حاجته .

ولهـا كرمها الله تعالى ثلاثة أبواب ، أولها باب المعلى [٥] وهو إلى الشرق الشمالى ، ومنـه يذهب الذاهب إلى الحجَون وهو جبل بأعلى مكة له ذكر فى الأشعار وفيه صلب الحجاج بن يوسف جثة عبد الله بن الزبير لمـا غلبـه على الخلافة التى كان يناصب عليهـا الأمويين، ثم باب المسفل وهو إلى الجنوب ومنه دخل خالد ابن الوليد يوم الفتح ، ثم باب العمرة وهو إلى الغرب على طـريق الشام وأمامه جبال مكة قد مثلت بلا ارتفاع وكأنها أهوت تواضعا لبيت الله ، أشهرها جبل حِراء وهو الذى اهتز حين كان فوقه النبى (صلى الله عليه وسلم) ومعه أبو بكر وعمر ابن الخطاب رضى الله عنهما فقال له « اثبت حراء فمـا عليك إلا نبى وصِـدّيق

---

(١) ابن بطوطة ١ : ٣٠٣ وتقويم البلدان ٨٧

(٢) ابن جبير ١٠٨

(٣) سورة آل عمران .

(٤) ابن جبير ١١٩

(٥) ابن بطوطة ١ : ٣٠٤ وابن خلكان ١ : ٣٩٨

وشهيد » (١) وكان (صلى الله عليه وسلم) يختلف إليه ويتعبد فيه ، وعليه نزلت أول آية من القرآن الكريم وهى قوله تعالى "اقرأ باسم ربك الذى خلق" (٢) .

وكفى هذه البلدة شرفا أن بناها آدم (عليه السلام) (٣) وهبط إليها جبريل الملك الكريم ونزل فيها الوحى على النبيين وخصها الله بالمشاهد المباركة والمواضع التى هى معدن الطهارة ومظهر نور الملائكة مما ليس مثله فى جميع العالم . فمما تبركت بزيارته من مواضعها الميمونة محل مولد النبى (صلى الله عليه وسلم) وقبة الوحى(٤) التى فيها بنى النبى (صلى الله عليه وسلم) بخديجة أم المؤمنين (رضى الله عنها) والموضع الذى كان يقعد فيه سيد ولد آدم محمد (صلى الله عليه وسلم) ، تبركت بلمسه وتقبيله ، وزرت دار أبى بكر ودار جعفر بن أبى طالب ذى الجناحين ودار الخيزران التى قدمت لك ذكرها فى الرسائل السالفة ، وهى على باب زقاق الخيزران بمقربة من القصر المعروف بمنزل الأبجر (٥) ، وكنت أحب أن أزور المشاهد المباركة التى فى الجبال والغار الذى أوى إليه النبى (صلى الله عليه وسلم) المسمى بغار ثور(٦) الوارد ذكره فى القرآن ، ولكن لم يتيسر لى ذلك لقصر الوقت كما لم يتيسر لى مزار بعض المواضع الميمونة التى هى فى نفس البلدة .

وأما البيت الحرام فقد بناه إبراهيم (عليه السلام) حضين الملائكة لقوله تعالى (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل)(٧) ، وقد أخذ الناس فى تعظيمه والحج إليه من الجاهلية والفرس والعماليق والتبابعة وغيرهم ممن دنا ونأى ، ثم صارت

---

(١) ابن جبير ١١٢

(٢) المسعودى ١ : ٣٠٧ وأبو الفداء ١ : ١١٧

(٣) وربما لم يجده ابن خلدون خبرا صحيحا فى المقدمة ٣٠٦

(٤) ابن جبير والأزرقى .

(٥) الأغانى ٣ : ١١٦

(٦) ابن جبير والأنس الجليل .

(٧) المقدمة ٣٠٦ والمسعودى .

الولاية عليه بعـد ولد إسماعيل إلى جرهم وكانت سدانة البيت ومفاتيحه معهم ، وإلى ذلك يشير مُضاض بن عمرو بن الحارث الجرهمى بقوله[١] :

وكنا ولاة البيت من بعـد نابت   نطوف بذاك البيت والأمر ظاهر

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيس ولم يســمُر بمكة سامر

ثم صارت ولايته إلى خزاعة ثم إلى قريش بعدهم وكانت صـورة إبراهيم وإسماعيل ماثلة[٢] فيـه لأيامهم فأحسنوا ولايته وجددوا بناءه كما أشار إلى ذلك زهير بن أبى سُلمى فى قوله :

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله   رجال بنوه من قريش وجرهم

ثم صارت ولايته بعد الخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم) إلى عبد الله بن الزبير (رضى الله عنهما) فنزع عن كسوته المسوح والأنطاع وكساه الديباج الملون واتخذ له المفاتيح وصفائح الأبواب من الذهب ، وكان يطيبه حتى يوجد ريح المسـك من خارج الحرم[٣] ، فلما رماه يزيد بن معاوية بالمنجنيق بعث إلى صنعاء فى الفضة والكِلس فحملهما ، ثم شرع فى البنـاء على أساس الخليل إبراهيم عليـه السلام ، فمـا كاد يستكمل بناءه حتى وفد الحجاج لقتاله بعد يزيد وحاصره بالزحف والترامى ، وأحرق مكة ورماها بالمنجنيق حتى تصدّعت جدران الكعبة نسأل الله السـلامة

---

(١) الأغانى ١٣ : ١٠٨ وأبو الفداء ١ : ١٢٠ وابن جبير ١٠٩ والعقد الفريد ٣ : ٢٧ وفى مروج الذهب ١ : ٢٠٣ أنه ثابت بن إسماعيل ولعل فى إحدى الروايتين أو كلتيهما تحريفا وفى هذه القصيدة بيت آخر مشهور وهو قوله :

فألقت عصاها واستقر بها النوى   كما قـر عينا بالاياب المسافر

وفى العقد الفريد ١ : ١٣٩ أن راشد بن عبد الله أنشد هـذا البيت وكان فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) المسعودى ١ : ٢٠٥

(٣) الأبشيهى ١ : ١٥

من شرور الأنفس وسيئات الأعمال ، فكتب إليه عبد الملك بن مروان أن يعيد بناءها على الصفة التى بنتها عليها قريش[١] فى أيام النبى (صلى الله عليه وسلم) قبل النبوّة [٢] ، فبناها على ذلك الرسم وهى باقية عليه إلى أيامنا .

وهـذا البيت المكرم مبنى بالحجارة الصُمّ السود مفروش بالرخام المجزّع ، وفيـه عمد ضخمة من الساج ، وسقفه مغشّى بالحرير الملون ، وهو قريب من التربيع ، ونصفه الأعلى من الفضة المذهبة[٣] وله أركان أربعة أولها الركن الشرق الذى فيه الحجر الأسود ، ومنـه ابتداء الطواف ، ولا يُدرى قدر ما استتر من الحجر فى الركن[٤] ، وسعته الظاهرة ثلثا شبر وطوله شبر واحد ، وقد وضعه النبى صلى الله عليه وسلم بيده[٥] على ما هو معروف عند الكل ، ثم الركن العراقى وهو شمالى . ثم الركن الشامىّ وهو غربىّ . ثم الركن ايمانىّ وهو جنوبىّ . وارتفاع هذه الأركان ثمـان وعشرون ذراعا إلا الركن الشرق فانه يزيد عليهـا ذراعا فى الارتفـاع [٦] لانصباب السطح إلى الميزاب[٧] ، وطول الكعبة سـبع وعشرون ذراعا [٨] ، وبابها فى الصفح الذى بين الركن العـراقى والركن الشرق على أحد عشر شبرا من الأرض . وهو من الساج الملبس بالفضة والذهب المنقوش[٩] وطوله ست أذرع وزيادة، وعرضه أربع أذرع وهو قريب من الحجر الأسود ويسمى ما بينهما الملتزَم

(١) المقدمة ٣٠٧

(٢) أبو الفداء ١ : ٢٠٨

(٣) ابن جبير ٨١

(٤) ابن بطوطة ١ : ٣ ٣

(٥) المسعودى ١ : ٣٠٥

(٦) ابن بطوطة ١ : ٣٠

(٧) ابن جبير ٨٠

(٨) الكنز ١٢١

(٩) العقد الفريد ٣ : ٣٥٩

وهو موضع استجابة الدعاء ويتزاحم الناس فيه عند طوافهم بالبيت بحيث لايخلو منهم ساعة من نهار أو ليل ، وقد أخبرنى أمير مكة أنه لا يوجد من يخبر أنه رآه خِلوا من طائف به أو مصــل ، وأخبرنى وهو غاية ما يكون من احترام الدين وشعائره المقدسة أن فى مكة من الصالحين من لم يدخل الكعبة تعظيما لها [١] ، إذ كانت أول بيت وضع للناس فيه آيات بينات « مقام إبراهيم » ومن دخله كان آمنا .

وفى الركن العراقى المذكور باب يسمى باب الرحمة ينتهى بالراقى عليه إلى سطح البيت ، وتحته قبو فيــه حجر مغشّى بالفضة [٢] تبركت بزيارته ولمسه وهو مقام إبراهيم الخليل (عليه السلام) وتحت الميزاب المذهب فى صحن الحِجر قبر إسمـاعيل (عليه السلام) وموضعه رخامة بل رخامتان خضراوان فيهما نكت يميــل لونهما إلى الاصفرار [٣] حتى يخيل للنـاظر أن ذلك تجزيع بأيدى الصناع ، وإلى جانبه مما يلى الركن العراقى قبر هاجر أم إسماعيل عليه السلام وموضعه رخامة خضراء أيضا ، وفى مقابلة ركن الحجر الأسود الميمون قبة بئر زمزم [٤] ، وهى البئر التى شرب منها الخليل عليه السلام [٥] وداخلها مفروش بالرخام ، وعمقها فيما يقال إحدى عشرة قامة ، أربع فضاء وسبع ماء ، وماؤها لمن شربه كما ورد عنه « طعام طعم وشفاء سقم » .

أما الحرم فانه يحدق بالبيت العتيق من جميع جهـاته وهو قائم على عمد من الرخام [٦] ، وله صوامع سبع ، أكبرها فى دار الندوة [٧] وأصغرها على باب الصفا ،

---

(١) القزوينى ٧٧

(٢) المـاوردى ٢٧٨

(٣) ابن جبير ٨٦

(٤) تقويم البلدان ٨٧ والشريشى ٢ : ١١٤

(٥) فى العقد الفريد ٣ : ٣٦٠ أن سقفها قبو مزخرف بالفسيفساء على أربعة أركان تحت كل ركن منها عمودان من رخام متلاصقان .

(٦) فى العقد الفريد ٣ : ٣٥٨ أن بين كل عمودين نحو ١٠ أذرع .

(٧) ذكرها الاتليدى ٧٦

وهو اكبر ابواب الحرم ، ثم بعده باب السلام وباب السدرة وباب الندوة[١] ، وشاهدت فى بعض مقاصير الحرم الشريف مصحفا بخط زيد بن ثابت الأنصارى[٢] ، نسخه بأمر عثمان بن عفان رضى الله عنه سنة ثمانى عشرة للهجرة كما تقدم بيان ذلك ، ولا أدرى فى أى موضع كان قبل أن يوضع هناك ، لأنه لم يكن للحرم فى تلك الأيام جدار ، وإنما كان موضعه دورا[٣] لم تتم زيادتها فيه إلا فى خلافة الوليد بن عبد الملك ، كما أنه لم يتم بناؤه على ما هو عليه اليوم إلا فى خلافة المهدى (رحمه الله) ، وهو الذى زينه بالرسوم[٤] وكتب اسمه فى مواضع كثيرة منه تبركا بالخير الذى صنع ، ومما كتب على سارية منه خارج باب الصفاء (أمر عبد الله محمد المهدى "أصلحه الله" بتوسعة المسجد الحرام مما يلى باب الصفا لتكون الكعبة فى وسط المسجد فى سنة سبع وستين ومائة) .

موافاة الرشيد بالمدينة

وكان انفصالى عن مكة المكرمة لسبع بقين من ذى الحجة . ومررت فى طريقى إلى المدينة المنورة بمنازل أعراب لم يتغربوا بالأسفار . ولا سبق لهم عهد بحضارة الأمصار . فوجدتهم[٥] يقولون بالقيافة والزجر والعنقاء والبومة التى تأخذ بثأر المقتول وغير ذلك مما كان يقول به أهل الجاهلية ، وبلغنى أن بجوارهم اعرابا لم يدخلوا فى دين الاسلام لا يختلفون عنهم إلا بتعظيم عيسى (عليه السلام) وينطقون بالجيم كافا مخففة فينادون الرجل يا ركل[٦] ، فوصلت من مكة إلى بطن مر[٧]

---

(١) ابن جبير ٨٩ والكنز ١٠٣

(٢) الكندى وابن جبير ١٠٢

(٣) المقدمة ١٠٨

(٤) ابن الاثير والخميس ٢ : ٣٢٠ وابن جبير ١٠٧

(٥) راجع مروج الذهب والأغانى وتزيين الأسواق .

(٦) الأغانى ٩ : ١٣٩

(٧) تقويم البلدان ٩٤ وابن جبير ١٨٥

وهو واد خصيب ذو عين فوّارة ، ثم عطفت منه إلى عسفان وهى مدينة يحف بهـا الجبال وفيها كثير من شجر المُقْل وآبار منسوبة إلى عثمان بن عفان [١] (رضى الله عنه) ، ثم ركبت إلى الخُلَيص وهو موضع فى بسيط من الأرض وفيه خيـام لقبيلتين كبيرتين من العرب يقال لهما كنانة وخزاعة وهم متقاربون فى المنزل و بينهم نسب لم تُرَم فيـه العصا[٢] ، ثم امتد بنـا السير من خليص إلى بدر وهى قرية كثيرة الخيرات كانت بإزاء موضع من مواضعها يقال له القليب وقعـة النبى (صلى الله عليه وسلم) المباركة التى أعز الله تعالى بهـا الدين وقهر المشركين [٣] ، ثم اتجهت إلى الصفراء فى صدر النهار ، وهى تبعـد من بدر بريدا ثم إلى الرَّوحاء وهى موضع بئر يقال فى الحكاية إن عليا عليه السلام قاتل فيها الجان[٤] ، ثم رحت أفوز فى الهضاب والبطاح حتى أقبلت على المدينـة المنوّرة حرسها الله وزادها شرفا بمنه وكرمه .

وبعد أن تبركت بزيارة المسجد المكرم وصليت فى الروضة التى بين القبر المقدس والمنبر الذى كان موطئ الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ركبت إلى قصر الإمارة حيث حلّت ركاب الرشيد ، فأصبته إلى مجلس يشبه أن يكون من مجالس قصر له فى بغداد يقال له قصر الفُرْجة ، وهو مزخرف بالصدف[٥] الأبيض وفيه كتابة بالصدف الأحمر والأخضر كأنها لعين الناظر ياقوت وزبرجد[٦] ، فلما وقفت بين يديه بادرنى بالسؤال عن أمر الرسالة وما كلمنى به الأنبرذور ، فأخبرته بما توسم فى غايتها من الخير وما وجدت فى البلاد من عدل العمال ودعائهم له فى مساجد مصر

(١) ابن جبير ١٨٦ والأزرقى .

(٢) تزيين الأسواق ١١٤

(٣) ابن الأثير وأبو الفداء وابن جبير ١٨٩ والقزوينى ٥١

(٤) ابن جبير ١٩١

(٥) المقدمة ٣٥٧

(٦) ابن خلكان ١ : ٣٨٣

والغرب ، وذكرت له من كلام القيصر ما اقتضته جلالة الخلافة ، فشكرني على حسن القيام بهذه المهمة ولكن من غير أن يظهر إليّ ذلك الصفاء الذي كان يشرفني به من قبل ، ولما أذن لي بالانصراف ذهبت إلى موضع البرامكة فوجدت في نفوسهم ما وجدت في نفس الرشيد ، ليس من تجافيهم عن المصافاة بل من إدمان فكرتهم في أمر ظننت أنه وقع بينهم وبينه في المشاعر المباركة بحيلة المدالسين . التي تصادف محلا في قلوب العباسيين .

هذا ختام رسالتي إليك عن رسالتي إلى القيصر وأحب قبل أن أفارق هذه المواطن المقدّسة أن أذكر لك شيئا عن المدينة المنوّرة تبركا بذكره فأقول : إني وجدت المسجد المكرم قائما على أعمدة من الحجارة اللامعة ، وسقفه من الساج المزين بالرسوم [١] ، وجدرانه منزلة بفصوص من الفُسَيْفِساء [٢] تمثل أشجارا وثمارا وأزهارا بأبدع ما يكون من الصناعة ، وهي من عمل الروم والقبط [٣] فيما رسم لهم عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد بن عبد الملك [٤] ، ووجدت الروضة التي تجاور القبر المقدس مؤزرة إلى ثلثها برخام بديع النحت غريب النعت ، وأعلاها مضمخ بالمسك والطيب [٥] ، ورأيت القبر المقدس مبنيا برخام يقال إنه من عمل وردان [٦] ، وعلى رأسه صندوق من الآبنوس مُخَتَّم بالصندل مصفح بالفضة طوله خمسة أشبار في ارتفاع أربعة وعرض ثلاثة . وإلى طرف القبر مما يلي أقدام النبي صلى الله عليه وسلم رأس أبي بكر ، أما عمر بن الخطاب فمدفون عند رجلي أبي بكر

---

(١) ابن جبير والسيوطي .

(٢) العقد الفريد ٣ : ٣٦٢

(٣) القزويني ٧١

(٤) ابن الأثير ٥ : ٤ وأبو الفداء ١ : ٢٠٩ وابن بطوطة ١ : ٢٧٢

(٥) ابن جبير ١٩٢

(٦) الأغاني ١٧ : ٨٤

رضى الله عنهما ، وعليهما قناديل من فضة وذهب[١] ، وبين الركن الجوفى والركن الغربى من المسجد موضع عليه ستر مسبل يقال إنه مهبط جبريل[٢] عليه السلام .

أما المدينة المنورة فإنها بمكان من العظم والاتساع وتدل تسميتها بيثرب بن وائل من ولد سام[٣] بن نوح مع ما هو فيها من الآثار العتيقة على قِدم اختطاطها وعلو شأنها بين مدن الحجاز . ولها أربعة أبواب أعظمها باب الحديد وهو من الحديد[٤] ، ثم باب البقيع حيث الآثار المذكورة والمشاهد المباركة الميمونة[٥] ، وفيها قصور لا يوجد فيما نقله السَفْر المخبرون ما هو أعظم منها فى ديار العرب ، وأعظمها قصر للقداد بن الأسود فى الموضع المعروف بالجرف[٦] ، وهو مجصص الظاهر والباطن[٧] ، وقصر لعثمان بن عفان مشيد بالحجر والكلس وأبوابه من الساج والعَرْعر[٨] وفيها مشاهد كثير من الصحابة والتابعين والأنصار وأهل البيت الكريم (شرفهم الله تعالى) [٩] وقد زرت منها قبر السلالة الطاهرة إبراهيم ابن النبى (صلى الله عليه وسلم) وقبور أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وأولاده ومشاهد أولاد على (عليه السلام) وفى موضع هذه القبور رخامة مكتوب عليها [١٠] :

---

(١) ابن جبير وابن بطوطة ١ : ٢٦٤ وتقويم البلدان ٨٧

(٢) ابن جبير ١٩٣

(٣) الإتقان فى تفسير القرآن ٢ : ١٦٧

(٤) ابن جبير ٢٠٠

(٥) ابن بطوطة ١ : ٢٦٨

(٦) المسعودى ١ : ٣٣٣

(٧) المقدمة ١٧٨

(٨) المسعودى ١ : ٣٣٥

(٩) ابن جبير ١٩٧ و ١٩٩ والمسعودى ٢ : ١٨٢

(١٠) ابن جبير ١٩٨

« بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مبيد الأمم ومحيي الرمم . هذا قبر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدة نساء العالمين . وقبر الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما وعلى بن الحسين بن على بن أبى طالب ومحمد بن على وجعفر بن محمد رضى الله عنهم أجمعين » .

فيالها من قبور ما أشرفها وأكرمها .

وإلى مَقْرُبة من المدينة المنوّرة موضع يقال له قُباء [١] وفيه كان مبرك الناقة بالنبي صلى الله عليه وسلم وموضعه المسجد المبارك الذى أسس على التقوى والرضوان [٢] ، وفى صحنه شبه محراب على مصطبة يقال إنه أول موضع ركع فيه[٣] النبي (صلى الله عليه وسلم) وفى قبلته بئر معروفة ببئر أريس يقال إن النبي (صلى الله عليه وسلم) تفل فيها فعاد ماؤها عذبا صافيا بعد أن كان آجنا أجاجا ، وفيها سقط خاتمه صلى الله عليه وسلم من يد عثمان بن عفان (رضى الله عنه) . هذا بعض الخبر عن المشاعر المباركة والمواطن المقدّسة والقليل دليل على الكثير . وقد خصّ الله تعالى تلك البقاع المباركة من الشرف والتكريم بما لم يخص به غيرها من البلاد . وهو مالك الملك لا رب غيره ولا معبود سواه .

الرشيد والبرامكة فى مكة

هذا ذيل للرسالة أكتبه إليك من ظاهر الحيرة وأنا منفصل عن البرامكة فى كتاب أحمله إلى الرَقة من لدن الرشيد لأعلمك ما بينه و بينهم من الأمر العظيم . كان انفصالنا عن المدينة المنورة فى غد اليوم الذى كتبت فيه هذه الرسالة ،

---

(١) ياقوت وتقويم البلدان .

(٢) أبو الفداء ١ : ١٣٢

(٣) ابن جبير ١٩٩

وعلمت فيما نقل إلىّ أبو زنج الهمذانى صاحب جعفر [١] (أيده الله) أن الرشيد إنما تحول عن البرامكة خوفا من ميل الناس إليهم بما أغدقوا عليهم من الجود والكرم ، فإنه كان إذا جلس فى مكة للعطاء جلس معه يحيى فأعطى مثل عطائه ، وإذا جلس الأمين جلس معه الفضل فأعطى مثل عطائه ، وإذا جلس المأمون جلس معه جعفر فأعطى مثل عطائه ، ثم استرسلوا هم وأولادهم من بعد فى سعة الهبات حتى ذهبت أعطياتهم مثلا بين الناس فانصرفوا عن مديح الخليفة إلى صوغ الشعر فى مدحهم بالكرم ، وكانوا يقولون والله هذا عام الأَعطِيات [٢] وينشدون :

إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت ... بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر

فما خُلِقت إلا لجودٍ أكفُّهم ... وأقدامهم إلا لأعواد مِنبر

فأحدث ذلك فى نفس الرشيد غيظا من تمام النعمة عليهم ، وانطلق المجال لأخصامهم من آل الربيع فيما كانوا يرتقبون من فرصة لتهويل أمرهم على الرشيد نخوفوه استقواءهم بالمال والرجال واستعانوا برقعة رفعوها إليه وزعموا أنها تدور بين الناس وفيها هذه الأبيات [٣] :

قل لأمين الله فى أرضه ... ومَن إليه الحل والعقد

هذا ابن يحيى قد غدا مالكا ... مثلك ما بينكما حد

أمرُك مردود إلى أمره ... وأمرُه ليس له رد

وقد بنى الدار التى ما بنى الفـ ... ـرسُ لها مِثلا ولا الهند

الدر والياقوت حصباؤها ... وتربها العنبر والنَّد

ونحن نخشى أنه وارث ... ملكك إن غيبك اللحد

---

(١) الأغانى ١٧ : ٢٣

(٢) الفخرى .

(٣) ابن خلكان ١ : ١٥٢

فأدخلوا عليه الخوف منهم على سلطانه . فاستدعى من كان بمكة من بنى هاشم ، وبعث إلى المدينة يستقدِم أهل الحل والعقد ، وجدّد البيعة بحضرهم للمأمون بعد الأمين ، وكتبها من بعدهما لمحمد القاسم ولقّبه بالمؤتمن فصير ولاية العهد إلى ثلاثة من أولاده يتعاقبون فيها كما قالت الشعراء فى مديحهم له [١] :

أبو أمين ومأمون ومؤتمن أكرم به والدا برًا وما ولدا

ثم إنه ولى المأمون خراسان وهمذان إلى آخر المشرق ، وأحضر القضاة والشهود وأشهدهم أن جميع ما فى عسكره من الأموال والخزائن والسلاح والكراع وغير ذلك للمأمون وليس له فيه شيء [٢] ، وضم إلى القاسم الجزيرة والثغور والعواصم ، وفرّق فى الناس نحو ألف ألف دينار [٣] ليظهر اقتداره على العطاء الكثير ويحطّ من قدر البرامكة وما وقع فى نفوس الناس من انفرادهم بسعة العطاء دون غيرهم من خليفة أو سلطان . وهو يظن أنه يفعل هذا أمنا لمكروه من ناحيتهم وردًا لمكيدة خافها من وراء ما كانو يعارضونه من قبل فى قسمة الملك بين المأمون والمؤتمن مع أنهم إذا لم تجر لهم موافقة على هذه القسمة فلم يكن ذلك إلا حبا فيه ومنعا لوقوع الشقاق بين أولاده .

وكان مع ما فى قلبه من الموجدة يصانعهم ويظهر استرسال نفسه إليهم حتى لا يفطُنوا إلى ما يريد بهم من المكروه ، فإذا جلسوا إليه أظهر الرضا عنهم وأقبل بالعطف عليهم ليوهمهم أن الأمر على غاية الصفاء . فكان يغرّهم ذلك منه إلا جعفرا (حفظه الله) ، لأنه كان أعلم الناس بما فى نفسه من حب الأَثَرَة حتى إذا أهداه مسروقا غلامه [٤] قال لى والله إن فى إهدائه إلى هذا الغلام لحيلة لم يخف

---

(١) السيوطى .

(٢) ابن الأثير ٦ : ٦٨

(٣) ابن الأثير ٦ : ٦٢

(٤) الأغانى ٣ : ١٤٠ والاتليدى ١٦٨

علىّ أمرها . فإنه يوهمنا برضاه حتى لا نظن به سوءا فيما داخله من الحسد، وقد أخبرنى جبريل بن بختيشوع أن الرشيد إنما تحوّل عنهم بتمحل الفضل بن الربيع الذى كان يذكر له ما على بابهم من الجيوش والأعوان ، ويخوّفه استقواءهم فى فارس وخراسان وتعميرهم خطط الدولة بمن يعرفون فيه حبا لأهل البيت ، ويتهمهم لديه باحتياز مال الجباية [١] وتصرفهم فى الأمور بما يشاءون ، والملوك لا تصبر على مثل ذلك فأوغر صدره خوفا منهم بعد أن ملأ قلبه عداوة لهم [٢] .

هذا ما اتصل بى فى مكة من أمر الرشيد بالبرامكة [٣] ، وقد تحوّل عنهم لأمرين لا أرى له مندوحة فى أحدهما . فأما استفحال ملكهم فى الإسلام وتزلف الملوك إليهم بالهدايا الفاخرة والأموال الطائلة فإنه غير مضرّ بالرشيد وله بهم سند للدولة وفخر فى الملة إلا أن يكون ضعيف البصيرة فاتر الهمة ، وقد مضى لهم من تعظيم شأنه وتقويم سلطانه ما يشهد بأن سيفهم خادم لنصره . وأما وفور المال تحت أيديهم وانبساط الجاه لديهم وكثرة الضياع عندهم فذلك لهم بعد أن تولوا المراتب خمسين سنة فى الوزارة والولاية وقيادة الجيوش ، وليس فيه فىء من أموال المسلمين كما يزعم الواشون بهم إلى السلطان، فكان أولى بالرشيد وأكرم لنفسه أن يذكر بلوغه المجد والصولة بهم لا أن يدبّ فيه الطمع ويمدّ عينه إلى ما ادخروا لولدهم بعد أن دبروا دولته هذا التدبير العظيم .

ولما اجتمعت بالبرامكة بعد ذلك وخلوت بجعفر النفس الزكية علمت مقدار النُفرة التى وقعت بينه وبين الرشيد . فقال لى جعفر انظر كيف أنه يركب هذا المركب الوعر . ما كفاه أننا أقمنا ملكه ومهّدنا أمره حتى صار يحسُدنا على ما آتانا الله من النعمة ، فوالله لئن لم يرجع عن غيه ليكونن ذلك وبالا سريعا

(١) المقدمة ١٤

(٢) ابن الأثير ٦ : ٦٢

(٣) فى الأغانى ٥ : ١١٣ أن الناس كانوا يتحدثون بتحول الرشيد عن البرامكة قبل نكبتهم بأيام .

عليه [١] فقلت يا سيدى ليس للرشيد عنكم مَرغب ولا أظنه يحرم دولته عنايتكم ، فقال تمهل على نفسك ، إن لنا فارس وخراسان ، فإن يجاهرنا بالعدوان يقم فى وجهه من يغالبه على السلطان . فلما رأيت ما بنفس جعفر من التأثر أخذت فى تهدئة خاطره ، وقد كنت أعرفه سريع الرجوع عن غضبه ، فلم يهدأ ثائر صدره ، وإنما أدمن الفكرة فيما يشغَله من القلق ، وأمرنى بألا أفارق بابه فى ذلك الوقت .

وكان الفضل بن الربيع لا يفتُر عن السعاية إلى الرشيد ساعة من ليل او نهار و يخوفه منه اشتراكه فى مؤامرة جارية بينه و بين الفرس ، فكان الرشيد يحتال باستبقاء جعفر عنده والميل إليه بتصنع العطف ليوهمه زوال ما بنفسه من الموجدة ، وكان جلوسى إليه فى ذلك الوقت قد أقلقه كل القلق ، فرأى أن يفصلنى عن البرامكة بوجه لا يُرَدّ على الملوك بأن يوجهنى إلى الرَّقَّة فى كتاب من لدنه إلى عاملها ، وهو يقول لى إن بنا من جميل الاعتقاد بك ما نرتاح فيه إلى إنفاذك برسائلنا ، فكن عند رجائنا فيك ، فأدركت الحيلة من ذلك الأمر ، ولكن أشار إلىّ البرامكة ألا أخالف أمره حتى نطمع فى حسن النجاح ونحصل من المراد بما تم عليه العزم من إثارة خراسان والمناداة بخلافة أهل البيت .

فانفصلت عن البرامكة بالحيرة فى اليوم الذى نزل الرشيد فيه السفن إلى العُمْر الذى بناحية الأنبار [٢] وكان الرشيد قد غلب عليه الخوف فى ذلك الوقت حتى كان إذا تناول الطعام يخشى أن يكون فيه سم [٣] فاستبق الأطباء على مائدته ممن كان مخالفا للبرامكة إلا جبريل بن بختيشوع [٤] ، وقد طوى عنه سرّ ما عزم عليه من إقصائهم عن المراتب إلا كلمة حسد قالها له حين رأى إقبال الملوك على بابهم [٥] ، وأنا اليوم أسير حثيثا حتى لا يفوتنى الرجوع إلى بغداد قبل وصول جعفر بموكب الحجاج .

---

(١) الاتليدى .

(٢) ابن خلكان ١ : ١٥١ .

(٣) المسعودى ٢ : ٢١١ .

(٤) ذكر ابن خلدون فى المقدمة ١٦ أنه كان ينظر فى طعام الرشيد .

(٥) الاتليدى والفخرى .

الرسالة العاشرة

« أصبت بسادة كانوا عيونا بهم نسقى إذا انقطع الغمام »

أكتب هذه الرسالة إليك والدمع جار فى الآماق ليس على البرامكة وهم أحياء فى الناس ، ولكن على الدنيا التى ذهب خيرها وعفّت البلية رسوم محاسنها ، حتى كأنها طلل من هذه الأطلال التى يهجرها الأنس ولا يقف عندها إلا الباكون النادبون .

كنت قبل الوصول إلى الرَّقّة وافانى من قبل البرامكة رسول يستقدمنى إليهم ويعلمنى أن الكتاب الذى أحمله إلى عاملها يأمره فيه الرشيد بأن يستبقينى عنده ويمنعنى من الرجوع إلى الحضرة لما داخله فىّ من الريبة ، ففضضت الكتاب فوجدت فيه تلك الإشارة ، فأصابنى من الانقباض ما يصيب الرجل المستسلم للحَيْن ، لأنى ما كنت أرانى ناجيا من وقوع الغدر بى ووصول المكروه إلىّ ووقفت أتساءل فيما قام بنفس الرشيد من سوء المظنة بى بعد أن أديت رسالته حقها من الإخلاص ، وخدمته خدمة الناصح الأمين ، فلم أجد فى نفسى علة إلا المودة التى بينى وبين البرامكة ، [1] فأتانى أن أنضم إليهم ، فقمت لساعتى وتبدلت بزيى زى الحجاز الجاف ثم ركبت إلى بغداد متنكرا كيلا يعرفنى أحد من الناس .

فلما وصلتها وجدت فى أهلها ذلك الخمول الذى يقع فى الجماعة من هول عظيم ، فاستدللت بذلك على وقوع الأمر بينهم وبين الرشيد ، فأسرعت إلى منازلهم فوجدتها مغلقة وعلى أبوابها حرس الخليفة قد وقفوا بالسيوف ، فاسودت الدنيا فى عينى وامتلأ قلبى من الوحشة وكدت أفقِد إحساس رجلىّ من الجَهد ، إلا أنه لم يكن

(١) ذكره الأغانى ١ : ٢٥ و ٢ : ١٢٣ وقبض الرشيد على صنائع البرامكة ومن هو مشهور بمخالطتهم مذكور فى كتب التاريخ .

لى وأنا طَلِبة الخليفة أن أطيل الوقوف تِلقاء دورهم ، فرجعت أمشى على غيردراية لعلى أصادف صديقا أتوجع إليــه وأستطلع أخبارهم من قِبله ، حتى وصلت إلى دار إسحق النديم [١] فدخلت الدار وحسرت اللثام عن وجهى ، فلما عرفنى ترقرقت عيناه دموعا ، وقال بم أندب البرامكة ؟ أأعزيك أم أعزى نفسى أم أعزى الأيام بفقدهم ، وبكى حتى خنقته العَبرة ؟ وكنت فى ذلك الوقت لا أعى من شدة الهول ، ولم يكن إسحق يكلمنى عن أمرهم مع الرشـيد إلا كلاما متقطعا ممزوجا بالزفرات .

قد علمتَ مما مضى إليك فى الرسالة السالفة موقِف البرامكة مع الرشيد ، هو يحاول الإيقاع بهم حسدا على ماصار إليهم من النعمة ، وهم يسلكون معه مسلك المودة ليرجِع عما قام بنفسه من الحقد و إلا أثاروا الخراسانيين خروجا عليه فى دعوة اهل البيت . وعلمتَ أن الفضل بن الربيع كان موقنا بزوال النعمة عنه مع بقاء البرامكة ، وأنه كان يخوّف الرشـيد مؤامرتهم مع الفرس ويذكر له أن الخلافة فى موقِف بعيد عن التخلص من دهائهم ، إذ كانت الملوك طوع أمرهم وأموال الدولة كلها بأيديهم ، حتى ملأ صــدره من عداوتهم . ثم علمت أن الرشيد كان قد أهداهم مسروقا غلامه ليوهمهم رضاه ولكنك تعلم أنه كان بينه وبين هذا الغلام مواطأة على نقل أحاديثهم إليــه وعد أنفاسهم عليهم ومراقبتهم فى جميــع حركاتهم خديعة منه ، حتى إذا نقل إليه الكلام الذى كان يحدثنى به جعفر فى المشاعر المباركة عمد إلى هدر دمه الزكى ، ووجهنى إلى الرقة مثل المجرمين الذين فى نفوسهم تَبِعَةٌ من شر نعوذ بالله من سخطه .

وقد حدثنى إسحق أن الرشيد كان قبل اليوم الذى نكبهم فيه قــد ركب إلى أرباض المدينــة ومعه إسماعيل بن يحيى الهاشمى وجماعة من أقاربه ، وبينما هو

---

(١) فى الأغانى ٥ أن اسحق بقى ميالا مع البرامكة بعد مقتل جعفر .

يسير إذ نظر إلى موكِب عظيم قد اعترضه عن بعد ، فقال لإسماعيل يا أسماعيل لمن هذا الموكب ؟ قال لأخيك جعفر ، فالتفت يمينا وشمالا و إلى من معه فإذا هم شِرذِمة قليلون ، ثم نظر إلى الموكِب الذى فيه جعفر فلم يره ، فقال يا إسماعيل ما فعل جعفر وموكبه ؟ فقال ياسيدى قد مضى أخوك فى طريقه ولم يعلم بموضعك ، فقال ما رآنا أهلا لأن يزيننا بموكبه ويجملنا بجيشه ، فقال عفوا يا أمير المؤمنين إنه لو علم بموضعك ماتعداك ولا سار إلا بين يديك ثم سار حتى انتهى إلى ضيعة عامرة ومواش كثيرة وعمارة حسنة ، فقال يا إسماعيل لمن هذه الضيعة ؟ فقال لأخيك جعفر فسكت الرشيد وتنفس فى كمد ثم سار وما زال بضياع بعضها أعمر من بعض وكلما مر بضيعة سأل إسماعيل عنها فيقول هى لجعفر ولأخوته ، حتى وصل إلى الحضرة ، فلما خلا مجلسه قال يا إسماعيل انظر إلى البرامكة أغنيناهم وأفقرنا أولادنا وأهل بيتنا ، فإنى لا أعرف لأحد من أولادنا ضيعة من ضِياع البرامكة [1] على طريق واحد بقرب هذه المدينة فكيف بما هو لهم من غير ذلك على غير هذه الطريق فى جميع البلدان ؟ فقال إسماعيل يا أمير المؤمنين إنما البرامكة عبيدك وخدمك والضيعات وأموالهم وجميع ما يملكون هو لك ، فنظر إليه نظرة جبار وقال والله يا إسماعيل ما عدّ البرامكة بنى هاشم إلا عبيدهم ، وإن الدولة لهم ، ولا نعمة لبنى العباس إلا وهم المنعمون بها عليهم ، فقال أمير المؤمنين أبْصَرُ من غيره بخدمه ومواليه ، فقال والله يا إسماعيل إنك لتعلم أنى قلت هذا وكأنى بك تخبرهم به فتتخذ به يدا عندهم ، وإنى آمرك أن تكتم هذا الأمر فإنه لم يعلم به أحد غيرك ، ومتى بلغهم شىء مما جرى بينى وبينك علمت أنه ما أفشاه إلا أنت ، فقال يا أمير المؤمنين اعوذ بالله أن مثلى يفشى سرك ، ثم ودعه وجاءه من الغد وهو فى محل من قصره يشرف على دِجلة وبإزائه منازل البرامكة التى كانت محفوفة باليمن والبركة ، فقال يا إسماعيل هذا ما كنا فيه بالأمس ، انظر كم على باب جعفر من الجيوش والغلمان والقواد والمواكب وليس على باب دارى أحد ، فقال يا أمير المؤمنين

---

(١) الدميرى : ١٥٤ والعقد الفريد ٤ : ٣١

ناشدتك الله ألّا يعلقَ بنفسك شيء من هذا ، فإنما جعفر خادمك ووزيرك وصاحب جيوشك ، وبابه باب من أبوابك فإذا لم يكن الجند على بابه فعلى باب من يكون ؟ فقال والله إن البرامكة قد ملكوا الدولة واحتجفوا أموال الجباية وانصرفوا عن خدمتى إلى محبة العلويين وتعزيز شيعتهم ، وأنا لا أصبر على ذلك [١] .

وكان جعفر فى ذلك الوقت قد عزم على الركوب إلى خراسان [٢] وهو عالم بما أضمر الرشيد له ولأهل بيته من السوء ، فما أحب أن يتركهم بغير حِراسة ، وإنما أبقى فى يد الفضل رجالا يعرِف فيهم الأمانة ليقيهم مكايد الرشيد غير أن الرشيد قد فطَن لما كان يباشره من تعبئة الجند فأيقن بالإشراف على الخطر ، إلّا أن يتمحل فى أمر يغلبه به قبل ركوبه إلى خراسان ، فأرسل إلى بنى هاشم تحت الليل أن يضموا إليهم جماعاتهم ، وأمر الفضل بن الربيع أن يحوّط دور الخلافة بما بين يديه من الحرس والغلمان وأرسل إلى يزيد بن مزيد الشيبانى [٣] أنه إذا ركب جعفر من الغد إلى دور الخلافة يبعث بمن يحوط البرامكة ويقبض عليهم [٤] ، واستبق الأمر سرا لم يستخدم فى قضائه إلا جماعة من أقاربه [٥] دون الغلمان الذين كان يغمرهم جودهم وكرمهم ، ثم أرسل فى تلك الليلة إلى جعفر من يقول له إنه يمكّنه من بيوت المال أن يتناول منها ما يشاء ، ويأخذ من الجند إلى خراسان من ينتخبه ويريده ، وإن أمانته فوق كل أمانة وأمثال هذه المصانعة حتى لا يفطنوا لما أخذ فى تدبيره من اغتيالهم . وكان جعفر يعلم بما فى تمحل الرشيد من المصانعة والرياء ولكنه ظن أنه يريد استمالتهم ورجوعهم إلى الثقة به لا أنه يريد نكبتهم فى صباح تلك الليلة .

---

(١) أبو الفداء ٢ : ١٧

(٢) ذكر الاتليدى أن جعفرا كان عازما على الركوب إلى خراسان فى ذلك الوقت .

(٣) وقد تقدم أنه كان منحرفا عن البرامكة .

(٤) ابن الاثير وأبو الفداء والعقد الفريد .

(٥) ابن خلكان ١ : ١٥٢

ولما أصبح الرشيد استدعى خادمه مسرورا [١] وقال له قد انتخبتك لأمر لم أر له محمدا ولا عبد الله ولا القاسم [٢] فحقق ظنى فيك واحذر أن تخالف فتهلك ، فقال مسرور لك علىّ إمرة مطاعة ، فمرنى بقتل نفسى أفعل ، فقال له امض الساعة إلى الحديقة وحوطها بالحرس وضم إلىّ جماعة من الغلمان ثم اذهب إلى جعفر وجئنى به وقل له إنه وردت كتب من خراسان ، فإذا دخل الباب فلا تدع من معه يدخل بعده ، فإذا تمكنت منه فخذ رأسه ولا تراجعنى فى ذلك ، وإياك إياك أن يفوتك الأمر . فسار مسرور إلى جعفر فأصابه فى داره قد طرح نفسه ليستريح ، فقال له يا سيدى أمير المؤمنين يدعوك لرسائل وردت الساعة فى خريطة البريد من خراسان . فلبس جعفر ثيابه وتقلّد سيفه ثم ركب فى جماعة من الحرس والجند ، لأنه لم يكن بمأمن من غدر العباسيين به ، فلما دخل البـاب طلع عليه من فى الحديقة من الحرس وحاولوا رد غلمانه وهم غير مأمورين بالقتال ، فانفرد به مسرور وبضعة عشر رجلا دخلوا معه البـاب فجرّد عليه السيف وصاح بمن معه من العبيد فأهدروا دمه . وإنى لست أنسُب الشر إلى مسرور هذا الخادم اللئيم ، فما هو إلا ذنب من استرعاه وهو الرشيد ، ومن استرعى الذئب فقد ظلم ، ومع ذلك إنى لا أبرئه من تبعة ذلك الإثم الفظيع ، ولا أرى بينـه وبين شـديد العقاب إلا الموت الذى يساق بعده إلى دار العذاب .

هـذا ما بلغنى من اسحق ثم سمعت فى أحاديث النـاس أن جعفرا لـما صار فى وسط الحديقة ولم ير معه الجنـد ارتاع وندم على ركوبه فى تلك الساعة ، فقال لمسرور يا أخى ما القضية ؟ فقال يا سيدى إن أمير المؤمنين قد أمرنى بقتلك ، فيقولون إن جعفرا بكى حينئذ وجعل يقبّل مسرورا ويقول له أنت تعلم إكرامى لك دون خدم الرشيد وأن حاجاتك عندى مقضية فى جميع الأوقات ، وأنت تعرف

---

(١) الاتليدى والأغانى ١١ : ٥٤ وابن خلكان ١ : ١٥٢ وابن الأثير ٦ : ٦٣

(٢) قوله محمد وعبد الله والقاسم يريد بهم الأمين والمأمون والمؤتمن أولاده .

مكانتى عند الرشيد وما يوجه إلىّ من الأسرار ، ولعل أن يكونوا بلغوه عنى باطلا ، وهذه ألف ألف دينار ، وفى رواية عشرة آلاف ألف دينار أدفعها إليك الساعة وخلّنى أهيم على وجهى ، فقال لا سبيل إلى ذلك ، فقال احملنى إليه وقفنى بين يديه ولعله إذا وقع نظره علىّ تدركه الرحمة فيصفح عنى ، فقـال وهذا أيضا لا سبيل إليه[1] ، ولا يمكننى مراجعته ، فقال توقف عنى ساعة وامض إليه وقل له إنك فرغت مما أمرك به واسمع مايقول ثم عد وافعل ماتريد ، وإنى أشهد الله وملائكته على أنى أشاطرك نعمتى وأوليك من الأمور جسيما إن فعلت ذلك وسلمت لى نفسى ، ولم يزل به وهو يبكى فيما يقولون طمعا فى الحياة حتى قال له ربمـا يكون ذلك ، ثم إنه وكّل به غلمانا من السودان يحفظونه ومضى إلى الرشيد وهو جالس يقطُر غضبا ، فلمـا رآه قال له ثكلتك أمك ماذا فعلت ؟ قال يا أمير المؤمنين قد أنفذت أمرك ، قال فأين رأسه ؟ قال فى قبة الحديقة ، قال فأتنى به الساعة[2] ، فرجع مسرور وجعفر يصلى وقد ركع ركعة فلم يمهله أن يصلى الثانية بل سلّ سيفه وضرب عنقه وأخذ رأسه وطرحه بين يدى الرشـيد يشخُب دما ، فيقولون إن الرشيد تنفس الصُعَداء وبكى بكاء شديدا ، وجعل يقول كالمعاتب ياجعفر ألم أحلك محل نفسى ؟ ياجعفر ما كافأتنى ولا عرفت حقى ولاحفظت عهـدى ولا ذكرت نعمتى ولا فكرت فى صلاح أمرى يا جعفر قد غرتك نفسك فدار عليك الدهر ، وكان يقول ذلك وهو يقرع أسنانه بالقضيب بعد الكلمة والكلمة ، وكان ذلك بين سَلْخ المحرم[3] وأول صفر[4] .

---

(١) الأغانى ١١ : ٥٤ والاتليدى ١٣٧

(٢) ابن الأثير ٦ : ٣٦

(٣) ابن خلكان ٢ : ١٥٢

(٤) أبو المحاسن ١ : ٥٢٦

وقوع التوانى فى الدولة بعد نكبة البرامكة

ولما اتصلت بى هذه الأخبار الفاجعة انهملت عيناى بالدموع لقتل جعفر النفس الزكية بقضاء لا حيلة بعده إلا اللوعة والندم. فكنت مثل الرجل الذى يرى فى منامه هولا ينزل به وهو لا يدرك سره. ولا يجد لنفسه مردًّا يتقى به شره. وإن كان يسوءنى من الرشيد احتياله فى مصانعة البرامكة [١] قبل ركوب جعفر إلى خراسان ليذهلوا عن تدبير ما يتقون به مكايده ظنا بزوال ما عنده من الموجدة، مع أنه كان يضمر قتلهم [٢] (والعياذ بالله من شرور النيات). فإنى ليسوءنى أكثر من ذلك تتبعه النقمة فيمن أخذه منهم (كشف الله الغمة عن قلوبهم) فقد بلغنى عن يحيى والفضل (واحرقتاه) جهد شديد يقاسيانه فى الحبوس، فإنهما ليطلبان الماء الفاتر للوضوء فلا يحصلان عليه، ويشتهيان الطعام تأتيهما به الحراس فلا يجدان من يطبخه لهما فيتوليان طبخه بأنفسهما ويقومان على القِدر [٣] مع جلالة قدرهما فيارحمتا لهؤلاء الملوك الذين أخذهم الرشيد غدرا [٤] تنعاه عليه الأيام. ويُسأل عنه فى يوم القيام. وإنى لأحسب جعفرا مع ما أصابه من الأمر الفظيع أكبر حظا من أبيه واخوته، إذ قدِم على ربه شهيدا فى دعوة أهل البيت ولم يصر إلى هذا الهوان [٥] الذى صاروا إليه وهم الذين عرفتهم عظماء الملة. والرؤساء من أهل التجلة. والذين آتوا الرشيد بحكمتهم منَعة لم يكن مثلها لدولة من دول الإسلام.

---

(١) فى الأغانى ١١ : ٥٤ وغيره أن الرشيد كان يصانع البرامكة.

(٢) فى العقد ٣ : أنه كان يريد قتلهم.

(٣) الاتليدى ١٧٨

(٤) الفخرى.

(٥) ذكر هوان البرامكة فى محبسهم ابن الأثير وابن عبد ربه والابشيهى والاتليدى وأبو الفرج وغيرهم.

ولقد كنت أحب أن أتوصل إلى موضع البرامكة أو أستنبط حيلة لإنقاذهم مما يعانون من الشدة، غير أنى رأيت الأمر لا يتم على الوجه الذى أرومه إلا بالقوة التى تغالب الحرس . ولما كانت جماعتنا فى بغداد فئة قليلة من الرجال وأ كثرهم داخل فى جيش الخليفة وتحت إمرة العباسيين أيقنت أن مجاهرة الرشيد بالعدوان قبل العودة إلى فارس ليست من الرأى الصواب، ولم يكن إحجامى عن ذلك خوفا على نفسى من القتل لأن النفوس لا يعظم بذلها فى سبيل البرامكة ، ولكن رحمة بهم من جور الرشيد الذى يضيّق عليهم بقدر ما يرى من ميل الناس إلى الوصول إليهم أو الثأر بدمهم ، فقد بلغنى أنه لما قام عثمان بن نهيك ليثأر لجعفر ؟ وهو يقول والسيف صلت فى يده . ياضُلَّ ما تجرى به العصا ، واجعفراه ، واسيداه . والله لأقتلن قاتلك ولأثأرن بدمك [1] عزم الرشيد بعد قتل عثمان هذا المبرزِ سيفَه ، الكريمةِ نفسُه على التضييق عليهم وتفريقهم فى الحبوس المنقطعة وقبض ضياعهم عن أهل بيتهم [2] حتى يقتلهم بالشدة التى هى أمر من القتل .

وقد مضى علىّ اليوم فى بغداد وأنا متقطع النفس سبعة وأربعون يوما لم آل فيها جهدا للوصول إليهم فلم أحصل على ذلك مع وفور ما بذلته من المال، وكنت أحب أن ألقى أحدا من خدمهم وحجابهم فلم أظفر بواحد منهم فى بغداد ، وكأنى بهم قد تصدّعوا فى الآفاق [3] فى جملة من هرب من غلمانهم وجواريهم ومغنياتهم [4] ومن هو معروف بمخالطتهم من العلماء والشعراء والندماء وأهل الأدب ، غير أنى رأيت فيمن بقى من الطامعين فيهم دموعا يسترونها عن العيون ، وما وجدت منهم إلا منقبض النفس ومن يذيبه الأسف عليهم حتى كأنهم صدع واحد فى لوم

---

(١) ابن الاثير ٦ : ٦٦

(٢) أبو الفداء ٢ : ٨ والأغانى ٨ : ٧٩ والاتليدى ١٧٤ وابن الأثير ٦ : ٣٦

(٣) الاتليدى ١٧٤

(٤) الاغانى : ١٨٣

الرشيد على قتلهم[1] فما أذكر أنى نزلت مرة إلى السوق إلا نظرت رِقاع الأشعار معلقة على الحيطان رثاء لجعفر وندبا للدنيا لمـا لحق أهله من النكبة الفظيعة . ومما بقى فى ذهنى من هذه الأشعار قول بعضهم وأظنه الرقاشى أو أبا نواس[2] :

الان استرحنا واستراحت ركابنا ... وأمسك من يُجدى ومن كان يجتدى

فقل للطايا قد أمِنت من السُرى ... وطى الفيافى فدفدا بعـد فدفد

وقل للنـايا قـد ظفرت بجعفر ... ولن تظفَرى من بعده بمسوّد

وقل للعطايا بعـد فضلٍ تعطلى ... وقل للرزايا كل يوم تجـددى

ودونك سـيفا برمكيا مهنـدا ... أصيب بسـيف هاشمى مهنـد

وقولهم[3] :

يامنزلا لِعب الزمان بأهـله ... فأبادهم بتفرق لا يجمع

إن الذين عهدتهم فيما مضى ... كان الزمان بهم يضر وينفع

أصبحتَ تفزع من رآك وطالمـا ... كنا إليك من المخاوف نفزع

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم ... وبقِى الذين حياتهم لا تنفع

وقرأت رقعة مكتوبا عليها هــذه الأبيات وأظنها من نظم أنس بن أبى شيخ النصرى[4] صاحب جعفر برّد الله مضجعه وسقى ضريحه صيّب الرحمة والرضوان :

---

(١) أبو المحاسن ١ : ٥٢٧ والفخرى وابن الأثير ٦ : ٧ والعقد الفريد والاتليدى .

(٢) ابن الأثير ٦ : ٦٤ وأبو الفداء ٢ : ١٨ والمسعودى ٢ : ٢٧٩

(٣) الاتليدى ١٨٠

(٤) ذكره صاحب الأغانى ١٧ : ٣٣ وقال صاحب العقــد الفريد إن الرشيد قتله بعــد نكبة البرامكة ١ : ١٨٨

لعمرك ما فى الموت عار على الفتى ... إذا لم تصبه فى الحياة المعاير
ومن كان مما يُحدث الدهرُ جازعا ... فلابد يوما أن يُرى وهو صابر
فلا يبعدنك الله عنى جعفرا ... بروحى ولو دارت علىّ الدوائر
فآليت لا أنفك أبكيك ما دعت ... على فننٍ ورقاء أو طار طائر

وقال على بن أبى معاذ(٢) :

يا أيها المغتر بالدهر ... والدهر ذو صَرْف وذو غدر
لا تأمنِ الدهر وصولاته ... وكن من الدهر على حِذْر
إن كنت ذا جهل بتصريفه ... فانظر إلى المصلوب بالجسر
وخذ من الدنيا صفا عيشها ... واجرِ مع الدهر كما يجرى
كان وزير القائم المرتضى ... وذا الحجا والفضل والذكر
وكانت الدنيا بأقطارها ... إليه فى البر وفى البحر
يشيّد الملك بآرائه ... وكان فيه نافذ الأمر
فبينما جعفر فى ملكه ... عشية الجمعة بالقصر
يطير فى الدنيا بأجناحه ... يأمُل طول الخلد والعمر
إذ عثر الدهر به عثرة ... ياويلنا من عثرة الدهر
فغودر البائس فى ليلة السبت قتيلا مطلع الفجر
وجىء بالشيخ وأولادِه ... يحيى معا فى الغُل والأسر
والبرمكيين وأتباعِهم ... من كان فى الآفاق والمصر
كأنما كانوا على موعد ... كموعد الناس إلى الحشر
وأصبحوا للناس أحدوثة ... سبحان ذى السلطان والأمر

---

(١) الأغانى ١٥ : ٣٦

(٢) المسعودى ٢ : ٢٢٩

وقال سَلْم الخاسر:

خوت أنجم الجدَوى وشُلّت يد الندى   وغاضت بحار الجود بعد البرامك

هوت أنجم كانت لأبناء برمك   بها يعرف الهادى طريقَ المناسك

وقال أشجع السُلَمى :

ولّى عن الدنيا بنو برمك   فلو توالى الناس ما زادوا

كأنما أيامهم كلها   وهى لأهل الأرض أعياد

وقال فيهم أيضا :

قد ساد دهرٌ بنى برمك   ولم يدع فيهم لنا لُقْيا

كانوا أولى الخير وهم أهله   فارتفع الخير عن الدنيا

وقال فيهم صالح الأعرابى :

لقد خان هذا الدهر أبناء برمك   وأىُّ ملوك لم تخنها دهورها ؟

ألم يك يحيى والى الأرض كلها   فأضحى كمن وارته منها قبورها ؟

وقال واحد من بيت البرامكة فى رثائهم وقيل بل هو سليمان الأعمى أخو مسلم ابن الوليد :

أصبت بسادة كانوا عيونا   بهم نسقى اذا انقطع الغمام

فقلت وفى الفؤاد ضريم نار   وللعبرات من عينى انسجام

على اللذات والدنيا جميعا   ودولة آل برمك السلام

جزعت عليك يافضل بن يحيى   ومن يجزع عليك فلا يلام

هوت بك أنجم المعروف فينا   وعزّ بفقدك القوم اللئام

وما أبصرت قبلك ياابن يحيى   حساما قدّه السيف الحسام

الى أن يقول :

أألهو بعدكم وأَقَرُّ عينا　　على اللهو بعدكم حرام

وكيف يطيب لى عيش وفضلٌ　　أسيرٌ دونه البلد الشآم

وجعفر ثاويا بالجسر أبلت　　محاسنه السمائم والقَتام

أمرُّ به فيغلبنى بكائى　　ولكنّ البكاء له أكتتام

أقول وقمت منتحبا لديه　　إلى أن كاد يفضحنى القيام

أما والله لولا خوف واش　　وعين للخليفة لا تنام

لطفنا حول قبرك واستلمنا　　كما للناس بالحجر استلام[(١)]

فكان الرشيد يخاف من كثرة البكاء عليهم وقوع الفتن فى الدولة فلذلك منع الشعراء من رثائهم [(٢)] وجعل عقاب من يُقدم على ذلك القتلَ [(٣)] ، وأمر الحراس أن ينزعوا الرقاع التى علقت فى الأسواق لئلا يثور ثائر الشعب من الشعب[(٤)] ولكنه لم يبلغ من ذلك الغاية التى كان يرومها من محو ذكرهم [(٥)] وطمس معالمهم بعد أن زينوا الخلافة بمحاسنهم خمسين سنة وانطبعت فى قلوب الناس محبتهم [(٦)] بما صنعوا من المعروف وبذلت أيديهم من العطاء . ثم إن خوفه من غوائل هذا الأمر لا يقف عند ما كان يراه من وقوع الفتن فى الدولة فربما وصل إليه أن فارس قد قامت فيها القيامة ، وأن خراسان[(٧)] قد عصفت فيها ريح

(١) الأغانى ١٥ : ٣٦

(٢) الفخرى والنواجى والاتليدى .

(٣) الإسحاقى ٩٨

(٤) أعلام الناس ١٧٤

(٥) ابن الأثير ٦ : ٧٥ والعقد الفريد ٣ : ٢٦ وابن خلكان .

(٦) الاتليدى وابن الأثير والفخرى وأبو الفداء .

(٧) الاتليدى ١٧٤

الفتنة، والمغرب قد تضعضع حكمه فى يد ابن الأغلب، والروم قد جاشوا فى بلدهم وامتنعوا عن تأدية الجزية لعلمهم باختلال الدولة بعد نكبة البرامكة وضعف آل الربيع الذين تولوا الوزارة بعدهم ، ولا أرى لهم بها استمتاعا طويلا كما يشير أبو نواس إلى ذلك بقوله [١] :

ما رعى الدهر آل برمك لما   أن رمى ملكهم بأمر فظيع
إن دهرا لم يرع عهدا ليحيى   غير راع ذمام آل الربيع [٢]

حتى إذا اتصل بهم خبر الروم والتوائهم عن الخراج لم ينبهم العزم ولا الحزم على إبلاغ الرشيد بأنفسهم [٣] بل اتخذوا طريقة البلاغ على ألسنة الندماء ، وفى ذلك يقول الشاعر استخفافا بالأمر ، وهذا بعيد عن سياسات الدول [٤] :

نَقَض الذى أعطاكه نقفور   فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه   غنم أتاك به الإله كثير

فتأمل (رعاك الله) هذه الدولة التى كانت زينة الدنيا فى أيام البرامكة [٥] كيف صارت إلى رجال لا رأى عندهم ولاعزيمة ، فإن بلغك عن وهنها خبر فيما بعد فاعلم أن صدور هذا الفتور ناشئ عن فتور الصدور . وهذه الجنود التى تراها فى قبضة الرشيد لا تنفع دولته ما لم يكن عنده عقل يدير به سياسته ، فكم رأينا من دولة كانت فى العالم عظيمة فأعمى ساستها الجهل فانحطت لفقدان الحكمة . ودولة كان أمرها فى توانٍ فتولاها رجال كبراء أصلحوا ما فيها من الاختلال ، وصعدوا

---

(١) كان أبو نواس منحرفا عن الفضل بن الربيع وفيه يقول :

أيها الراكب المجد إلى الفضـ   ـل ترفق فدون فضل حجاب
ونعم هبك قد وصلت إلى الفضـ   ـل فهل فى يديك إلا التراب

(٢) المحاضرة ٢ : ١١٤

(٣) الأغانى ١٧ : ٤٦

(٤) السيوطى وابن خلدون وابن الأثير ٦ : ٦٦ والأغانى ١٧ : ٤٥ والمسعودى ١ : ١٥٨

(٥) الاتليدى .

بها من العزة المقام الذى لا ينال . وتأمل الدولة الأموية كيف قامت بمعاوية بطل السياســة والتدبير إذ ضم الإسلام إلى مصلحة واحدة من طرف المشرق إلى أقصى المغرب ، [١] ثم أقام دولته على هذا الأساس المتين ، ثم تأمل ما صنع الحجاج بن يوسف وكيف أصلح ما فسد من العراق وأزال ما وقع بين أهله من الشقاق حتى جعل الجــزيرة والحرمين أقرب إلى طاعة الأمويين من الشأم ومصر ثم انظر إلى الدولة العباسية كيف قامت على أثر تلك الدولة بتدبير أبى مسلم (رحمه الله) وكيف عجز أبو جعفر بعــد مقتله عن رد الفرس والأكراد إلا بسياسة خالد البرمكى الذى ضمن له الكفاية عليهم بالرأى [٢] دون الجنود . وانظر إلى دولة الرشيد كيف زهت فى وزارة البرامكة بمـا لم تزه به دولة [٣] الهادى ، ووزراؤه أغفال من آل الربيع . فهذه دول لم تزه بقوة الجند كما يسبق إلى وهم النـاس ، لأنه لم يكن لأبى مسلم من الرجال ما كان لملوك بنى أمية ولم يكن للرشيد ما كان للهادى قبله . وإنما كان المعزز لها رجالا يرسلون من عقولهم على الناس أشعة كأشعة الشمس بها يستنيرون . وفى ضوئها يسيرون ، ولاسيما هــؤلاء البرامكة الأمجـاد الذين حرم الرشيد دولته مشاركتهم له فيهـا وتدبير شؤونها ، ولست أعلم ما يكون من أمره مع صُهْب السبال [٤] ولقد قام به اليوم من النــدم والأسف [٥] على جعفر والتلهف على ما سبق به القضاء ما يشغَله عن الدنيا قاطبة ، فقد أخبرنى من هو مقرب إليــه أنه يذكره لكل طلوع شمس . ويبكى عليــه بتحرق نفس . ولا يستطيع الخلوة بنفسه على انفراد بعد مصرعه إلا أن يكون عنده جماعة يلهو بمسامرتهم عما فرط

---

(١) نذكر هنا أنه ما توطد للإسلام ملك فى إفريقية إلا فى خلافة معاوية بن أبى سفيان .

(٢) ابن خلكان ١ : ١٤٩

(٣) الزمخشرى فى ربيع الأبرار .

(٤) هى لقب للروم .

(٥) الأغانى ١٧ : ٧٤

منه فى امره [١] وإذا خلا مجلسه أمر الحجاب أن يدخلوا عليه من يجدونه من الندماء [٢] ليستأنس بهم و يتسلى بمنادمتهم عما هو فيه من البلاء وقد رأى خلل السياسة فى دولته وكثرة الأراجيف .

فيما يتحدث به الناس من أسباب نكبة الرشيد للبرامكة

ولما كان الحديث عن هذه النكبة الفظيعة دائرا على ألسنة الناس اختلفت آراؤهم فيما دعا الرشيد إليها ، وإن كانت خواطرهم متوافقة فى لومه والبكاء على جعفر . فمن قائل إنه نكبه وأهل بيته لاستبدادهم بأمر الدولة واحتجافهم أموال الجباية ، حتى لقد كان يطلب اليسير من المال فيما يزعمون فلا يصل إليه ، ومن قائل إنه حَنِق على جعفر لتطاوله عليه فى الكلام إذ كان يقول لى لئن لم يرجع الرشيد عن سوء ظنه بهم ليكونن ذلك و بالا سريعا عليه [٣] ، ومن قائل إنه تنغص من الفضل ان يكون أكرم من أولاده ،ومن جعفر أن يكون أفصح منهم لسانا وأحكم سياسة ، ومن محمد أن يفضُلهم فى المروءة ، ومن موسى أن يغلبهم فى الشجاعة فنكبهم لذلك .

ولست أطيل عليك الكلام فى أمر هؤلاء الملوك الذين رماهم الدهر بالأرزاء وسحب عليهم أذيال الفناء . ولو أنى كتبت إليك غير ما ذكرت ما بقى لدىّ إلا البكاء والنحيب ، على أنى أحب أن أختم رسالتى إليك عنهم بذكر مأثرة من بعض ما صنعوا إلى الورى من الجميل . وهى أن الرشيد [٤] مع تشديده فى النهى عن رثائهم بلغه أن رجلا يحضُر ليلا إلى دورهم و ينشد أشعارا ويذكر محاسنهم ومآثرهم

---

(١) العقد الفريد ٣ : ٢٨

(٢) ابن خلكان ١ : ٣٢ وذكر غيره أن الرشيد كثيرا ما كان يوجه خادمه فى طلب بعض خواص الدولة ومن يكون عندهم حينا يطلبهم .

(٣) الاتليدى ١٦٨

(٤) هذه القصة قد وقعت للمأمون لا للرشيد وإنما ذكرناها هاهنا تتميما لمحاسن البرامكة .

ويندبهم ويبكى عليهم ثم ينصرف ، فدعا مسرورا هذا الخادم اللئيم وسازه بالأمر وأمره بأن يمضى تحت الليل حتى يرد تلك المنازل الدارسة التى كانت مظهر الأنس بما آتى الله أهلها من سعة الملك . وأن يستتر خلف بعض الجدران هو واثنان من الخدم سماهما له وأظنهما ياسرا ومروان ، حتى إذا جاء ذلك الشيخ وبكى وندب وأنشد الأشعار قبضوا عليه وجاءوا به إليه فأخذ مسرور الخادمين ومضى بهما آخر الليل إلى تلك المنازل ، فإذاهم بغلام قد أقبل ومعه بساط وكرسى حديد ، وأقبل بعده شيخ له جمال وعليه مهابة وآثار نعمة ، فجلس على الكرسى وجعل يبكى وينتحب ويقول :

ولما رأيت السيف جدّل جعفرا   ونادى مناد للخليفة فى يحيى
بكيت على الدنيا وزاد تأسفى   عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها ، فلما فرغ قبضوا عليه وقالوا له أجب أمير المؤمنين ففزع فزعا شديدا ، وقال دعونى حتى أوصى بوصية ، فإنى لا أوقن بعد اليوم بحياة ، ثم تقدم إلى بعض الدكاكين واستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصيته وسلمها لغلامه ، ثم سار به مسرور إلى دار الرشيد ، فلما مثل بين يديه زجره وقال له من أنت ؟ وبم استوجب البرامكة منك ما تفعل فى خربات دورهم ؟ فقال يا أمير المؤمنين إن للبرامكة أيادى خطيرة ، أفتأذن لى أن أحدثك بحالى معهم ؟ قال قل ، فقال يا أمير المؤمنين أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك ، وقد زالت عنى نعمتى كما تزول عن الرجال ، فلما ركبنى الدين واحتجت إلى بيع ما على رأسى ورءوس أهلى وبيع بيتى الذى ولدت فيه أشاروا على بالخروج إلى البرامكة فخرجت من دمشق ومعى نيف وثلاثون امرأة وصبيا وصبية ، وليس معنا ما يباع أو يوهب ، حتى دخلنا بغداد ونزلنا فى بعض المساجد فدعوت بثياب كنت أعددتها لأستتر بها فلبستها وخرجت وتركتهم جياعا لا شىء عندهم ، ودخلت شوارع بغداد

فاذا بمسجد مزخرف وفى جانبه شيخ متزيٍ بأحسن زِى وزينة ، وعلى الباب خادمان ، وفى الجامع جماعة جلوس فطمِعت فى القوم ، ودخلت المسجد وجلست بين أيديهم ، وكنت أقدّم رجلا وأؤخر أخرى ، والعرق يسيل منى ، لأنها لم تكن صناعتى وإذا بخادم قد أقبل ودعا القوم ، فقاموا وقمت معهم حتى دخلنا جميعا دار يحيى بن خالد ، وإذا هو جالس على دكة فى وسط بستان فيه أطيب الرياحين فسلمنا عليه فردّ علينا السلام وهو يعدّنا مائة وواحدًا ، وبين يديه عشرة من ولده وإذا بغلام أمرد قد عذّر خداه قد أقبل من بعض المقاصير وبين يديه مائة خادم متمنطقون فى أوساطهم بمنطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال ، ومع كل واحد مجمرة من الذهب ، فى كل مجمرة قطعة من العود كهيئة الفِهر قد قرن بها مثلها من العنبر بجلس الغلام بجانب يحيى ووضعت تلك المجامر بين يدى الغلام ، ثم قال يحيى للقاضى زوج بنتى عائشة من ابن عمى هذا نخطب القاضى خطبة الزواج وأجرى صيغة العقد وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا علينا بالنثار من بنادق المسك والعنبر ، فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كمى ، ونظرت فإذا الحاضرون بالمجلس ما بين يحيى وأولاده والمشايخ والغلام مائة واثنا عشر رجلا ، وإذا بمائة واثنى عشر خادما قد أقبلوا يحمل كل واحد منهم صينية من فضة عليها ألف دينار، فوضعوا بين يدى كل واحد منا صينية ، فرأيت القاضى والمشايخ يصبون الدنانير فى أكمامهم ، ويجعلون الصوانى تحت آباطهم ، ويقومون واحدا بعد واحد حتى بقيت وحدى لا أجسر على أخذ الصينية فغمزنى خادم بجُسرت على أخذها ، وجعلت الذهب فى كمى وأخذت الصينية بيدى ، ثم قمت وجعلت ألتفت خلفى مخافة أن أمنع من الذهاب ، فبينما أنا كذلك فى صحن الدار ويحيى يلحظنى إذ قال للخادم ايتنى بهذا الرجل، فرددت إليه، فأمرنى بصب الدنانير والصينية ومافى كمى، ثم قال اجلس بجلست ، فقال لى ممن الرجل ، ولِمَ تلتفت خلفك ؟ فقصصت عليه قصتى فقال للخادم إيتنى بولدى موسى، فأتى به، فقال يابنى هذا رجل غريب نخذه إليك واحفظه بنفسك ونعمتك ، فقبض موسى على وأدخلنى إلى دار من دوره

وأكرمنى غاية الإكرام وأقمت عنده يومى وليلتى فى ألذ عيش وأتم سرور ، فلما أصبح دعا أخاه محمـدا وقال له إن الأمير قد أمرنى بالعطف على هذا الرجل وغير خاف عليك اشتغالى اليوم فى دار أمير المؤمنين فاقبضه إليك وحوطه بنعمتك ففعل ذلك وأكرمنى غاية الإكرام ، فلما كان من الغد تسلمنى أخوه العباس فبت ليلتى عنده بين غِناء وأنوار وبهجة ثم تسلمنى أخوه خالد [١] ولم أزل فى أيدى البرامكة يتداولوننى مدة عشرة أيام لاأعرف خبر عيالى وأهلى أفى الأموات هم أم فى الأحياء . فلما كان اليوم الحادى عشر جاءنى خادم ومعه جماعة من الحشم والغلمان فقالوا لى قم فاخرج إلى عيالك بسـلام ، فقلت ويلاه سُلِبْتُ الدنانيرَ والصينية وأخرج إلى عيالى على هـذه الحالة ، إنا لله وإنا اليه راجعون ، فرفع الستر الأول ثم الثـانى ثم الثالث ثم الرابع ، ولمـا رفع الخادم الستر الأخير قال لى مهما يكن لك من حاجة فارفعها إلىّ فإنى مأمور بقضاء جميع ما تأمرنى به ، ثم بدت لى حجرة كالشمس بهاء وإشراقا ، واستقبلتنى منها رائحة النَد والعود ونفحات المسك ، وإذا بصبيانى وأهلى يتقلبون فى الحرير والديباج ، وحمـل إلىّ ألف ألف درهم وعشرة آلاف دينار ومنشوران بضيعتين من عمل السواد وتلك الصينية التى كنت أخذتها بمـا معها من الدنانير والبنادق ، وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة فى دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم النـاس أأنا من البرامكة أم رجل غريب اصطنعوه ، فلمـا نزلت بهم الفاجعات أجحفنى عاملك على العراق وألزمنى فى هاتين الضيعتين ما لا يفى دخلهما به . ولمـا تحامل على الدهر كنت فى آخر الليل أقصد منـازلهم فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم إلىّ واشكر عطفهم على . فقال الرشيد كم أخذ منك هذا العامل ؟ قلت كذا وكذا ، قال هو مردود عليك وستبقى أنت وعيالك من بعدك على ما كان لك فى أيام البرامكة . فعلا نحيب الرجل حتى كاد يقع من شدة بكائه ، قال له يا هذا قد أحسنا إليك برد ما قد سلب منك فمـا يبكيك ؟ فقال يا أمير المؤمنين وهذا أيضا من صنائع البرامكة ، إذ لو لم آت منازلهم فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل

---

(١) ذكره صاحب العقد الفريد ٣ : ٢٨ من أولاد يحيى بن خالد .

خبرى بأمير المؤمنين وفعل بى ما فعل ما كنت أصل إلى أمير المؤمنين ، فدمعت عينا الرشيد وظهر عليه الحزن ، وقال لعمرى هذا من صنائع البرامكة فعليهم فابك وإياهم فاشكر[1] ، ولله در أبى نواس حيث يقول فى وداع الدنيا التى أوحشت لفقدهم :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم بنى برمك من رائحين وغادِ[2]

---

(١) الفخرى والأتليدى ١٩٩ والأبشيهى ١ : ٢٤٣

(٢) الوطواط ١١٢

خاتمة الكتاب

أودعت رسالتى اليوم إليك سطورا قد كتبتها بدموع العين وأنا بين حزن على هؤلاء الشهداء . وخوف من الرشيد أن يعلمه بموضعى الرقباء فيقطعنى ما ينالنى منه عن الاستصراخ إلى دعوتهم فى خراسان وفارس وسائر بلاد الخير واليُمْن ، لأنى علمت من بعض المقربين إليه أنه يطلبنى طلبا حثيثا، وقد جعل لمن يأتيه بى مالا جزيلا ، وربما كان هذا الكتاب آخر عهدى بمراسلتك بعد اليوم .... وإن كنتَ قد رأيت فيما تقدّم إليك من الكتب السالفة أن العرب قد حصّلوا فى زمامنا هذا ما لم يختلج فى صـدورهم زمن الخلائف ، ونبغوا النبغة التـامة فى جميع الفنون والصناعات والمعارف ، وتبحروا فى حكمة الروم والفرس على اجتهاد ، ودوّنوا أصول الشريعة فى مذاهب صحيحة المبدإ جميلة المعاد ، فإنما الفضل فى ذلك كله عائد إلى البرامكة ، وهم الذين رفعوا منار العلم وقربوا إليهم الأدباء وأجزلوا أعطيتهم بالمـال الكثير ، وكان عصرهم تاجا[1] على هامة الدهر ونورا أضاء به المشرق حتى انقلب من الضعة إلى سمو الارتفاع ، ومن عَماية الجهل إلى نور الاطلاع . فما هو عندى إلا الزمن الذى يبقى موسوما عند العرب بالعلم والصلاح وكثرة الخير وسعة أسباب المعاش والانتفاع بعلوم الأعاجم ومحاسن هؤلاء الملوك[2] الذين كانوا جمال المشرق وحصن الإسلام وزينة العالم[3] ومنعة هذه الدولة التى لم تقم من قبلهم إلا بالحيل والمكايد ، فإنك لتعلم أن الدعوة التى قام بأعبائها أبو مسلم (رحمه الله) إنما كانت لذرية النبى (صلى الله عليه وسلم) وهم أولاد الحسن والحسين (رضى الله عنهم) ولم يكن للعباسيين غرض فى انضمامهم إليها إلا مقارعة بنى أمية فى جملة من انضم

---

(١) العقد الفريد والفخرى والسيوطى وابن خلكان .

(٢) الزمخشرى فى ربيع الأبرار .

(٣) يقول الحصرى ٢ : ١٠٣ إن أيامهم كانت روض الأزمنة .

إليها من أهـل البيوتات ، حتى إذا خدمهم السيف رأوا أن ينفردوا بالخلافة دونهم ، ويصرفوهم عنها بالحيـلة التى كان يمزجها أبو جعفر باشتداده على العمال وإرهاق الرعيـة فى الخراج ، حتى يوقع فيهم الفشل ويقعـدهم عن الخروج عليه فى دعوتهم ، فكان عظماء المـلة يرون ذلك منه ولكنهم لم يروا أن يحملوا الأمة على الخلاف ضنا بالنفوس الصالحـة أن تسيل دماؤها فى قتـال المسلمين بالمسلمين ، فثبت له الملك من هذا الوجه ، لم ينازعه فيه إلا جماعات متفرقة من أهل الدعوة ومن كان لا يضمهم الغرض إلى جامعـة واحدة فى جميع الأنحاء ، فلم يستطيعوا مقاومتـه ولا بلغوا من غرضهم إلا أن جعلوا له سبيلا إلى غلب جمـاعة منهم بعد جماعة ، فلما تغلب عليه حب الولد فخلع ابن عمـه عن ولاية العهد وصيرها للمهدى من بعده لم يكن فى الناس إلا من ينغّص ذلك عليه، فخاف الربيع أن تذهب الخلافة من ولده وله فى مصيرها إلى المهدى مصلحة لا تكون فى دولة غيره من أهل البيت ولا من العباسيين أنفسهم، ففتق له عقله تلك الحيلة التى تسارع أهل الحل والعقد إلى تنفيـذها خوفا من أبى جعفر لظنهم أنه حىّ لم يمت ، فلمـا استوثق له الأمر استهل خلافته باستمالة الناس بالإحسان والمعروف حتى لا تنفر منـــه قلوبهم ولا يظنوا به متـابعة لسيرة أبيه ، وأقام لهم ديوان المظالم ورفع عنهم ضرائب الخراج ووسّع لهم أسباب المعاملة بعد ما ضاقت نفوسهم حتى استمالهم لغرضه وصاروا طوع يمينه ، فلم يبق عليه بعـد ذلك إلا أن يأمن خروج أهل الدعوة فى جمع غير متفرق فرأى أن يستميل إليه الحرم الآمن وهو الموضع الذى ينادى فيـه بالحقوق المقدسة لأربابها من أهل البيت ففرق فى أهله الأموال الجسام . ووالى على عامتهم جزيل الإنعام ، وجدّد لهم بناء البيت الحرام وعهد إلى عظمائهم بالولايات والإمارات ، وأجرى الأرزاق الواسعة على من استخدم فى الجند من أولادهم كما علمت . فلما آلت الخلافة إلى الهـادى وصارت إرثا فى بيت أبى جعفر رأى البرامكة برأيهم الصائب أن ليس للعلويين بعد ذلك كله مطمع فى المشرق بإزاء العبـاسيين الذين يستخدمون الحيلة من وراء السيف لقهر أخصامهم ، فانصرفوا عن تدبير

أمر الحرمين إلى تمهيد الطريق لخلافتهم فى المغرب ، وراموا تعظيم دولة الرشيد بضم المشرق كله إلى جناحه حتى ينصرف عن مقارعة أهل البيت فى إفريقية ويقنع بما دبروا له من السلطان العظيم الذى لم يكن مثله لأحد من الخلفاء قبله ، فكان بعض ما أشاروا به عليه لتعميم هذا السلطان أن يأخذ الرعية باللين والعطف بعد أن أمّنوه خروجهم فى دعوة أهل البيت وبنى أمية وغيرهم ، فجرى على ما رسموه له من سياسة الرفق والحلم برهة من الزمان ثم غلب عليه حب الأَثَرَة فرجع إلى الشدة ونكّل بمن كان أحب الناس إليه .

هذه هى دولة العباسيين التى أشرقت شروق الشمس فى البهاء والعظمة ، وإنها لتحتاج إلى رجال عقلاء يديرون سياستها ، لأنها لو سقطت على يد خليفة قليل الخبرة بأمور الملك ما قامت لها قائمة بعد ذلك ، فاليوم أترك الإسلام بين رايات خضر وسود وبيض ، فأما العلويون فإنهم حائزون أمر المغرب وهم أهل سيف شديد الوطأة . وأما الأمويون فإنهم يرتقبون الخلافة من وراء البحار ، ويرومون إعادة الملك الذى ذهب من أيديهم بغفلة صبيانهم فى دِمَشق ، والمسلمون فى عُرْض ذلك يتمزقون بالفتن والشقاق ، فإذا كان هذا حال الدولة من العظمة وهى متفرقة على أغراض لا تضمها إلى الوحدة فما الظن لو جمعتها عصبية الدين إلى جامعة الإسلام ففى المسلمين ملوك عِظام أحسبهم ينتبهون إلى ما بهم من الانقسام. ويقيمون على أساس الجامعة دولة تهتز لها دول الروم والله يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، لا إله إلا هو رب العرش العظيم .

الأسفار التى وجدت بين يدى وأسندت إليها رواية الرحالة

(علوم الدين والشرع)

	الطبع	السنة
الإتقان للسيوطى	المطبعة الأميرية	١٢٨٧
الأحكام السلطانية للماوردى	بن	١٨٥٣
رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين	المطبعة الأميرية	١٢٨٦
مجمع الأنهر على ملتقى الأبحر لشيخ زاده	القسطنطينية	١٢٧٦
شرح الزرقانى على موطأ الإمام مالك	المطبعة الاميرية	١٢٧٩
كليات أبى البقاء	مصر	١٢٨٧
ومطالعات فى صحيح البخارى وتفسيرى الزمخشرى والبيضاوى		
(علم اللغة)		
صحاح الجوهرى . المحيط للفيروزابادى . فقه اللغة للثعالبى		
(الممالك والبلدان)		
أحسن التقاسيم فى معرفة البلدان والأقاليم للمقدسى	ليدن	١٨٧٧
المسالك والممالك لابن حوقل	»	١٨٧٢
الرحلة (إلى المشرق) لابن جبير	»	١٨٥٢
معجم البلدان لياقوت	ليبسيك	١٨٦٦
تقويم البلدان لأبى الفداء	باريس	١٨٤٠
المسالك والممالك لابن خرداذبة	»	١٨٦٥
الفيض المديد فى النيل السعد لأحمد المنوفى	»	١٨٣٧
مسالك الممالك للاصطخرى	ليدن	١٨٧٠

